

نَفْسِ سُوْرَةِ الْاَحْزَابِ

بِقَلَمِ الْأَمْبِيَّاتِ

عَبْدُ الْفَتْاحِ خَلِيفَةُ

الْمُدْرَسِ بَدَارِ الْعُلُومِ

مَفْقُودُ الطَّبْعِ مَحْفُوظٌ لِلْمُؤَلِّفِ

(وَكُلُّ نَسْخَةٍ لَمْ تَكُنْ مَخْتُومَةً بِخَتَمِ الْمَوْلَى تُعْتَبَرُ مَسْرُوقَةً)

مَطْبَعَةُ مَعْلَمِ الْأَسْمَاءِ بِبَغْدَادِ

0164590



Bibliotheca Alexandrina

نفسِ سيرة الأحرار

الإصاحبة الفضل الأستاذ الكبير والمؤلف الموقر المرحوم
 صاحب مشهور هذا طرا - بقلم - سنة ١٣٥٢
 بقلم الأستاذ ١٤ شعبان ١٣٥٢
 بقلم الأستاذ ١٩ شعبان ١٣٥٢

عبد الفتاح خليفة

المدرس بدار العلوم



مفوه الطبع محفوظة للمؤلف
 (وكل نسخة لم تكن مختومة بختم المؤلف تعتبر مسروقة)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وما النصر إلا من عند الله ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم لآلاء كلمة الله ، فوصلهم الله بأخلاقهم ، وبشرهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وبعد فقد رغب إلى كثير ممن يقرءون ما أكتب في التفسير أن أطبع لهم تفسير سورة الاحزاب ، لما اشتملت عليه من بيان فضل الرسول وأزواجه الطاهرات ، والحكمة في إياحة تعدد الزوجات ، وما حوته من العبر وكبير العظات ، فليت الطالب مستعيناً بالله ، متوكلاً على الله ، وقد ضمنت هذا التفسير كل ما استطعت مما يبطل نقول المضلين ، ويدحض كلام المبطلين ، في الحكمة في زواجه ﷺ بأكثر من أربع ووفاته عن تسع ، وجمعت فيه ما يظهر الأدب الاسلامي ، بأنه خير أدب أخرج للناس ، وإنى أرجو ممن تقع في يده نسخة من هذا التفسير أن يستوعب قراءتها ، حتى يكون لي وله الأجر ، وله الفضل والشكر ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

عبد الفتاح خليفه

للمدرس بدار العلوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَنْقِ اللَّهُ وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَأَنْبِغْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا *
 مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ
 الَّتِي تَفْهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ
 ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي
 السَّبِيلَ * اذْعُوبُوا لَآبَاءَهُمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا
 ءَابَاءَهُمْ فَارْحَمُوا نَفْسَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
 فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَكْمَلْتُمْ تَلَوْبَكُمْ وَكَانَ اللَّهُ ذَفُورًا
 رَحِيمًا * النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ
 وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ
 فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *

هذه السورة شرح وبيان للسورة السابقة وتقرير وتوكيد لها ؛
 وتوضيح لاثبات رسالته ﷺ ، ومقامه الكريم ، وجهاده العظيم ،

لأمره ربه عز وجل في آخر السورة السابقة بانتظار الفرج والنصر في الدنيا والفصل في الخصومات في الآخرة - أمره في أول هذه السورة بتقوى الله تعالى وألا يطيع الكافرين والمنافقين، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وكذبوا بآيات الله تعالى وأعرضوا عنها، فلا يأمن جانبهم ولا يسمع لهم قولا، وسوف فصل الله بينهم يوم القيامة كما قال، فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون، فأول هذه السورة تؤكد لآخر سورة السجدة، وكلاهما في معنى واحد، وهو أمره ﷺ بالسير في طريقه القويم، والاعراض عن أولئك الكافرين، حتى يمكنه الله منهم في الدنيا ويمذهبهم بذنوبهم في الآخرة، فهذه هي المناسبة بين السورتين، وبين أول هذه وآخر تلك. وهذه السورة تسمى سورة الاحزاب، وقد نزلت في المدينة فهي مدنية وآياتها ثلاث وسبعون آية، وقد نسخ الله منها آيات صارت لا تنلي وإن بقيت أحكامها، فن ذلك الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبنة (نكالا من الله، والله عزيز حكيم)، عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: أيها الناس، إن الله بعث محمدا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل آية الرجم، فقرأناها ووعينناها «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها ألبنة» ورجم رسول الله ﷺ ورجنا بعده، فأخشي أن يطول بالناس زمان، فيقول قائل لانجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وعن حذيفة قال قال لي عمر بن الخطاب: كم تعدون سورة الاحزاب؟ قلت: ثنتين أو

ثلاثا وسبعين . قال إن كانت لتقارب سورة البقرة ، وإن كان فيها آية
الرجم . قال تعالى لنبيه ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهُ) إلخ في النداء
بأى بعد يا تشریف المنادى وتنبيه على بيان قدره العظيم ، فقولك يا رجل
أقل في الخطر من قولك يا أيها الرجل ، والأتیان بلفظ النبي بعد يا أيها
يدل على أن المنادى معصوم ، جليل القدر ، ﷺ ، وقد نودى عليه
الصلاة والسلام في القرآن الكريم بالنبي والرسول دون اسمه ونودى
غيره من الرسل باسمه فقال تعالى يا آدم ، يانوح ، يا إبراهيم ، ياموسى
يا عيسى ، يادادود ، ولم يحنى اسمه التشریف منادى بل جاء مخبرا عنه
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ
رِّجَالِكُمْ) وأما قوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا
نَزَّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) وَأَصْلَحَ
بَالِهِمْ) ففيه بيان أنه رسول نزل عليه كتاب هو الحق ، وأن من
آمن به نال السعادة في الدنيا والآخرة فهو مقام إخبار وليس مقام
نداء ، ولم يقسم الله تعالى في القرآن الكريم إلا به ﷺ فقد قال
(لَمَعْرُكٌ إِلَيْهِمْ لَقِيَ سَكْرَتِهِمْ يَمُوتُونَ) وفي هذا غاية التشریف وعلو
القدر وال مقام ، كما في قوله : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقوله :
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) وقوله : (وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ) وهذا قليل من كثير مما ورد في مقامه الكريم ، قال تعالى

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) الكريم العظيم (اتَّقِ اللَّهَ) تعالى ، زد من التقوى ، وأدم على التقوى ، فامن كمال إلا وعند الله أكل منه ، والتقوى ترد دكا أن الايمان ينقص ويزيد ، وهذا الأمر كما في قول نؤمنين اهدنا الصراط المستقيم ، أى أدمنا على الهداية إلى الصراط المستقيم وقد يؤمر المرء بأمر وهو متلبس به كما في قولك للمجد: اجهد ، تريد منه أن يديم هذا الاجتهاد ويستمر عليه ويكثر منه ، وقد يخاطب المرء والمقصود غيره ، فالله تعالى خاطب نبيه والمقصود أمته ، فهو خطاب للأعلى والمقصود من دونه ، ليكون أوقع عند السامع ، فانه إذا سمع الأعلى يؤمر بأمر علم أن من دونه أولى أن ينفذ هذا الأمر ، والتقوى أن تقى نفسك من غضب الله تعالى بعمل ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ، رغبة في الثواب ، واحتراساً من العقاب ، اتق الله بطاعته وأداء فرائضه ، وكل حقوقه عليك والإنهاء صماهى عنه (وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ) المجاهرين بالكفر ، المعروفين به (وَالْمُنَافِقِينَ) الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم — عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ إلى أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطراً أمواهم وخوفه المناققون واليهود بالدينة إن لم يرجع قتلوه فأُتِيَ اللهُ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) وروى أن أبا سفيان ابن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا على النبي

صلى الله عليه وسلم في زمان المودعة التي كانت بينه وبينهم وكان معهم
عبد الله بن أبي ، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس ، فقالوا له ﷺ
ارفض ذكر آلهتنا ، وقل إنها تشفع وتنفع وتدعك وربك ، فشق ذلك
على النبي ﷺ والمؤمنين وهما يقتلهم فنزلت (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ
وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) وعن ابن جريج (وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ)
أبي بن خلف (وَالْمُنَافِقِينَ) أبو عامر الراهب ، وعبد الله بن أبي بن سلول
والجد بن قيس ، لا تسمع لهؤلاء الكافرين الذين يقولون ارجع عن قولك
وارفض ذكر آلهتنا ، وقل إنها تشفع وتنفع ، والذين يقولون لك اطرده
عنك أتباعك من ضعفاء المؤمنين بك حتى تجالسك ، ولا تسمع لهؤلاء
المنافقين الذين يخوفونك بالقتل ، أولئك الذين يظهرون لك الإيمان بالله
والنصيحة لك ، وهم لا يألونك وأصحابك ودينك خبالا ، فلا تقبل
من الفريقين شيئا ، ولا تسمع لهم رأيا ، ولا تستشر منهم أحدا ، فانهم
لك أعداء ، أهل كيد ودهاء . فلا تطع الكافرين من أهل مكة ، ولا
تطع المنافقين من أهل المدينة ، واتق الله وأطع الله وأرض الله (إِنَّ اللَّهَ)
تعالى شأنه (كَانَ) ولا يزال ولن يزال (عَلِيًّا) يعلم كل أمر من مبدئه
إلى نهايته (حَكِيمًا) يضع كل شيء في موضعه لحكمة بالغة ، وغرة
سامية ، والعلم الحكيم أولى وأحق أن يتقى ويطاع أمره ، ويجتنب
مانه من عنه ، لا هؤلاء الكافرون والمنافقون . وتخصيص الكافرين
والمنافقين بترك إطاعتهم ، لأنهم أهل شر وسوء يتربصون به وبأصحابه

وبدينه الدوائر . أما المؤمنون فيسمع لهم ويأخذ برأيهم متى رأى أنه الحق ، وقد أمره الله تعالى بمشاورتهم في قوله (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)
فالكافر والمنافق لا يؤمن جانبها ، وواجب على كل مؤمن ألا يسمع
لها ، وأن يأخذ حذرهما ، بخلاف المؤمن فإنه مأمون بالعاقبة وبخاصة
مع نبيه ﷺ ، ولما بين أن الله عليم حكيم أمره باتباع ما يأمر به وينهى
عنه في كتابه الحكيم ، وقرأ أنه الكريم فقال : (وَأَتَّبِعْ) إذا الخلق
العظيم (مَا يُوحَى) وينتهي (إِلَيْكَ) مع جبريل عليه السلام (مِنْ
رَبِّكَ) من الآيات والذكر الحكيم ، وهذا أمر للنبي ﷺ ولكل
مؤمن أن يعمل بالقرآن وآيه ، ولذلك قال : (إِنَّ اللَّهَ) تعالى الذي
أنزل الكتاب البين (كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ) من خير أو شر (خَبِيرًا)
لا تخفى عليه خافية ، ولا تغيب عنه غائبة ، فيجزى الحسنه بمشر أمثالها
ويضاعف لمن يشاء ويجزى السيئة بمنها ويعفو عن ثواب ، ويعاقب من
كفر وجحد ومات على كفره وجحوده ، ولما أمره ربه عز وجل
بالتقوى وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين بشره بقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَلِيمًا حَكِيمًا) فهو يعلم أنك يضيق صدرك بما تقولون ، وأنتك تود أن يمانهم
إلهمهم للإسلام يرفعون ، ويعلم ما يسرون وما يعلنون ، وأنهم كلقرون
منافقون ، ولما أمره باتباع ما يوحى إليه بشره بقوله (إِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) فهو يعلم ما تعملون من الخيرات ، ويعلم ما يعمل
الكَافِرُونَ والمنافقون من السيئات ، ويجازى كلا بعمله ، فما بعد إن

في الآيتين مناسب لما قبله ولما بعده ، مما يدل على كمال الترتيب والتناسب
ولما كان ﷺ ينتظر من إيمانهم خيراً ، ويرقب من إسلامهم نفعاً ، مما
قد يوم أنه متوكل في نشر الاسلام على إيمانهم قال له ربه عز اسمه لا تبال
بهؤلاء ولا تنتظر منهم خيراً (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) تعالى العليم الحكيم
الخبير القوى القهار في كل أمورك وأحوالك ، وثق بربك في النصر
والظفر ورفعة الاسلام وكثرة المسلمين ، وإعزاز شأن الدين (وَكَفَى
بِاللَّهِ) المميز القدير (وَكَفَى) خفيظاً معيناً موكولاً إليه الأمر وله
الحكم وإليه يرجع الفصل ، فهو الكفيل وحده أن ينصر ويحفظ
ويسعد من توكل عليه ، وأناب إليه ، ولما أمره بتقوى الله وألا يخشى
سواه ، وأن يتوكل على الله : أكد ذلك ثانية ، بأن يخلص قلبه لله ، ولا
يشغله بشيء موله ، وأن يدعوهم إلى أمر الله ، وينهاهم عن محارم الله
من الظهار والتبني وتوارث غير الأقربين فقال عز وجل (مَا جَعَلَ
اللَّهُ) تعالى وما خلق (لِرَجُلٍ) أو امرأة أو أي حيوان (مِنْ قَلْبَيْنِ)
يعقل بهما أو يكونان سبباً في حياته (فِي جَوْفِهِ) الذي هو محل القلب
حتى يخشى بأحدهما الله : ويخشى بالثاني الناس ، أو يفقه بأحدهما أمراً ،
وبالثاني أمراً آخر أو يستمد حياته منهما ، ولم يكن هذا ولن يكون ،
فتسكن الوجهة إلى الله وحده في كل الأمور ، وفي هذا توجيه للنبي
ﷺ إلى أن يفرغ قلبه لربه ، ولا يهتم بأمر هؤلاء الكافرين والمنافقين
بعد أن بلغهم رسالة ربه علي وجهها الاكمل ، فان أسلموا تغير لهم ، وإن

لم يسلموا فشر عليهم ؛ وأن يسير في طريقه داعياً إلى الله باذنه وسراً جاكاً
 منيراً ؛ وألا يعمل عليهم ولا على إسلامهم ، بل يعمل في كل أمره على
 ربه ، وهذا ما يجب أن يعمل كل مؤمن ومسلم في كل أحواله ، يقوم
 بأعماله على أكمل وجوها معتمداً على الله تعالى في جميعها ، ثم أراد أن
 ينهى الناس عن أمور سيئة اعتادوها بعد أن أمرهم بتخليص القلب
 لله تعالى فبدأ بالنهي عن عادة الظهار فقال (وَمَا جَعَلَ) ولم يجعل الله
 تعالى (أَرْوَاجَكُمْ) الثلاثي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَمَاتِكُمْ فيحرم من حرمة
 الأممات مجرد الظهار ، وهذا يبطال لما كان في الجاهلية من إجراء
 أحكام الأمومة على المظاهر منها ، يقال ظاهر من زوجته إذا قال لها
 أنت علي كظهر أمي . وعنى ظاهر عن اتصافه بمعنى إحد ، والمراد
 بالظاهر ما استتر منها من باب إطلاق الجزء على الكل ، وخص الظاهر
 دون غيره تأديباً واجتماعاً عن ذكر غيره ، مما يباح التصريح به ولأنه
 لا يحل النظر إليه لغير الزوج ولو أتى بجزء آخر مما لا يحل النظر إليه
 لغير الزوج كان ظهاراً ، فإذا قال ازوجته أنت علي كظهر أمي أو كبطن
 أمي حرمت عليه ولا تحل له إلا بالكفارة ، وهي غنق رقبة فإن لم يجد
 فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع الصوم فعليه إطعام ستين مسكيناً ،
 غداً وعشاء معتاداً — ثم أراد النهي عن عادة التبنّي فقال عز وجل
 (وَمَا جَعَلَ) ولم يجعل الله تعالى (أَدْعِيَاءَكُمْ) جمع دعي ، وهو الذي
 يدعي ابناً فهو فعيل بمعنى مفعول ، ما جعل الله أَدْعِيَاءَكُمْ مجرد تبيينهم

(أَبْنَاءَكُمْ) كَأَبْنَائِكُمْ في كل أحكام النبوة من النسب والتوارث وغيره وهذا إبطال للمادة أخرى وهي التبني كانت في الجاهلية وجزءاً من صدر الاسلام ، وقد تبني رسول الله ﷺ قبل البعثة زيد بن حارثة ، وتبني الخطاب عامر بن ربيعة ، وتبني أبو حذيفة سالماً ، وقد نزلت هذه الآية في زيد بن حارثة كان يقال له زيد بن محمد ، فأراد الله أن يقطع هذا الالتحاق وهذه النسبة وتلك المادة بقوله جل شأنه . (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) كما قال في هذه السورة (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وقال هنا (ذَلِكَكُمْ) الالتحاق وهذا التبني إنما هو (قَوْلُكُمْ) يخرج (بِأَفْوَاهِكُمْ) فلا يقتضى أن يكون الدعى ابناً حقيقياً ، فانه مخلوق من صلب رجل آخر فلا يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون الانسان الواحد قلبان فهو ابن أبيه من النسب ولو تبناه غيره (وَاللَّهُ) تعالى (يَقُولُ الْحَقُّ) الثابت في كلامه وأحكامه التي منها إخراج القلب لله تعالى وترك الظهار ، وترك التبني (وَهُوَ) بتلك الأحكام (يَهْدِي) بفضلِهِ وإحسانه عباده المخلصين (السَّبِيلَ) سبيل الحق الثابت فاسمعوا أقوله ، واعملوا بأمره ، ودعوا ما نهى عنه من التبني وغيره ، ثم أمرهم بأن ينسبوا الأبناء إلى آبائهم من الصلب تأكيداً لما سبق فقال جل شأنه : (ادْعُوهُمْ) ادعوا من ألحقتموهم بكم وهم ليسوا منكم (لِأَبَائِهِمْ)

من الذب فلا تقولوا زيد بن محمد، ولا عامر بن الخطاب ولكن قولوا
 زيد بن حارثة، ونامر بن ربيعة ذلك الداء (هُوَ أَقْسَطُ) هو أعدل
 (عِنْدَ اللَّهِ) نعالى فيرضى عنكم ويحكمكم، والتفضيل ليس مراداً من
 لفظ أقسط بل المراد أنه هو القسط والعدل، وقد نزلت هذه الآية
 في زيد بن حارثة رضي الله عنه، فمن ابن عمر أن زيد بن حارثة مولى
 رسول صلى الله عليه وسلم: ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل
 القرآن (ادْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ) فقال النبي ﷺ
 أنت زيد بن حارثة بن شراحيل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان
 من أمر زيد بن حارثة رضي الله عنه، أنه كان في أخواله بني معن بن
 نعل من طيء، فأصيب في غلّة من طيء، فقدم به — من أصابه —
 سوق عكاظ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ، يتسوق
 بها، فأوصته عمته خديجة رضي الله عنها، أن يتباع لها غلاماً ظريفاً
 عربياً، إن قدر عليه، فلما جاء، وجد زيداً يباع فيها فأعجبه ظرفه فأبغاه
 فقدم به عليها، وقال لها إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً فإن أعجبك
 نخذه، وإلا فدعيه، فانه قد أعجبني، فلما رآته خديجة أعجبتها، فأخذته
 فزوجه رسول الله ﷺ وهو عدها، فأنجب النبي ﷺ ظرفه: فاستوهمه
 منها فقالت هو لك، فإن أردت عتقه فالولاء لي، فأبى عليها، فوهبته له
 إن شاء أعتق وإن شاء أمسك، قال فشبه عند النبي ﷺ، ثم إنّه خرج
 في إبل لأبي طالب إلى الشام، فرأى قومهم فعرّفهم عنه، فقام إليه

فقال : من أنت يا غلام ، قال : غلام من أهل مكة ، قال : من أنفسهم ، قال : لا ، قال فخر أنت أم مملوك ؟ قال بل مملوك قال لمن ؟ قال لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال له : أعربى أنت أم عجمي ؟ قال : بل عربي ، قال : بمن أهلك ؟ قال : من كلب ، قال : من أي كلب ؟ قال : من بني عبيدود ، قال ويحك ! ابن من أنت ؟ قال ابن حارثة بن شراحبيل قال : وأين أصبت ؟ قال : في أخوالي ، قال : ومن أخوالك ، قال طيء ، قال ما نسألك أمك ؟ قال سعدى ، فعرف أنه ابن حارثة - ودعا أباه - وقال : يا حارثة هذا ابنك فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه : قال : كيف صنع مولاك إليك ، قال : يؤثرني على أهله وولده ورزقت منه حبا فلا أصنع إلا ما شئت ، فركب معه أبوه وعمه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول الله ﷺ ، فقال له حارثة : يا محمد أتم أهل حرم الله وجيرانه وعند بيته ، تفكون العاني ، وتطعمون الأسير ، ابني عبيدك فامن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فانك ابن سيد قومه ، فانا سنرفع لك في الفداء ما أحببت ، فقال له رسول الله ﷺ : أعطيكم خيرا من ذلك ، قالوا : وما هو ؟ قال : أخيره ، فان اختاركم فخذوه بغير فداء ، وإن اختارني فسكروا عنه ، قالوا جزاك الله خيرا ، فقد أحسنت ، فدعا رسول الله ﷺ فقال يا زيد أتمر ف هؤلاء قال نعم : هذا أبي وعمي وأخي ، فقال رسول الله ﷺ فأتانا من قد عرفته ، فلن اخترتهم فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأتانا من تعلم ، فقال زيد ما أنا بختار عليك أحدا أبدا أنت مني بكن الوالد والعم ، فقال له أبوه وعمه ، يا زيد تختار العبودية على

الربوية ، قال ما أنا بفارق هذا الرجل ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه قال اشهدوا أنه حر ، وأنه ابني يرثني وأرثه ، فطابت نفس أبيه وعمه لما رأوا من كرامته عليه ، فلم يزل زيد في الجاهلية يدعى زيد بن محمد حتى نزل القرآن (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ) فدعى زيد بن حارثة ، وعن الحسن بن عثمان رضى الله عنه قال حدثني عدة من الفقهاء وأهل العلم قالوا كاتب عامر بن ربيعة يقال له عامر بن الخطاب وإليه كان ينسب فأُنزل الله فيه وفي زيد بن حارثة وسلم مولى أبي حذيفة والمقداد بن عمرو (ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ) الآية ، ادعواهم لِأَبَائِهِمْ إن علمتم آبائهم (فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا) ولم تعرفوا (آبَاءَهُمْ) فتنسبواهم إليهم (فَأَخْوَانُكُمْ) فهم إخوانكم (فِي الدِّينِ) إن كانوا من أهل ملتكم (وَمَوَالِيكُمْ) إن كانوا عتقاكم ومحردكم ولا تدعواهم أبناءكم وقد شدد النبي ﷺ في النهي عن ذلك ، فقال : من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام ، وقال ﷺ ليس من رجل ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم إلا كفر ، وللقضاء على هذه العادة أباح الشرع الزوج من زوجة الدعي إذا طلقها وقضت عندها ، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك فتزوج زينب بنت جحش وكانت زوجة زيد ابن حارثة فطلقها مختاراً كارها عشرتها وكراهة عشرته ، واعتدت وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم (لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ) ؟ إذا طلقوهن ، وقال تعالى في آية التحريم

(وَحَلَّ لِلْأَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ) احترازاً من زوجة الدعي فانه ليس من الصلب ، والنهي عنه هو الاخلاق والتبني والنسبة إلى غير أصله فيقال ماسر بن الخطاب وزيد بن محمد وهما عامر بن ربيعة ، وزيد بن حارثة . أم قولك يا بني أو يا أبنائي لغير ابنك وأبنائك فلا حرج فيه ، لأن هذا من باب المعاف وتزبل غير الابن منزلة الابن ويقع هذا كثيراً فسا يفعله بعض السيدات العقيبات وبعض السادة العقيمين من التبني ودعوته بين الناس بأنه ابن فلانة أو ابن فلان وليس لهما فهو حرام ، لما فيه من التشبه بأهل الجاهلية وخشية ضياع الانساب ، وإذا نسبتهم إلى غير آبائهم خطأ فلا جناح عليكم ولا إثم فيه كما قال تعالى (وَلَا جُنَاحَ) ولا إثم (عَلَيْكُمْ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ) من الاخلاق بغير الآباء من غير تعمد (وَلَكِنْ) عليكم جناح في (مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) فيما ألحقتموه بغير أبيه عن قصد وتعمد بمد النهي عنه وظهور الحكم فيه بنزول هذه الآية (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) لينفر لمن تاب مسبق منه عن عمد من نسبته لغير أبيه (رَحِيمًا) يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات لمن تاب وأتاب . ثم أكد النهي عن التبني وأن الرسول ليس أباً لزيد ، بل هو أعلى منزلة من الأب والنفس والمال وكل عزيز فقال عز شأنه (النَّبِيُّ) محمد ﷺ «أَوْلَى» وأحق (بِالْمُؤْمِنِينَ) وأقرب إليهم (مِنْ أَنْفُسِهِمْ) في التوفير والتعظيم والحفظ والصون ، لأنه لا يأمرهم ولا

رضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، روى أنه ﷺ قال: والذى
 نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله
 وولده والناس أجمعين، وورد أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله
 والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي فقال ﷺ: لا يا عمر
 حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال والله يا رسول الله لأنت أحب إلى
 من كل شيء حتى من نفسى، فقال ﷺ: الآن يا عمر، ومن حديث أبى
 هريرة رضى الله عنه أنه ﷺ قال: ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس
 به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم (النبيُّ أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
 أَنْفُسِهِمْ) ولما بين منزلته ﷺ نسب أن يبين منزلة أزواجه الطاهرات
 فقال عز وجل (وَأَزْوَاجُهُ) ﷺ (أُمَّهَاتُهُمْ) مثل الامهات في الحرمة
 والاحترام والتوقير والاكرام إلا الإرث، والمراد من دخل بين رضى الله
 عنهن، وكان المسلمون يتوارثون بالمهجرة والمؤاخاة في مبدأ الاسلام،
 فنسخ الله ذلك بقوله: (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ) وأصحاب القرابة (بَعْضُهُمْ
 أَوْلَى بِبَعْضٍ) في التوارث بالقرابة (فِي كِتَابِ اللَّهِ) في اللوح المحفوظ
 أو في القرآن الكريم. وهو هذه الآية وآية الموارث (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُهَاجِرِينَ) فاهل القرابة أولى بالإرث من الأنصار والمهاجرين الذين
 كانوا يتوارثون بالمؤاخاة في صدر الاسلام، قال ابن عباس وغيره: كان
 للمهاجرى يرث الأنصبارى دون قراباته وذوى رحمه، للأخوة التي آخى

ينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن هشام بن عروة عن أبيه عن
الزبير ابن العوام رضى الله عنه قال : أنزل الله عز وجل فينا خاصة
معشر قريش والأنصار (وَأُولُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي
كِتَابِ اللَّهِ) وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال
لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الاخوان ، فواخيناهم ووارثناهم ، فأخى أبو
بكر رضى الله عنه خارجة بن زيد ، وأخى عمر رضى الله عنه فلانا ،
وأخى عثمان رضى الله عنه رجلا من بني زريق ابن سعد الزرق ، ويقول
بعض الناس غيره ، قال الزبير رضى الله عنه : وواخيت أنا كعب بن
مالك ، فجنبته خرفا ، فوالله لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري ،
حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ،
فرجعنا إلى مواريتنا هـ - وصار طريق الإرث ما بينه الله في آية
المواريث ، وصار غير المهاجرى من المسلمين يرث المهاجرى بالقرابة ،
ثم استثنى الوصية من هذا الحكم وأنها تصح لغير أولى الارحام ، ولا
تصح لأولى الارحام . فقال جل شأنه (إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ)
من غير ذوى القرابة (مَعْرُوفًا) هو الوصية ، فإن أوصى لغير أولى
الأرحام نفذت وصيته في الثلث ، والاستثناء متصل كأنه قيل القريب
أولى من الاجنبى من المؤمنين والمهاجرين في كل تقع من ميراث
وصدقة وهبة إلا في الوصية فلها المراد بقوله (مَعْرُوفًا) فإن
الاجنبى أحق بها من القريب الوارث ، ولا تجوز للقريب ويصح أن

يكون الاستثناء منقطعا ويكون المراد الأولوية في الإرث فكأنه قيل القريب الوارث أولى من الأجنبي بالارث، لكن الوضعية لمن أحببتم من غير الوارثين جائزة ويجوز أن يكون المستثنى عاما في كل معروف إلا الارث فكأنه قيل القريب الوارث أولى بالارث من الاجنبي، لكن كل معروف من غير الارث من هبة أو وصية أو صدقة جائز « كَانَ ذَلِكَ » الذي سبق بيانه من أول السورة إلى هنا « فِي الْكِتَابِ » في اللوح المحفوظ أو القرآن الكريم « مَسْطُورًا » مقيدا مذكورا ، فهو من عند الله الذي يجزى الصغيرة والكبيرة ، فاعمل أيها المسلم بما جاء بالكتاب الحكيم والقرآن الكريم « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »



وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لَيْسَ لَكَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذْ كُورَانِمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
هذا استئناف لبيان أنه ﷺ مأمور بالتبليغ في قوله (وَأَتَّبِعْ)

مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) وهذا الأمر بالتبليغ قد أمر به جميع الأنبياء ، وقد أخذ عليهم الميثاق بعد الميثاق أن يبلغوا ما يوحى إليهم وأن يتبعوه ولا يتجاوزوه ، فهذه هي المناسبة بين هذه الآيات والتي قبلها ، ففي السابقة أمر بالتبليغ الوحي ، وفي هذه أمر بتبليغ الوحي ، قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا) واذكر وقت أخذنا (مِنَ النَّبِيِّينَ) جميعاً (مِيثَاقَهُمْ) العهد منهم وعليهم بتبليغ الرسالة ، والبقاء إلى الدين القويم بما آتاه الله من قوة ، وقد أخذ الله هذا الميثاق على كل نبي عند إرساله أن يبلغ ما أمر بتبليغه ، وأن يصدق من سبقه من الأنبياء فيما جاءوا به من دينهم ، ولو أنه أتى بأزيد من سبقه ، أو نسخ شيئاً من سبقه كما أوحى إليه ، وكما أمره مولاه الحكيم العليم ، ثم خصص خمسة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فذكرهم ثانياً لأنهم من أولى العزم ، ولأنهم أولو فضل ظاهر ، ومزية واضحة ، فقال عز وجل : (وَمِنكَ) أي وأخذنا الميثاق منك أيها النبي الكريم ، ولأنما قدم نبينا ﷺ لأفضليته (وَمِنْ نُوحٍ) عليه السلام ، وأخذنا الميثاق من نوح ، ولم يذكر آدم عليه السلام لأن رسالته كانت إرشاداً لأولاده ولم يكن معها عقاب للمخالفين بالهلاك ، وبدأ بنوح عليه السلام ، لأنه أصل ثلث للناس بعد الطوفان ، وقد عاقب الله قومه المخالفين بالطوفان (وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ) عليهم السلام (وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ) من هؤلاء النبيين الكرام (مِيثَاقًا) عظيماً (غَلِيظًا) وثيقاً قوياً

جليل الشأن، وأعاد هذا المعنى مع أنه مفهوم من قوله (مِيثَاقَهُمْ) لتأكيد أنه ميثاق وثيق قوى شديد، لا كمثل ميثاق، فالميثاق الغليظ هو قسم الميثاق الأول المقصود من قوله (مِيثَاقَهُمْ) أو هو ميثاق آخر، فيكون الأول مأخوذاً بطريق الاقرار من غير عيين على أنهم يبلغون رسالة ربهم، ويكون الثاني مأخوذاً بطريق القسم «اليمين» على أن يبلغوا الرسالة بعد ذلك الاقرار الأول فكان ميثاقاً غليظاً لأنه بعد إقرار ولا أنه مع قسم ويمين، وإنما أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل وأمرهم وأخذ عليهم الميثاق بالتبليغ (لِيَسْأَلَ) الله يوم القيامة (الصَّادِقِينَ) من الأنبياء والصالحين الذين صدقوا بما أوحى إليهم وصدقوا الرسل فيما جاءوا به، وعملوا بما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه. فيسألهم ربهم يوم يقوم الناس لرب العالمين (عَنْ صِدْقِهِمْ) لتطمئن قلوبهم، ولتظهر لأهل الموقف درجاتهم، ولتتأملهم الملائكة بالبشرى قائلين لهم هذا يومكم الذي كنتم توعدون (وَأَعَدَّ) الله تعالى يوم القيامة (لِلْكَافِرِينَ) الذين مانوا على الكفر (عَذَابًا) شديداً (أَلِيًّا) يؤلمهم ويشوي وجوههم وأبدانهم ما كئين فيه أبداً لا يجدون عنه محيصاً ولا مفرأً، وعلى هذا عقوبة المكفين. إما ثواب وإما عذاب، والصادق مثاب والكاذب معاقب، ومما يؤثر عن علي رضي الله عنه أنه قال: في وصف الدنيا، حلالها حساب، وحرامها عقاب، وأعد معطوف علي أخذنا، فكانه قيل أخذ الله تعالى على

النبيين مينا فهم أن يبلغوا رسالة ربهم ، لأجل إجابة المؤمنين ، وأعد للكافرين عذاباً أليماً ، أو يكون معطوفاً على المأخوذ من قوله ليسأل ؛ كأنه قيل ، يسألهم ليثيبهم وقد أثابهم ، وأعد لغيرهم عذاباً أليماً ، أو في الكلام حذفوا كنفاه ومقتضى الظاهر أن يقال : ليسأل الصادقين عن صدقهم ، فإذا سألهم أعد لهم نعيماً مقبلاً ، وليسأل الكاذبين عن تكذيبهم ، فإذا سألهم أدانهم وأعد لهم عذاباً أليماً ، أو يكون أعد جملة حالية على تقدير قد والمعنى ليسأل الصادقين عن صدقهم وقد أعد للكافرين عذاباً أليماً ، ثم أكد الأمر بالافتاء من الله وحده مرة أخرى فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) إلخ . ومن هذه الآية إلى قوله تعالى : (وَأَوْزَيْنَاكُمْ أَنْزِمَهُمْ وَدَيَّارُهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَانَا لَمْ تَطْنُوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا) نزلت في غزوة الأحزاب ، وهي غزوة الخندق ، ففي هذه الغزوة اشتد الأمر على الأصحاب لاجتماع المشركين بأسرهم واليهود بأجمعهم يريدون استئصال النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فنصر الله أوليائه ، وخذل أعداءه ، (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) فينبني للعبد ألا يخاف ولا ياتق إلا ربه العلي الكبير ، التقدير البصير ، وسأتكلم على هذه الغزوة المبارك ثم أتبعها بالتفسير فأقول وبالله هدايتي وتوفيقى وهو حسبي ونعم الوكيل .

غزوة الاحزاب

ونسى غزوة الخندق وسبها أنه ﷺ ذهب في دية إلى بني النضير فأجمعوا أمرهم على الغدر به ﷺ وقتله ، وصعد أحدهم على سطح كان الرسول جالسا تحت جداره ليلقي عليه حجرا فيقتله ، وعرف الرسول ذلك فقام مسرعا وجمع الناس لغزو بني النضير ففرزاهم ونصره الله عليهم وأجلاهم عن المدينة ، فحنقوا لذلك وذهب كباروهم إلى مكة وحرصوا قريشا على حرب الرسول ، وقالوا لهم إنا معكم حتى نستأصل محمداً ﷺ ومن معه ، وقال أبو سفيان مرحبا وأهلا ، أحب الناس إلينا من أعانتنا على عداوة محمد ﷺ ولكننا لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا ، ثم قالت قريش لهم: أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أنحن أهدى سبيلا أم محمد ؟ فقالوا : أنتم أهدى سبيلا ، فأنزل الله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا . أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَالِ فَإِذَا يُؤْتُونَ النَّاسَ يَقِيرًا . أَمْ يَسُدُّونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَآءِنَا مِ اللَّهِ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ مِثْلًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ

مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّعْتَهُ وَكَفَى رَجُلَهُمْ سَعِيرًا ، وقال فيهم
الامام البوصيري:

لا تكذب إن اليهود وقد زاء غوا عن الحق معشر لؤماء
جحدا المصطفى وآمن بالطا غوت قوم هم عندهم شرفاء

وفرحت قريش بالوفد ودعوته إلى حرب الرسول ، وعندئذ خرج
من بطون قريش خمسون رجلا وتحالفوا ، وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة
متعلقين بأستارها ألا يخذل بعضهم بعضا ، وأن يكونوا كلهم بدءا واحدة
على محمد ﷺ ما بقي منهم رجل ، ثم ذهب الوفد الخاسر إلى غطفان
وأعلموهم بمخالفة قريش ، وجعلوا لهم تمر خبير سنة إن هم ناصرهم
فتجهزت قريش وأتباعها وغطفان وأتباعها ، وقائد قريش سفيان بن حرب
وقائد غطفان عيينة بن حصن الفزاري وانضمت لقريش وغطفان قبائل
العرب ، فكانت عدة هذا الجيش بما فيه من عرب ويهود زهاء اثني عشر ألفا
اتقسموا إلى ثلاث فرق ، وساروا وقيادتهم إلى أبي سفيان بن حرب ، بقضيمهم
وقضيضهم ، وجمعهم وجوعهم ، وخيلهم وأبهرتهم ، وعدتهم وعددهم ،
وخيلاتهم وكبرياتهم لا يشكون في ظفرهم واتصارهم وأنهم سيستأصلون
الرسول وأصحابه ، ولما علم الرسول بأمرهم ، دعا الناس وأخبرهم خبر
عدوهم ، وشاورهم في الأمر ، فاشتاروا عليه بالخذنق ، وكان سلمان
الفارسي رضي الله عنه هو الذي أشار بذلك ، فاتبعوا هذا الرأي وحفروا
الخذنق حول المدينة ، وقد عمل الرسول مع المسلمين في حفرة ، وحمل

التراب على ظهره ، وأصاب المسلمين تعب وجوع لأنه كان زمن عسرة
وعام مجاعة ، فجعل الرسول يسلمهم بقوله :
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فافقر للانصار والمهاجرة
وم يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
وجعل الرسول يقول وهو يحمل التراب وقد غطى التراب جلده
بطنه الشريف :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لا قينا
المشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أئينا
وجعلوا يعملون باستمرار ، وإذا احتاج أحدهم لحاجة استأذن الرسول
في قضائها ثم يعود للعمل ، وجعل المنافقون يتباطئون ويخذلون غيرهم
من غير استئذان ، ونام زيد بن ثابت من شدة التعب فأخذ عمارة بن
حزم سلاحه وهو نائم في الخندق . فلما أفاق فزع على سلاحه ، فسأل
الرسول ممن عنده علم بسلاحه ، فقال عمارة أنا يا رسول الله وهو عندي
فأمره برده إليه ، ونهى أن يروح المسلم أخاه يأخذ متاعه ولو لاعباً .
وقد استعصبت على الصحابة صخرة عظيمة فشكوا إلى الرسول ، فأخذ
المعول وضربها ، فصارت ككتيلاً مهيلاً ورملاً سائلاً ، ولما ضرب ظهر
بريق من المعول في الصخرة ، فبشرهم الرسول بفتح اليمن والشام وببلاد
كسرى ، فقال المنافقون ألا تعجبون من محمد ينيكم ويعدكم الباطل ،

ويخبركم أنكم تفتحون البلاد والمدائن وأنتم تحفرون الخندق في الفرق
والخوف ، لا تستطيعون أن تبرزوا ، فأنزل الله تعالى (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ
الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ
تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، يَبْدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يملآن التراب في أثوابهما لفقدهما
المساكل (المقاطف) ، وكان من أكثر الناس عملا وشدة في حفر الخندق
سلمان الفارسي رضي الله عنه ، حتى قال الأنصار هو مناء وقال المهاجرون
هو منا ، فقال النبي ﷺ هو منا أهل البيت ؛ وجاءت ابنة بشير بن سعد
لأيها وخالها عبد الله بن رواحة وهما يحفران الخندق ، بقليل من التمر
ليتغديا به ؟ فقال لها الرسول هاتيه فصبت في كفي الرسول فملاهما ثم أمر
بثوب فبسط وجعل عليه التمر ، وأمر أن ينادى في أهل الخندق ، هلموا
إلى الغداء ، فاجتمعوا يأكلون وهو يزيد ، حتى صدروا عنه ، وإنه لملأ
جوانب الثوب ، وكان المسلمون قد لبثوا ثلاثة أيام لا ينشقون زاداً ،
وقد ربط الرسول الحجر على بطنه من الجوع ليكون قدوة وأسوة
للمسلمين والناس أجمعين . والله قادر على أن يرسل إليه الخير كله

ورأودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شم
ومكثوا في حفر الخندق أكثر من عشرين يوماً ، وكان الثعلبان من
بلخ ومن لم يبلغ يعمل فيه ، ولما فرغ الرسول من حفر الخندق كانت
قريش قد أقبلت عن معها وهم زهاء اثني عشر ألفاً ، فزلت قريش بجميع

الأسبيل ، وغطفان ومن معهم إلى جانب أحد ، وكان المسلمون ثلاثة
لاف فأكثر ، عسكر بهم الرسول إلى سفح سلع وهو جبل فوق
المدينة ، فجعل ظهر عسكرة إلى سلع وجعل الخندق بينه وبين العدو ،
وضربت له قبة من آدم يتعاقب فيها ثلاثة من نسائه وهن عائشة وأسملة
وزينب بنت جحش ، رضى الله عنهن ، وجعل النساء والذراري في
الآطام ، وعرض الغلمان ، فن رآه بلغ خمس عشرة سنة أبقاه ، ومن كان
صغيراً رده إلى أهله . واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله
عنه ، وأمر المسلمين بالجد وعدم النصر ، وأعطى لواء المهاجرين زيد بن
حرقة ، ولواء الأنصار سعد بن عباد ، وأرسل الرسول سليطاً وسفيان
ابن عوف طليعة ، فقتلها الأحزاب فجيء بهما إليه ﷺ ، فأمر بلفهما
في قبر واحد ، فهما الشهيدان القرينان ، وبذلك كان الأحزاب هم البادئين
بالمردوان ، وقد صار كل قائد منهم يحول بعسكره حول الخندق ويجمعون
ويفترقون ، ويتناوشون المسلمين ، ومضت مدة وليس بينهم وبين المسلمين
إلا الرمي بالنبل والحجارة ، ثم رأوا في الخندق مضيقاً ، فأقبل نوفل
ابن عبد الله بن المغيرة على فرسه واقتحمه فوقم في الخندق واندقت عنقه
وقتلته الله وطلبوا جنته على جمل فلم يقبل الرسول وصرح لهم بها من
غير جعل ، وسعى حُيي بن أخطب إلى بني قريظة حتى حملهم على تقص
عهد الرسول ، وكان حُيي بن أخطب في اليهود كأبي جهل في قريش ؛
عداوة وبغضاً للرسول لعنهما الله ، وأرسل الرسول من يأتي بخبر في
قريظة ، فماد الرسل وأخبروا أن بني قريظة قهضوا العهد فاشتد الأمر

على الرسول وأصحابه ، وشاع الخبر ، وعظم البلاء ، وخيف على من في المدينة من التدرأى والنساء أكثر من الخوف على أهل الخندق فأرسل الرسول قسما من الجيش لحمايتهم ، وأصبح العدو يحرق بالمسلمين من كل جانب ، فاضطربت النفوس ، وكثرت الطنون ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا ، وأرجف المناقون وقالوا (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) وخرجت طائفتان من المسلمين ليلا فالتفتلوا وكل يظن أنه يقاتل عدوه وكان فيهم جراحة وقتل ، ولما نادوا بشعائهم وهو (حم لا ينصرون) كف بعضهم عن بعض ، وعلم الرسول فقال جراحكم في سبيل الله ، ومن قتل فهو شهيد وكان الرسول يذهب بمفرده لحراسة نفرة كانت في الخندق ، فاذا أخذه البرد استدقأ ثم عاد إلى الحراسة وهو يقول (ما أخشى أن يوتى المسلمون إلا منها) ثم عهد بجراستها إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وذهب إلى قبته فنام قليلا ثم قام يصلي ، وكان إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة لقوله تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) وخرج فرأى كثرة المشركين ، فقال . اللهم ادفع عنا شرهم وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك ، ودعا عليهم مرة أخرى فقال : اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم ، وانصرنا عليهم ووزلزلهم ، وقال يا صبريخ المكرويين ، يا عجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فانك ترى ما نزل بى وبأصحابى ، وأخذ الرسول يدبر الامر وسط هذا الكرب

الشديد إلى عيينة بن حصن الفزاري قائد غطفان وإلى الحارث بن عوف
المرى قائد بني مرة ، أن يرجعا عن معهما ولهما ثلث غار المدينة فطلبنا
النصف فأبى الرسول ثم رضينا بالثلث وكتبنا صحيفة بذلك ، ولم يوقع
عليها الرسول حتى أخبر سعد بن معاذ وسعد بن عباد رضي الله عنهما
واستشارهما فقالا يا رسول الله ، إن كل أمرأ من السماء فامض له ، وإن
كل أمرأ لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة ، وإن كل هو الرأي فإ
لهم عندنا إلا السيف ، فقال ﷺ . لو أمرني الله ماشاورتكما ، والله
ما أصنم ذلك إلا لاني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ،
وكالبوك من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمر ما ، فقال
سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم — يريد غطفان
على الشرك بالله وعبادة الاوثان ، لانبيد الله ولا نعرفه وهم لا يعلمون
أن يأكلوا منا مرة الا قرى أو يبعوا . وإن كانوا ليأكلون العلف^(١) في
الجاهلية من الجهد . أخين أكرمنا الله بالاسلام . وهدانا له . وأعزنا
بك وبه نعطيهم أموالنا ونعطيهم الدنية . ما لنا بهنا من حاجة والله لا نعطيهم
إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم فابطلوا ما بنا لصحيفة . وقال الرسول
لعيينة والحارث . ارجعا . بيننا وبينكم السيف رافعا صوته ﷺ ،
ولما طال المقام بالمشركين أقبلت طائفة منهم وأكروها خيولهم على
اقتحام الخندق وفيهم عمرو بن ود ، وعمره إذ ذاك تسعون سنة ، فقال
من يبارز فقام إليه على رضي الله عنه وقال أنا له يا رسول الله ، فقال

(١) العلف سبيء الطعام من لحم ونبات

الرسول اجلس فانه عمرو بن ود ، فكرز عمرو النداء وجعل يستهزئ
ويقول : أين جنتكم التي تزعمون أن من قتل منكم دخلها ،
وأنشد آياتا منها

ولقد جمعت من النداء ، بجمعكم هل من مبارز
إن الشجاعة في الفتى والجود من خير العرائز

فقال إليه على رضى الله عنه فقال له الرسول اجلس فانه عمرو بن ود
ثم نادى الثلاثة فقام على رضى الله عنه فقال له الرسول إنه عمرو فقال على
رضى الله عنه وإن كان عمرًا ، فاذن له النبي ﷺ ، وأعطاه سيفه ذا الفقار
وألبسه درعه الحديد وضمه بجمته ، وقال : اللهم أعنه عليه ، اللهم هذا
أخي وابن عمي فلا تدرني فردا ، وأنت خير الوارثين ، ومشى على رضى
الله عنه إلى عمرو — لعنه الله وهو يأنشد آياتا منها .

لا تعجلن فقد أنا ك مجيب قولك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائر

ثم قال يا عمرو : إنك كنت تقول لا يدعوني أحد إلى واحدة من
ثلاث إلا قبلتها قال أجل ! فقال على فاني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله وتسلم رب العالمين ، فقال يابن أخي : أخرعني
هذه ، قال فأخرى ترجع إلى بلادك ، فإن يك محمد ﷺ صادقاً كنت أسعد
الناس به ، وإن يك كاذباً كان الذي تريد ، قال هذا مالا تتحدث به نساء
قريش أبداً ، قال فالثالثة ما هي ؟ قال البراز ، فضحك عمرو ، وقال إن هذه
الخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يروعي بها يابن أخي ، والله

ما أحب أن أقتلك، فقال علي رضي الله عنه ولكني والله أحب أن أقتلك
انزل عن فرسك فنزل مفضباً، وسل سيفه كأنه شعلة نار، فمقر به
فرسه وضرب وجهه، وأقبل على علي رضي الله عنه فاستقبله على بدرته
فضربها عمرو بسيفه فهدأ وأثبت فيها السيف، وأصاب رأس علي
فشجه، فضربه على ققطع جبل عنقه فسقط عمرو صريعاً وكبر المسلمون
وعرف الرسول أنه قتل حين سمع التكبير، وفرح المسلمون، وخذل
المشركون، وقالوا نريد جثته بعشرة آلاف دينار، فقال الرسول هو
لكم ولا تأكلن من الموتى، وكان شعار الأنصار (حم لا نصرون)
وشعار المهاجرين (يا خيل الله)، وم المسلمون يقتل من اقتحموا الخندق
فقروا هاربين، وأسلم نعيم بن مسعود الأشجعي وأتى إلى الرسول،
فقال له ﷺ، إنما أنت رجل واحد، نخذل عنا ما استطعت؛ فلن الحرب
خدعة، وقل ما بدالك، فأنت في حل، فخرج نعيم إلى بني قريظة وقال
لهم إن فريشا وغطفان ليسوا مثلكم — البلد بلكم؛ وبها أموالكم
ونسأؤكم وأبناؤكم، ولا تقدرون أن ترحلوا عنه إلى غيره، وإن فريشا
وغطفان إن كانت نصرة ربكم، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلصوا
بينكم وبين بلدكم ومحمد فيه، ولا طاعة لكم به إن خلا بكم، فلاقاتلوا
معه حتى تأخذوا منهم رهناً سبعة رجال من أشrafهم، يكونون
بأيديكم، حتى يقاتلوا معكم محمداً، ولا يتركوكم، فقالوا أشرت بالأي
فقال لهم اكتبوا عني، قالوا ففعل، ثم خرج حتى أتى فريشا، فقال لأبي
سفيان ومن معه إن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين

محمد من تقضهم عهده وأرسلوا إليه : إنا قد ندنا على ما فعلنا ، فهل
يرضيك أن نأخذ لك من قریش و غطفان سبعين رجلا من أشrafهم ،
تضرب أعناقهم ، وتكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم : فأرسل
إليهم أن نعم ! فإن بمنوا إليكم يطلبون رهنا من رجالكم : فلا تدفعوا
إليهم رجلا واحداً ، واحذروهم على أسراركم ، واكنموا عني ما قلت لكم
ثم ذهب إلى غطفان وقال مثل مقالته لقریش وحذرهم ، فأرسل أبو سفيان
ورعوس غطفان إلى بني قريظة يوم السبت يقولون : إنا لسنا بدار مقام
وقد هلك الخف والحافر ، فأعدوا للقتال وتعالوا نناجز محمدًا ومن معه ،
ونفرغ ما بيننا وبينهم : فقال بنو قريظة . إننا لا قتال هذا اليوم ، ولا قتال
حتى تعطونا رهنا سبعين رجلا . فقالوا : صدق والله نعيم ، وكسر ذلك من
شوكتهم وفرق من جمعهم . ولما أراد الله الانتقام من الظالمين ، وهزيمة
المشركين ، أرسل عليهم ريحا عاصفاً ، في ليال شديدة البرد معتمة مظلمة
فقوضت بيوتهم ، وقطعت أطنانهم ، وأطفأت نيرانهم ، وكفأت قدورهم
وصارت تلقى الرمال على أمتعتهم ، وأرسل الله عليهم الملائكة وكانوا
ألفاء فزلوا ، ووقع الرعب في قلوبهم : قال تعالى ، (وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) فتنادوا بالرحيل ،
ونولوا مدبرين وتركوا ما استنقلوه من أمتعتهم (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ ، وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا) واقتضرت هذه الرياح على المشركين
ولم تصب المسلمين ، والمليدان واحد ، والله قادر ، وما ذلك على الله بعزيز

لما شغل المشركون بالريح عن المسلمين ، قال الرسول : ألا رجل يقوم ، فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ، أسأل الله أن يكون رفيق في الجنة قال ذلك ثلاثا ، فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد ، فدعا الرسول حذيفة بن اليمان وقال له : تسمع كلامي ولا قوم ؟ فقال : لا ، والله يبعثك بالحق ما قدرت ، لما بي من الجوع والخوف والبرد ، فقال اذهب حفظك الله من أمامك ، ومن خلفك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، حتى ترجع إلينا ، فقام حذيفة مستبشراً وقد ذهب عنه كل ما كان يجده ، ومضى حتى دخل صفوف المشركين ، والظلام دامس ، والريح حاصف ، فوجدهم يتنادون الرحيل الرحيل ، لما أصابهم من طول المقام ، وذهب الخلف والحافر ، ووقوع الخلاف بينهم وبين قريظة بخدعة نعيم رضى الله عنه ، واستيلاء العرب على قلوبهم من الملائكة ، ثم عاد حذيفة إلى الرسول فوجده قائماً يصلي ، فلما أتم أخبره ، فحمد الله وأثني عليه ، وبقي حذيفة في عافية منذ خروجه إلى المشركين ، حتى عودته إلى الرسول وإخباره ثم ماودة البرد وجعل يرتعد ، فدعاه الرسول وغطاه بفضل شملته ، فنام حتى مطلع الفجر — فالسلم مادام في طاعة ربه فهو في أمن وعافية

وحفظ من كل سوء . ولما علم الرسول والمؤمنون ما حل بالمشركين فرحوا
فرحاً عظيماً ، وشكروا الله كثيراً ، وقال الرسول حين رأى انصراف المشركين مخذولين ، الآن نفرزوم ولا يفرزوتنا ، وعند منصرفهم أرسل أبو سفيان إلى الرسول بكتاب يقول فيه : لقد سرت إليك في جمع

وَأَنَا أُرِيدُ إِلَّا أَغُودَ حَتَّى أُسْتَأْصَلَ لَكُمْ، وَلَكِ مِنْ يَوْمٍ كَيْومٍ أَحَدٌ، فَارْسَلْ
إِلَيْهِ الرِّسُولَ كِتَابًا فِيهِ : أَمَا بَعْدَ فَقْدِ أَتَانِي كِتَابُكَ، وَقَدْ عَاغَرَكِ بِاللهِ الْعُرُودُ
أَمَا مَاذُ كَرْتِ أَنْكَ سَرْتِ إِلَيْنَا وَأَنْتِ لَا تَرِيدِينَ أَنْ تَعُودِي حَتَّى تَسْتَأْصِلِنَا
فَذَلِكَ أَمْرٌ يَحُولُ اللهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، وَبِحِمْلِ لَنَا فِيهِ الْعَافِيَةِ وَلِيَا تَيْنَ عَلَيْكَ
يَوْمٌ أَ كَسَرِ فِيهِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى وَأَسَافَا وَثَالِثَةً ، وَهَبِلَ (أَصْنَامُهُمْ بِالسَّكْبَةِ
يَعْبُدُونَهَا) وَقَدْ كُنْ مَقَاتِلُ الرِّسُولِ ، وَصَدَّقَ اللهُ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ حِزْبَهُ ،
وَكَسَرَ الرِّسُولَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَّةَ (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ
وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ
زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَكُفُّوا نَافِثَاتِهِمْ *
هَئَانِكَ أَتَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ
وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ
قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ
فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ

يُرِيدُونَ إِلَّا إِفْرَارًا * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا
الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ
مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا ذَبَابًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا * قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ
الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُنْعَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا *
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَمْضِيكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

لما أمر الله سبحانه وتعالى بتقواه ، والتوكل عليه والتفرغ له ،
ونهى عن دعوى الجاهلية ، وأظهر مقام نبيه ﷺ ، وأنه مقدم لدى
كل مؤمن على نفسه وماله وولده والديه والناس أجمعين ، وبين أنه
أخذ الميثاق على الرسل كلهم بالتبليغ ، شرع يقم البرهان على ذلك كله
بما كان في غزوة الأحزاب مما يبرهن على أن الله تعالى هو الذى يجب
أن يتقى ، وأن يتوكل عليه ، وأن يفرد بالتقديس والتعظيم ، وأن رسوله
ﷺ هو النبي حقاً ، المحبوب حقاً ، المصطفى المختار صدقاً ، المقدم على
النفس والمال وكل قيس ، فإن الله نصره وأكرمه وأعزه وأظفزه على
كثرة أعدائه ، وقلة أصحابه ، فقال جل شأنه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)
يذكر قصة الأحزاب وهى وقعة الخندق وكانت فى شوال سنة خمس
لهجرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ) الآية ، قال كان يوم أبى سفيان

يوم الاحزاب ، وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال يوم الخندق :
 يا رسول الله ، هل من شيء تقول ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، قال نعم
 قولوا : اللهم استر عورتنا ، وآمن روعاتنا ، قال : فضرب الله وجوه
 أعدائه بالريح ، فهزمهم الله بالريح ، فالآيات نزلت في غزوة الأحزاب
 قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى وكتبه ورسله وبما جاء به
 النبي محمد ﷺ من السابقين الاولين ، من الانصار والمهاجرين (اذْكُرُوا)
 واشكروا (نِعْمَةَ اللَّهِ) تعالى الى أنعمها (عَلَيْكُمْ) يوم الخندق وهى
 نعمة على المؤمنين بعدكم ، فلن انكسار الاحزاب فى هذا اليوم كان
 انكساراً شديدا لم يحم لهم بعده قاعة ، فأعز الله الدين ، ونصر المؤمنين
 فهى نعمة عامة ، ومنة تامة للمتقدمين والتأخرين من المؤمنين ، اذكروا
 أيها المؤمنون (إِذْ جَاءَتْكُمْ) الى المدينة (جُنُودٌ) هى جنود الاحزاب
 بقضها وقضيضها ، وخيلها ورجلها ، وشأنها ونعمها وعدتها وسلاحها ،
 تريد استئصالكم ، وتبى محوكم ، وتغلي صدورها بالحقد عليكم ،
 وهم قريش ، وبنو أسد ، وخطفان ، وبنو عامر ، وبنو سليم ، وبنو النضير
 وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة ؛ فى اثني عشر ألفاً ، ولم يكن مع
 الرسول سوى ثلاثة آلاف فيهم الناقصون ومن فى قلوبهم مرض ، مما
 لا ريب معه فى أن النصر للأحزاب ، ولكن الله تعالى نصر رسوله ،
 وخذل أعداءه كما قال : (فَأَرْسَلْنَا) بأمرنا وقدرتنا (عَلَيْهِمْ) على هؤلاء
 الاحزاب المشركين الظالمين (رِيحًا) عاصفاً فى ليال مظلمة باردة ، أثارت

التراب في وجوههم ، وألقهم على جنوبهم وظهورهم ، وقلعت الأوتاد وقطعت الأطناب وأطفأت النيران ، وأكفأت القصور ، وأهالجت الخيل بعضها في بعض ، وأقت الرعب في قلوبهم ، حتى قال طليعة بن خويلد الاسدي : أما محمد ﷺ فقد بدأكم بالسحر ، فالنجاء النجاء ، ثم قال : « وَجُنُودًا » وأرسلنا عليهم مع الريح جنوداً من الملائكة وغيرهم « لَمْ تَرَوْهَا » ولم تبصروها (وَمَا يَسْلُمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

ولما رأى الأحزاب تلك ذعروا وسقط في أيديهم وتنادوا بالنجاء .
النجاء ، لا مقام لكم ، الرحيل الرحيل : وأنهمزوا مدبرين ، ورجعوا خاسرين ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، واتمد نصركم الله عليهم لما قسم به من أخذ المدة وإعداد القوة وحسن النية (وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ) من حفر الخندق ، والتأهب للقتال ، والاخلاص في الجهاد ، مع اعتمادكم وتوكلكم والتجائكم إلى الله في فضله وكرمه ، وعدله وإحسانه ، قاصدين إعلاء كلمة الله تعالى ، وخذلان الشيطان وحزبه لعنهم الله ، كان الله بكل ما عملتم وقصدتم (بَصِيرًا) علماً خبيراً ، لا يخفى عليه خافية من أمركم ولا من أمر أعدائكم ، فنصركم وخذلهم ، وأعزكم وأذلهم ، وأحياكم وأماتهم (أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ، (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَا ذُنَّ اللَّهِ) والله مع الصابرين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُورُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودُ الْأَحْزَابِ ، إِذْ كُورُوا فَضْلَهُ عَلَيْكُمْ « إِذْ جَاءَكُمْ » زاحفين عليكم وأنتم بالمدينة (مِنْ

فَوْقِكُمْ) من أعلى الوادى من جهة الشرق وهم بنو غطفان ومن
 شاليهم، من أهل نجد، وبنو قريظة، وبنو النضير (وَمِنْ أَسْفَلَ
 مِنْكُمْ) من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش ومن شاليهم
 من الأحابيش وبنو كنانة وأهل تهامة، ثم أحاطوا بكم من جميع
 الجوانب، اذكروا أيها المؤمنون إذ جاءوكم «وَإِذْ زَاغَتْ» ومالت
 منكم «وَالْأَبْصَارُ» وانحرفت عن مستوى نظرها ولم تستقر على حال
 هلمما وخوفاً وحيرة ورعباً (وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ) وبلغت قلوبكم (الْحَنَاجِرَ)
 من هول ما ترون، وشدة ما تشاهدون، فما ينتم الموت، وإذا اشتد
 الفزع تأثر القلب فيضغط على الرئة فيفسد الحلقوم ويضيق النفس وقد
 لا يجد مخرجاً فيموت، وقد عبر عن ذلك بقوله (بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)
 مبالغة في بيان ما هم فيه من فزع، وأهم بلغوا أقصى الشدة كن في
 مكررة الموت؛ تتعطل وظيفة القلب فلا يمد الجسم بالحياة فزول
 الروح كما قال تعالى: (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ)
 قوله (وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) كناية عن الفزع الشديد، والاشراف
 على الهلاك، والضيق الشديد، والهول العظيم. ثم زاد في بيان ما هم
 فيه من كرب فقال جل شأنه (وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) اشتد بكم الامر
 وزاغت الابصار، وبلغت القلوب الحناجر وأنتم من شدة الفزع تظنون
 بالله تعالى الذى وعدكم النصر، الظنون الكثيرة، لأن هول الموقف

أنساكم ما وعدكم ديكم ، تلك الظنون التي نشأت من شدة الكرب
وتسلط الرعب ، لكثرة الأعداء ، وقلة النصراء . ففى خواطر
اضطرارية أتت لهم كرها لاطلوما . وقهراً لا اختياراً . فلا عقب عليها
لأن الخوف أوجبها . والفرع أوجدها . ولا يكلف الله قساً إلا وسعها
وهى ظنون كثيرة ففهم من ظن النصر والظفر مع هذا الكرب شقة
بالله وفضله . والرسول ووعده . وقالوا هم فى تلك الشدة (هَذَا مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَّقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)
ومفهم من ظن الهزيمة لكثرة الأعداء . وقالوا هذا من الله ابتلاء .
ثم يكون الظفر والنصر بعد ذلك . لقوله تعالى فى غزوة بدر (وَيُرِيدُ
اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ
وَيُبَيِّطَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) . ومنهم من ظن أنه الاستئصال
وتعود الجاهلية سيرتها الأولى . لوقوعهم بين أيدى أعدائهم من كل
جانب . وأعداؤهم كثيرون وهم قليلون . وعدة أعدائهم أضعاف عدتهم
وكل هؤلاء الظانين مؤمنون موقنون مسلمون مطمئنون راضون بقضاه
الله وقدره كما قال تعالى (فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ
وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) وقوله (الظُّنُونَا) يرسم بالألف ويوقف عليه
بالألف . وتحذف ألقه وصلا . وفى قراءة ثبتت وقفاً ووصلاً . ثم زاد
فى بيان ما كانوا فيه من الفرع والشدة والرعب فقال جل شأنه

« هُنَّا لَكَ » في هذا الموقف المفزع . وفي تلك الحال السيئة . وفي هذا الزمن المملوء بالكرب . والجوع والضيق والعسر والبرد « ابْتَلَيْ » واختبر « الْمُؤْمِنُونَ » ابتلاهم الله تعالى واختبرهم في هذا المكان أو في هذا الوقت، ايزدادوا إيماناً مع إيمانهم . وثواباً على ثوابهم . وعسكاً بدينهم وربهم ورسولهم . ونجحوا في هذا الاختبار . وثبتوا مع هذا الابتلاء . وقد فسر هذا الابتلاء بقوله « وَزَلْزَلُوا » وزلزل المؤمنين « زَلْزَالاً شَدِيداً » واضطربوا اضطراباً شديداً ، لما كانوا فيه من جوع أليم . وفزع كبير ، وعدو كثير . وخصم عنيد . وحصار شديد . فثبتوا على إيمانهم ، ولم يصرفهم كل هذا عن دينهم — والمؤمن ما كان من المؤمنين شرع بين ما كان من المنافقين فقال جل شأنه « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ » واذكروا نعمة الله عليكم إذ يقول المنافقون . الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم . وعبر بالضرار لأن مقاتلتهم هذه تقع وتجد تبعاً لنفاقهم والمراد بهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الاسلام ، فهم في الحقيقة كفرون ، لأن المسلم لا يقول إن وعد الله ورسوله غرور وباطل ، ثم عطف على المنافقين من هم في حكمهم وهم الذين في قلوبهم ضعف فقال (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ) وضعف إيمان ، لأنهم حديثو عهد بالاسلام ، فأنحازوا للمنافقين الذين أغروهم وقتنهم بادخال الشبهة عليهم ، كقولهم لهم — إن الاحزاب أكثر عدة وأعز قرراً وأشد قوة وأعظم بأساً . ولا بد أن يظهروا على المسلمين ، فالو إليهم وقالوا مقاتلتهم (ما وعدنا الله ورسوله)

من الظفر على أعداء الاسلام ، وإيقاع الهزيمة بهم ؛ وإعلاء الدين ، ونصر المسلمين (إِلَّا) وعدا (غُرُورًا) باطلا لا يقيم ولا يكون . روى عن قتادة قال : قال المنافقون يوم الأحزاب : حين رأوا الأحزاب قد اكتمفهم من كل جانب ، فكانوا في شك وريبة من أمر الله ، وقالوا : إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم فأنحصرنا ههنا ؛ حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) وقولهم الله ورسوله استهزاء وسخرية لأنهم لو اعتقدوا في الله ورسوله ما قالوا هذا القول ، يذولون به الناس ويصدونهم عن القتال ، وعن البقاء في ساحة الجهاد ، وقد صرحت طائفة من هؤلاء المنافقين بالحض على الانصراف من ميدان القتال كما قال الله تعالى (وَإِذْ قَالَتْ) واذكروا نعمة الله عليكم إذ قالت (طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ) من المنافقين تحبب الناس ، وتطالبهم بالانصراف إلى منازلهم ودورهم ، وهم عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه ، ليضعفوا شوكة المسلمين ، وليوهنوا المؤمنين ، قالت هذه الطائفة الخاسرة (يَا أَهْلَ يَثْرِبَ) يا أهل المدينة ، ومن أممائها طيبة ، وكان الرسول يكره أن تسمى يثرب ، فخالقوه وقالوا يا أهل يثرب اتركوا هذا الموقف ، وانجسوا بأنفسكم من القتال ، فلا حزاب كثير من أشداء ؛ أقوياء أغنياء (لَا مُقَامَ لَكُمْ) وقد أحاطوا بكم ، ولا قدرة لكم عليهم ، فبقاؤكم وإقامتكم

في هذا الميدان خطر عليكم (فَارْجِعُوا) إلى منازلكم بالمدينة ، فذلك
 بمصمكم من القتل ، ويحفظكم من الموت ، ويجعل لكم يداعد
 الأحزاب يمرفونها إذا ظفروا ، ويجازونكم بها إذا انتصروا ، ولا بد
 من نصرهم ، وهم لا محالة ظافرون ، ففروا من الآن ، قبل أن تضيع
 الفرصة ، وتزل النازلة ، وتقع الواقعة ، فسمع لهذا الكلام ضعاف
 النفوس ، مرضى القلوب ! وجعلوا يتسللون ، وبقى المؤمنون المخلصون ،
 ثم بين حال فريق آخر من المنافقين يريد أن يحفظ لنفسه المكانة عند النبي
 ﷺ وأصحابه ، وعند الأحزاب ، وذلك بالانصراف ، ولكن بعد
 الاستئذان منه ﷺ فقال (وَيَسْتَأْذِنُ) معطوف على قالت ، والمعنى وإذا
 قالت طائفة منهم ، وإذا استأذن (فريقٌ) آخر (منهم) من المنافقين ، وهم بنو
 حارثة وبنو سلمة ، استأذنوا (النبي) ﷺ وهم (يَقُولُونَ) مبينين
 السبب في استئذانهم ، والداعي إلى رجوعهم (إِنَّ يَبُوتَنَا) التي بالمدينة
 (عَوْرَةً) ظاهرة غير محصنة يخشى عليها وهي خالية من الرجال ليس
 بها إلا الذراري والنساء ، والمال والمتاع ، يقولون إنها عورة (وَمَا هِيَ)
 والحال أنها ليست (بِعَوْرَةٍ) لأن الخندق يحيط بالمدينة وعليه عسكر
 المسلمين ، فلا سبيل للعدو إلى يوتهم ، فهم كاذبون منافقون
 (إِنْ يُرِيدُونَ) ما يريدون بقولهم واستئذانهم (إِلَّا فِرَارًا) وانزاما ،
 ورجوعا وهربا ، وكيداً للمسلمين ، ونكاية بالمؤمنين ، ففضحهم الله
 وأظهر خبيثته قوسهم ، وخبت ضمائرهم ، ثم شرع يبين أنهم منافقون

كاذبون يريدون الكيد والوقعة بالنبي ﷺ وأصحابه فقال جل شأنه:
 (وَكَوْذُخْتِ) البيوت التي يقولون إنها عورة ، دخلها أهل الشرك
 والضلال ، ليحاربوا الله ورسوله (عَلَيْهِمُ) على هؤلاء المنافقين ،
 الذين يدعون باطلاً أن بيوتهم عورة (مَنْ أَقْطَارَهَا) دخلوها عليهم من
 جميع جوانبها ونواحيها وكانت مختلة كما يقولون (ثُمَّ سُئِلُوا) سألهم
 هؤلاء الداخلون من أهل الشرك الذين يريدون حرب الله ورسوله ،
 وكانوا في مثل هذه الحال من الشدة والكرب ، لو فرض كل هذا وسألهم
 (الْفِتْنَةُ) قتال الرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم (لَأَنْتَوُهَا)
 ولأجابوا الداعي وماقلوا إن بيوتنا عورة (وَمَا تَلْبَثُوا) وما مكثوا
 ولا صبروا على إجابة الداعي لحرب الله ورسوله وما استمروا (بِهَا) بهذه
 البيوت (إِلَّا) تلبثنا (يَسِيراً) قدر ما يحملون سلاحهم ويخرجون
 للقتال ، فحققتهم أنهم يسارعون لقتال النبي ﷺ وأصحابه رضى الله
 عنهم ، وأنهم يفرون من القتال مع النبي وأصحابه ، فهم على فرض
 اختلال بيوتهم وأنها عورة لكل داخل لو سألهم للمشركون في مثل
 هذه الشدة قتال الرسول ومن معه لا أسرعوا ولم يتعللوا باختلال بيوتهم
 لو كانت في الحقيقة مختلة يطرئها كل طارق ، ولكنهم مع النبي
 وأصحابه لا يقاتلون وبيوتهم غير مختلة وغير معرضة للخطر كما يدعون ،
 فلا يفر نكم أيها المؤمنون حالهم ، ولا يخفى عليكم قافهم ، فانهم
 لا يريدون إلا إضعافكم ، والقل من شوكتكم ، والكيد ليكم

كيف يتعاملون ويدعون ثم يفرون ويهربون ويخفون أمرهم ويستأذنون
 وهم الذين أعطوا اليهود والمواثيق على أنفسهم بين يدي الله تعالى
 لرسوله ﷺ ألا يفروا وقت الزحف ، وأن يكونوا في نصرة الرسول
 والمؤمنين ، فهذا قوله تعالى : (وَلَقَدْ كَانُوا) حين أسلموا (عَاهِدُوا
 اللَّهَ) تعالى بإسلامهم أن يمنعوا رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله
 عنهم عما يمنعون منه أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، عاهدوا الله على ذلك (من
 قَبْلُ) من قبل غزوة الأحزاب وعاهدوه على أنهم (لَا يُولُونِ الْأَذْبَرَ)
 لا يفرون مديريين ، مولين ظهورهم للمقاتلين ، جبنوا وانهمزما ، كما فعلوا في
 هذه الغزوة ، فهذا نقض للبيعة ، ونكث للعهد (وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ) تعالى
 عهداً (مَسْئُولاً) يسأل عنه من ينقضه وينكثه ، يسأل الله من نقض
 عهده حتى ثبتت عليه النقض فيعذبه يوم القيامة بالنار وبئس القرار
 (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ
 اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
 وَلَهُمْ سَوْءُ الدَّارِ) ومن بايع الرسول أو عاهد غيره فقد بايع الله وعاهد
 الله ، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) لأن
 القصد من البيعة والعهد هو حفظ الدين وإعلاء كلمة رب العالمين ، فلذلك
 قال (عَاهِدُوا اللَّهَ) لأن معاهدة الرسول معاهدة لله ، ثم وبخهم على
 الفرار ، والاعتذار ، بأن الموت غاية كل حي ، ونهاية كل نفس ، والبقاء

لله وحده ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره ، أو مات حتف أمته ، فالفرار لا يطيّل الأجل ، والبقاء أمام الأعداء لا ينقص من العمر ، وإن نفعكم الفرار بقيتكم مدة فاعلموا أنها من عمركم ، وأنها مهما تطل فهي قليلة لأنها إلى زوال ، ولا قيمة لمتاع مهدد بالزوال ، وهو إذاً متاع قليل (قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا) .

فهذا قوله تعالى (قُلْ) يا رسول الله لهؤلاء المنافقين المستأذنين والقارين (لَنْ يَنْفَعَكُمْ) ولن يفيدكم (الْفِرَارَ) من ميدان القتال ؛ الذي يكسبكم الخزي ، ويشهد عليكم بنقض العهد (إِنْ فَرَرْتُمْ) من الميدان فلن ينفعكم الفرار ، ولن يحفظكم (مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ) فلكل أجل كتاب ، وإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر (وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) وإن كان في أجلكم طول ونفعكم الفرار ظاهراً فاذلاً لا تتمعون إلا تمتعاً قليلاً في هذه الدنيا ، بقدر ما تعمرون فيها ، وهو ولو طال قصير ، لأنه إلى زوال وكل شيء إلى زوال ، فهو قليل ولو امتد وطال ، ثم ونحهم تويخاً آخر وهو كيف أبها المستأذنون المنافقون تفرون من الجهاد ، خوفاً من الموت أو القتل ، فهل فراركم يعصمكم من الله تعالى الذي لو أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً كان ما أراد ونفذ ما قضى ، لا راد لحكمه ولا حاصم من أمره ، فهو الذي يجي ويبيت وهو على كل شيء قدير ، فهذا قوله تعالى (قُلْ) يا رسول الله لهؤلاء المنافقين القارين (مَنْ ذَا الَّذِي أَمْسَخَ خَلْقَ هَذَا) أي مخلوق هذا الذي (يَعْصِيكُمْ) ويعصمكم (مَنْ أَلَّهِ) تعالى (إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا) يعاقبكم به على أعمالكم السيئة (أَوْ) من ذا الذي
يرد عنكم رحمة الله وفضله إن (أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) وفضلاً يجازيكم بها
على حسن أعمالكم ، ثم أكد هذا تأكيداً بقوله (وَلَا يَجِدُونَ) التفت
من الخطاب إلى الغيبة ومقتضى الظاهر أن يقال (وَلَا يَجِدُونَ) وذلك لأنهم
في غيبة وغفلة فهم غير جديرين بالخطاب ، فقال (وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ) في
الدنيا ولا في الآخرة (مَنْ دُونِ اللَّهِ) تعالى من غيره عز وجل (وَلِيًّا)
يُضِيهِمْ وَيَنْفَعُهُمْ ويتولى شئونهم (وَلَا نَصِيرًا) ينصرهم ويدافع عنهم ،
والجمل في موضع الحال فكأنه قال : من ذا الذي يعصمكم من الله إن
أراد بكم سوءاً أو من ذا الذي يعصمكم منه أن أراد بكم رحمة وأنتم
لا تجدون من دونه ولياً ولا نصيراً . فأولى لكم أيها المناقضون أن توفوا
بعهد الله ولا تنقضوا الميثاق ، وأن تكونوا مع رسول الله ﷺ ومع
المؤمنين المخلصين حتى يتولاكم بنعمه ، وينصركم بقوته وحوله ، إنه
هو الولي الحميد ، إنه نعم المولى ونعم النصير (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا
عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ
عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)

ما يؤخذ من هذه الغزوة العظيمة وتلك الآيات الكريمة
(١) أن النصر والظفر والعاقبة للمجاهدين الصابرين المحقين ،
وأن الهزيمة والخزى والخذلان للظالمين الكافرين المبطلين

() أن التمسك بالحق والنبات على المبداء الشريف واجب ولو بقي المرء وحده ، فأنه ينصر الحق ويطلب الباطل ولو كره المجرمون (٣) لا يأتي الثواب ولا يكون النجاح غفوا بلا تعب ومشقة وعمل ذائب ورضا بالكراه والخطوب ، وبلاء شديد (٤) أن اتخاذ الحيلة وإعداد العدة ، ولزوم الحذر ، والعمل بكل تدبير وحكمة ، وكيد وخدعة ، وصبر وثبات ، من وسائل النصر على الأعداء ، والظفر بالخصوم الأشداء (٥) أن الشدائد تظهر للمؤمن من المنافق ، والصادق من الكاذب ، والعدو من الصديق. (٦) أن كيد المنافقين في تباب وذهاب ، لا يؤثر إلا في ضعف النفوس ، مرضى القلوب ، ولا يزيد المؤمن إلا إيمانا وتثبيتا ، واطمئنانا و يقينا . (٧) أن المنافق ولو استتر حيناً ، وغاب عن الظهور زمناً ، فلا بد من وضوحه وكشفه واقتضاح أمره فيعرف المنافقون ، وقبح ما كانوا يصنعون ، وينالون المقت ويبوءون بغضب من الله والناس (٨) أن الاحتفاظ بالألفة والمودة والتعاون وترك الأثرة من وسائل النصر وقت الشدة وعند حلول المحن ، وتقالم الفتن ، فقد دعا الرسول ﷺ إلى أكله الخالص كل من في الخندق فبارك الله لهم فيه وأنعام جميعاً وبقي منه كثير ، (٩) أن الله تعالى كرامة نبيه ﷺ أرسل على المشركين الريح والجنود ، واقتصرت الريح على المشركين ولم تؤذ المؤمنين ، (١٠) أن الخير كله والسعادة أجمعها في طاعة الله ورسوله ، فهذا حذيفة بن اليمان ، كان لا يستطيع الحراك من الجوع والبرد ، فلما

نذبه الرسول طليعة وعينا على المشركين ولي الدعوة أذهب الله عنه البرد والجوع في الحال ، وكأنا نشط من عقال (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

فالتقوا أيها المسلمون بهذه الآداب الإسلامية ، وتخلقوا بتلك الأخلاق الحميدة ، وتمسكوا بهذه الخلال النبوية ، واتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا خيراً لا نفسكم ، ومن يوق شح نفسه فإِنَّهُ مِمَّنْ الْمُفْلِحِينَ

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَوْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوْدُوا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآحْزَابِ يَسْتَثْنُونَ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ وَكُنُوزِهِمْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا

لما جاء الأحزاب ، وحاصروا المدينة ، واشتد البلاء والكرب ،
وزلزل المؤمنون وثبتوا على إيمانهم ، وريع المنافقون واضطربوا في
أمرهم ، وخاف الذين في قلوبهم مرض وارتدوا عن دينهم ، وقالوا كما قال
للمنافقون : ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وحانت الفرصة للمبتطيين ،
وبانت النعمة للمعوقين ، وتمسك هؤلاء وهؤلاء من بث سمومهم ،
وإلقاء فتنهم ، وقالوا : ياهل يثرب لا مقام لكم فارجموا ، واستأذن
فريق منهم النبي ﷺ في الانصراف ، متعللين بالخوف على بيوتهم
وذريتهم وأموالهم ، يحفظون لأنفسهم بهذا التعلل خط الرجعة في
المستقبل لو انتصر المؤمنون ، لما وقع ذلك كله منهم أنزل الله تعالى
فيهم قرآنا يكشف سترهم ويظهر أمرهم ، وأنهم جبناء يريدون القرار ،
ويقصدون بالرسول ومن معه الأضرار ، ويقولون بأفواههم ما ليس في
قلوبهم ، ولو رأوا الفرصة لقاتلوا مع المشركين ، وحاربوا المؤمنين ،
وقضوا عهدهم ، وخفروا ذمتهم ، وأخلفوا الله ما وعده ، وكان عهد الله
مستولا ، وقد شرع بهذه الآيات يزيد في كشف نواياهم ، وإظهار
خبائهم ، وإبانة أحوالهم وأحوال المؤمنين في تلك النازلة ، وفي هذه
الواقعة ، فقال جل شأنه : (قَدْ يَعْلَمُ) أتى بحرف التحقيق لأنه يخاطب
قوما في اضطراب وفتنة ويحذر المعوقين وينذر المنافقين ، وعبر بالمضارع
في يعلم لتجدد ما يقع منهم ، واستمرادهم على إلقاء الفتن ، وأظهر الاسم
الأعظم فقال : (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ) تعالى وللقام للاضمار لتقدم الاسم الكريم

في قوله : (وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) زيادة في التعذير ، والانذار والتخويف ، يخبر الله جل شأنه أنه يعلم (الْمُعْوِقِينَ) الذين يمنعون الناس من نصرة الرسول ﷺ ، أحاط علمه بالمعوقين (مِنْكُمْ) وهم المنافقون واليهود ، وقال منكم لأنهم في موطن واحد وبلد واحد ، وفيهم القريب والصديق ، وحالهم كانت مستورة على المؤمنين فكانوا يخاطبونهم ويعاملونهم ، فلذلك قال منكم ، روى أن الآية نزلت في عبد الله بن أبي ومعتب بن قشير ومن رجع من المنافقين من اتخندق إلى المدينة ؛ كانوا إذا جاءهم المنافق مثلهم قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم في العسكر ، اتمنونا فانا ننتظركم ، وعن ابن زيد رضى الله عنه في قوله : (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ) الآية ، قال هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبي ﷺ فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ونبيذ ، فقال له : أنت ههنا في الشواء والرغيف والنبيذ ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ؛ قال : هلم إلى لقد بلغ بك وبصاحبك ، والذي يحلف به لا يستقى لها محمداً أبداً ، قال : كذبت والذي يحلف به (وكلن أخاه من أبيه وأمه) والله لا أخبرن النبي ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبي ﷺ يخبره ، فوجد جبريل عليه السلام قد نزل بهذه الآية فيه وفي أمثاله (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْوِقِينَ مِنْكُمْ) والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلّا قليلاً) فقوله :

(وَالَّذِينَ) معطوف على الموقنين (لَا يُخَوِّنُهُمْ) لَا أصحابهم وعشائرهم وخطأهم والناقضين مثلهم ، ومن في قلوبهم مرض ، من قرابتهم وغيرهم (هَلُمَّ إِلَيْنَا) تمالوا إلى مانحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار ، وهلم اسم فعل أو فعل أمر بمعنى أقبل فهو لازم ، وقد يتعدى ويكون بمعنى أحضر كما في قوله : (هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ) وصف الله الناقضين بالموقنين ، والقاتلين ، ثم وصفهم بقوله : (وَلَا يَأْتُونَ) فكأنه قال : قد يعلم الله الذين يعوقون ، والذين يقولون ، والذين لا يأتون ولا يشهدون (الْبَاسُ) القتال والحرب (إِلَّا) إتياناً (قَلِيلًا) أو إلّا زماناً قليلاً ، لمرض قلوبهم وضعف قوسهم ، وخور عزيمتهم ، ولغم اللوم عنهم ، ولراءاة المسلمين ، فإذا قاتلوا مع المؤمنين كان قتالهم لا خير فيه ولا غناء منه ، لأنهم يقاتلون رياءً وقللاً ، لا عن قلب ونية ، فلا يلبثون إلّا قليلاً حتى يفروا ويهربوا ، ثم وصفهم بوصف رابع وهو شعهم بالخير على المؤمنين فقال جل شأنه : (أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) بالخير ، أشعة جمع شحيح والقياس أشحاء ، كجليل وأجلاء ، وخليل وأخلاء ، وهو منصوب على النعم ، ييخولون عليكم أيها المؤمنون بالنفقة والنصرة والاعانة عند بدء القتال ، وفي أول الموقعة فلا يقدمون مالا ولا قسماً ولا قعماً ، ولا يظهرون إلّا خبتاً ومكرًا (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ) ووقعت الواقعة ، وقامت الحرب على ساقها (رَأَوْهُمْ) أيها النبي الكريم ، الرموف الرحيم ، ويصح أن يكون

الخطاب لكل من يتوجه إليه الخطاب (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ) مضطربين
 مذعورين ، حيارى خائفين ، في حال (تَدَوُّرٍ) فيها (أَعْيُنُهُمْ) والمراد
 تدور الأُحْدَاقُ في الأَعين فهو مجاز مرسل علاقته المحلية أطلق المحل
 وأراد الحال ، وهذا الدوران من الهلع والخوف والجبن والخور ، تدور
 دورانا (كَالْتَنِي) كدوران أُحْدَاقِ النَّارِ (يُغْشَى عَلَيْهِ) فيغيب
 ويكون في سكرة (مِنْ) وقع (الْمَوْتِ) ونزوله ، وهذا الوصف
 يؤكد ما سبق من أنهم إذا أتوا اليأس كانوا في جبن وذعر فلا يلبثون
 إلا قليلا ثم يفرون (فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ) من المدو ، وجاء النصر
 وجمعت الفنائم ، وتم الأمن (سَلَقُواكُمْ) وطعنوا فيكم ودموكم
 (بِالسِّنَةِ) سليقة منطليقة (حِدَادٍ) حديدية شديدة ، تلعن بغير حق ،
 وتفتري ظلما وبغيا ، وادعوا لأنفسهم المنزلة السامية ، والمكانة العالية ،
 وأنهم لولاهم لما كان نصر ، ولاتم ظفر ، ولا عمل عمل ، وأنهم أولو
 شجاعة ونجدة ، وبأس وقوة ، وإنهم لكاذبون ، والله يعلم الفساد من
 المصلح ، والغثيث من الطيب ، والمنافق من المؤمن ، فهم عند اليأس
 أجبن قوم وأخلفهم للحق ، لا يبذلون نفسا ولا مالا ، وعند الفنائم
 أحرص الناس وأشجعهم عليها ، يطلبون أكبر قسم وأقسه ، كما قال جل
 شأنه : (أَشْجَعُ) منصوب على التثنية كسابقه أذم أشجع (عَلَى الْخَيْرِ)
 على أخذ الخير وهو الغنيمة ، فهم أشجع عليكم بالخير إذا اشتد اليأس ،

وهم أشعة على أخذ الخير إذا زال الخوف ، وتلك أقبح الشيم ، وأحط الأخلاق ، والألم الصفات التي لا تكون في مؤمن ولا ذى مروءة .
ولذلك قال : (أُولَئِكَ) للبعدون المطرودون من رحمة الله ، لفساد قلوبهم وخبت نيتهم (لَمْ يُؤْمِنُوا) حقيقة وإن آمنوا ظاهراً ، لأن هذه الأخلاق لا تصدر عن قلب مؤمن (فَأَحْبَطَ اللَّهُ) تعالى ولم يقبل (أَعْمَانَهُمُ) التي عملوها رياء وسمعة . وجعلها باطلة غير مأجورة ، لأن قبول الأعمال شرطه الإيمان والاخلاص ، وهم لم يؤمنوا ولم يخلصوا فلم يقبل أعمالهم ، وكشف أمرهم للمؤمنين ، فلم تقدم تلك الأعمال عند الله ولا عند الناس ، وهكذا كل عمل قصد به غير وجه الله العلي الخبير لا ينتفع به صاحبه في دينه ولا في دنياه (وَكَانَ ذَلِكَ) الذي تقدم كله من نصر المؤمنين على قلوبهم وخذلان المشركين على كبريتهم ، ومن إثابة المخلصين وإحباط أعمال النافقين ، كان ذلك كله (عَلَى اللَّهِ) التقدير (كَيْسِرًا) هيناً ، وكل شيء مهما يكن فهو عند الله وأمام قدرته سهل يسير هين ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وفي هذا تحذير وإنذار للنافقين بأن الله من ورأهم محيط ، وأنه قوى عزيز ، إذا أنزل بهم سطوته كانوا هباء منثوراً وعذبهم الله في الآخرة عذاباً أليماً ، ثم بين نوعاً آخر يدل على جبنهم ، وخبت طويهم ، وسوء نيتهم ، وهو أنهم (يَحْسِبُونَ) ويظنون جبناً وخوفاً (الْأَحْزَابَ) لكثرة عددهم

وتعام عنهم ، وشدة بأسهم ، (لَمْ يَذْهَبُوا) عن المدينة ، ولم يرجعوا إلى بلادهم ولم يفكوا الحصار ويغودوا خائنين خاسرين : يظنون ذلك في حين أن الله تعالى هزم الأحزاب وأرسل عليهم ريحا وجنودا لا قبل لهم بها ، فأقلعوا عن المدينة ، وتركوها مذمومين مدحورين ، ولظنهم هذا استمروا بمخذلون الناس ويموقون عن القتال ، ويقولون مقاتلهم السيئة في النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، ويتركون ميدان القتال فارين إلى المدينة منهزمين ، زاعمين الأحزاب لا بد لكثرتهم وقوتهم أن يستأصلوا المؤمنين تقيلا وتكبيلا ، يحصل منهم ذلك كله ، في الوقت الذي هزم الله قدرته فيه الأحزاب ، ونصر المؤمنين ، ثم أكد مرة أخرى جنبهم ومرض قلوبهم بقوله جل شأنه (وَإِنْ يَأْتِ) وإن يرجع (الْأَحْزَابُ) لحصار المدينة وقاتل المؤمنين (يَوَدُّوا) يود هؤلاء المناقون المجرمون (لَوْ أَنَّهُمْ بَادُّوْنَ) خارجون من المدينة إلى البادية فرارا من مواجهة الأعداء ، وجبتا عن الحرب ، لينبتوا (فِي الْأَعْرَابِ) غلاظ الأكباد قساة القلوب ، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر (يَسْتَلُونِ) وهم في خفية من يقدم من المدينة ومن حولها (عَنْ أَنْبَاءِكُمْ) وأخباركم مع هؤلاء الأحزاب ، ليكونوا مع المنتصرين ، وينحازوا إلى الظافرين في النهاية ، وعند إلقاء السلاح (وَلَوْ كَانُوا) ولو كان هؤلاء الجبناء المناقون (فِيكُمْ) ولم ينصرفوا إلى المدينة ، وكان قتال وحرب (مَا قَتَلُوا إِلَّا)

قتالا (فَلْيَلَا) دفعا للوم ، ورياء للمسلمين ، فلا تحزنوا لفرارهم ، وبقوا
أنه خير لكم ، وبعد هذا البيان العظيم لحال هؤلاء المجرمين ، ولما كان
من شدة الموقف ، وحرج الأمر ، أمرهم بالاعتداء بخير الأصفية ،
سيدنا محمد ﷺ في هذه الشدة من أولها إلى نهايتها ، فقال جل شأنه
(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ) أيها المؤمنون الواثقون بدينكم وربكم (فِي رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ) (أُسْوَةٌ) وقنوة (حَسَنَةٌ) جليلة الملقبة طيبة الثمرة ، في
صبره وشجاعته ، وفي إقدامه وثباته ، وفي أحماله وجهاده ، وفي توكله
واعتماده ، وفي كل أموره التي شاهدتموها ورأيتموها في حادث الخندق
وفي كل ما كان منه منذ ولادته للآن ، إلا فيما اختصه الله به من الخصاص
كالزوج بأكثر من أربع ، وقيام الليل ، وصيام النهار ، والاسراء وغير
ذلك من الخصاص . وأسوة اسم كن ولستم خبرها وفي رسول الله متعلق
بأسوة ، والتقدير ، لقد كانت أسوة في رسول الله نافعة لكم (لِمَنْ
كَانَ) بدل من لكم بدل كل من كل وفيه إبدال الظاهر من الضمير
كما في قوله تعالى (رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا
عِيدًا لَأَوْلَانَا وَآخِرِنَا) فقوله لَأَوْلَانَا بدل من لنا ، ويصح أن يكون
قوله لِمَنْ كَانَ ، متعلقا بأسوة ، أو بحسنة ، والتقدير أسوة لمن كان ، أو
حسنة لمن كان (يَرْجُوا اللَّهَ) تعالى وقصد ثوابه ورضاه (وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ) ويختشي اليوم الآخر يوم القيامة يوم توفى كل نفس ما كسبت
ونرى ما قدمت ومملت ، وكان صلة لمن وقوله (وَذَكَرَ اللَّهُ) تعالى

(كثيراً) ذكرًا كثيراً معطوف على الصلاة ، والمعنى لكم في رسول الله أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر لمن ذكر الله كثيراً ويصح عطفه على قوله يرجو ، والمعنى لمن كان راجياً ربه ، خائفاً اليوم الآخر ذكراً الله كثيراً ، والذي ذكر الكثير يكون بالصلاة وتلاوة القرآن وذكر أسماء الله تعالى ، والذي ذكر الكثير مع استحضار هيبة المذكور جل شأنه ، به تنجلي القلوب ، وتزكو العقول ، وتستضيء الأفئدة ، وتشرح الصدور وبه يكون الوصول إلى الكشف عن ملكوت الله تعالى بقدر ما يهب الله الناكر من صفاء . ودون ذلك جهاد كبير وصبر عظيم وبلاء شديد ، يتلقاه العبد بكل رضا وقبول ، كما وقع للرسول ولأصحاب الرسول (لَتَبْلُوَنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)
وأما الذكر بلا استحضار ولا خشوع ، ولا أدب ولا خضوع فلا يثمر ولا ينتج ولا يثاب عليه صاحبه ، بل يعاقب على خروجه عن أدب الله ورسوله . ولما بين حال المنافقين عند رؤيتهم الأحزاب ومشاهدتهم تلك الصعاب ناسب أن يبين حال المؤمنين ، ليعرف الله الخبيث من الطيب ، فقال جل شأنه (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْمُخْلَصُونَ الصَّادِقُونَ هَؤُلَاءِ الْأَحْزَابِ)
المشركين أعداء الله ورسوله (قَالُوا) بقلوبهم وألسنتهم صادقين صابرين (هَذَا) الذي نراه من كثرة الأعداء وقلة النصراء ، وشدة البلاء (مَا وَعَدَنَا

الله تعالى أن يكون قبل الظفر ، وأن يسبق النصر وحسن العاقبة كما قال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْهُمُ الْبَاسِ وَالضَّالَّةِ الْكَاذِبِينَ) (الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْهُمُ الْبَاسِ وَالضَّالَّةِ الْكَاذِبِينَ) يَقُولُ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَيَّ نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَنْصُرُ اللَّهَ قَرِيبٌ) وهذه الآية نزلت قبل غزوة الخندق بحول ، قال المؤمنون حين رؤية الأحزاب وهول الموقف ، هذا ما وعدنا الله وَرَسُولُهُ (وَعَدَنَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَلَبَّيْنَا الرَّسُولَ ﷺ هَذَا الْوَعْدَ) وَصَدَقَ اللَّهُ تعالى في وعده (وَرَسُولُهُ ﷺ) في تبليغه وهو أن النصر والشدة بعدهما النصر والظفر « وَمَا زَادُكُمْ » ما أَوْه « إِلَّا إِيْمَانًا » على إيمانهم ويقينا على يقينهم « وَتَسْلِيًا » مع تسليمهم بأن وعد الله حق وأن الله على كل شيء قدير ، فلم يكن منهم شك في الله ولا ريب في الدين مع ما نزل بهم ، ووقع عليهم ، (يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا لَكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرٍ نَارِ شَدًّا).

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ

عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْطِهِمْ
لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا
عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيمِهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا *
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْلُوهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا

لما بين الله سبحانه وتعالى ما كان من المؤمنين في غزوة الأحزاب
وما كان من المنافقين ، وأن المنافقين قوضوا عهدهم ولم يثبتوا وولوا
الأدبار ، وأن المؤمنين ثبتوا على الشدة والبلاء ؛ ولم يزدهم ما رأوه من
الفن والكرب إلا إيمانًا وتسلية ، أكد ذلك مرة أخرى ليرتب عليه
ما أعدّه للمؤمنين وما أعدّه للمنافقين ، فقال جل شأنه (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
إلخ . قسم الله تعالى شأنه للمؤمنين قسمين : فريق الصادقين الذين آمنوا
بقلوبهم وألسنتهم ، وفريق المنافقين الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن
قلوبهم ، وذكر الفريق الأول وقسمه إلى قسمين منهم من قضى نحبه
ومنهم من ينتظر أن يقضيه ، وبين جزاءهم ، ولم يذكر فريق المنافقين
إكتفاء بما تقدم بيانه فيهم ، وذكر ما أعدّه لهم بقوله (وَيُعَذِّبُ
الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) رغبة للمؤمنين وتحذيرًا

للمناقضين ، قال جل شأنه « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » الذين ائتموا للإسلام ، ودخلوا في دين النبي عليه الصلاة والسلام الذين شهدوا هذه الغزوة والذين لم يشهدوها « رِجَالٌ » بررة كرام ، على خلق كامل ، وفضل عظيم وشجاعة وإقدام ، فالتنوين في قوله « رِجَالٌ » للتعظيم والتفخيم « صدقوا » في نيتهم وأقصدوا « مَا عَاهَدُوا اللَّهَ » تعالى « عَلَيْهِ » من الثبات مع النبي ﷺ ، والصبر على قتال الأعداء ، وبيع النفس والمال ، والأهل والولد ، والمهجرة من الوطن ، اجتناء مرضاة الله . ورغبة في إعلاء كلمة الله .

وسبب نزول هذه الآية ما روى عن ثابت . قال قال أنس : سمى أنس بن النضر رضى الله عنه . سميت به . لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر فشق عليه . وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أرا في الله تعالى مشهداً فيما بعد . مع رسول ﷺ ليرى الله عز وجل ما أصنع . قال فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ رضى الله عنه . فقال له أنس رضى الله عنه يا أبا عمرو إلى أين ؟ وهاك الرح الجنة إلى أجله دون أحد . قال فتائلهم حتى قتل رضى الله عنه ، قال فوجد في جسده بضع وعشرون من ضربة وطعنة ورمية . قالت أخته — عمتي — الريسم بنت النضر ، فسا عرفت أخى إلا بيناته . قال فزلت هذه الآية : (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه رضى الله

عنهم ، فالراد بقوله رجال أنس بن النضر ومن كان مثله ممن نذروا أنهم
إذا لقوا حرباً مع النبي ﷺ ثبتوا معه ، وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وم
عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمر بن قنيل ،
وحزمة ، ومصعب بن عمير وغيرهم ، ومعمول صدقوا هو الله ، والمعنى
صدقوا الله تعالى فيما عاهدوه عليه من نصره النبي ﷺ ، والنبات معه
حتى الموت ، وترك القرار عند الزحف ، ثم فصل حال هؤلاء الصادقين
الموفين بعهدهم ، فقال جل شأنه (فَمِنْهُمْ) فمن هؤلاء الرجال المخلصين
(مَنْ قَضَى) وأُنفذ (نَجْبَهُ) وأتم نذره ، وصدق وعده وعهده ،
فالتعب هو النذر والوعد ، والمهد ، وقيل : قضى نجه أى مات مؤمناً
صادقاً موفياً بعهده لم يخلف وعده ولم يغير نيته ، وقيل قضى نجه مات
شهيداً ، وما يدل على أن التعب بمعنى العهد والنذر ما روى عن موسى
ابن طلحة عن أبيه طلحة رضى الله عنه قال : لما أن رجع رسول الله ﷺ
من أحد صعد المنبر ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما
أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والآخر ، ثم قرأ هذه الآية
(مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى
نَجْبَهُ) الآية كلها ، فقام إليه رجل من المسلمين ، فقال يا رسول الله
من هؤلاء ؟ فأقبلت وعلى ثوبان أخضران حضرميلان ، فقال أيها
السائل هذا منهم : يريد طلحة ، وعن معاوية بن أبي سفيان رضى الله
عنه ، قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول طلحة ممن قضى نجه ،

وقال مجاهد في قوله تعالى فمنهم من قضى نحبه ، يعني عهده ، وقال الحسن
 رضى الله عنه فمنهم من قضى نحبه يعني موته على الصديق والوفاء ،
 وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد
 مر على مصعب بن عمير رضى الله عنه مقتولاً على طريقه فقرأ (مِنْ
 الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) الآية ، ثم بين الفريق
 الثانى من الرجال الصادقين فقال جل شأنه (وَمِنْهُمْ) وبمضهم (مَنْ
 يَنْتَظِرُ) اليوم الذى ينال فيه الشهادة ، ويقضى نحبه ، وينفذ وعده
 وعهده ، بالموت فى سبيل الله والثبات إلى النهاية مع رسول الله ﷺ ،
 فالفريق الأول صدقوا الله بعزم ونية ووجدوا الفرصة ، فقصوا نحبهم
 ونالوا غرضهم ؛ فجازوا بالشهادة أو بالظفر على الأعداء ، والثبات مع
 خير الأنبياء ، والفريق الثانى صدقوا الله بعزم ونية ، ولكنهم لم يجدوا
 الفرصة ، فهم ينتظرونها لقضاء نحبهم والوفاء بعهدهم ، وهؤلاء لم يموتوا
 حتى نالوا بنيتهم وجازوا برغبتهم ، وأدوا ما أؤتمروا به أنفسهم ، فهم
 جميعاً يقولون ويفعلون ، ويمدون ويوفون ، ويصدقون ولا يخلفون ،
 وأولئك هم الفلحون ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ، قالوا
 ربهم وهم موقنون ، وله حاملون ، ولما عنده يفعلون ، فما غيروا تغييراً ،
 (وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) بل ثبتوا على دينهم ، وماتوا على إسلامهم ، لم
 يغيروا منه شيئاً ، ولم يبدلوا فيه أمراً ، واستمروا على ما عاهدوا الله
 عليه ، وما تمضوه كما فعل المنافقون ، الذين قالوا إن يوتنا عورة وما

هي بمودة ، إن يريدون إلفاراً ، وقوله : (وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) وصف للمؤمنين جميعاً الذين قضوا نحبتهم والذين ينتظرون قضاءه ؛ وهذا تعريض للمنافقين الذين ولوا الأديار ، وكانوا عاهدوا الله أنهم لا يولون الأديار ، وكانوا على النبي ﷺ ، وقد بايعوه على أن يكونوا معه ، فبدلوا وغيروا ، والمؤمنون ثبتوا وصدقوا ، ولم يبدلوا ولم يغيروا ، وعاقبة ذلك وغيته وثمرته ينسبها بقوله عز وجل . (لِيَجْزِيَ اللَّهُ) تعالى على أعمال العباد (الصَّادِقِينَ) فيها ، والعاملين لها ابتغاء مرضاة الله (بِصِدْقِهِمْ) بسبب صدقهم وثباتهم على دينهم في تلك الشدة المهلكة ، وفي هذه الفتنة المظلمة ، وهذا الجزاء في الدنيا بالنصر والظفر بالأعداء ، والفتح والفوز العظيم ، وفي الآخرة بادلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، لهم فيها نعيم مقيم ، هذه عاقبة الصادقين ، وأما عاقبة المنافقين فقد ينسب بقوله : (وَيُعَذِّبُ) ويعذب (الْمُنَافِقِينَ) الذين نافقوا في أعمالهم ، ولم يصدقوا في نياتهم ، وهذا التعذيب بسبب قناعتهم ، وصددهم عن سبيل الله وعن الجهاد ونصر الرسول وأصحابه ، فاستحقوا بذلك عقاب الله وعذابه في الدنيا بالخذلان ، وفي الآخرة بالنار وبش القرار ، ولكنهم في الدنيا لا يزالون تحت المشيئة (إِنْ شَاءَ) الله تعذيبهم استمروا على النفاق فاستحقوا العذاب (أَوْ يَتُوبَ) الله (عَلَيْهِمْ) إِنْ شَاءَ إِنْ تابهم بأفلاحهم عن النفاق ، ورجوعهم إلى نور الإيمان ، والله فتح لهم باب التوبة ترغيباً فيها ، وخوفهم بالعذاب ليبعدوا عن النفاق ، ثم أطعمهم

في غفرانه ورحمته لما فرط منهم وتابوا منه فقال : (إِنَّ اللَّهَ) تعالى :
 (كَانَ) ولا يزال ولن يزال (غَفُورًا) كثير الغفران يغفر ذنوب
 التائبين على كثرتها ، ويمحو عن سيئات المذنبين مع وقرتها ، متى كانت
 توبتهم نصوحا ، وإتائهم صادقة (رَحِيمًا) يرحم المذنبين بقبول توبتهم
 والمغفرة عن خطيئتهم التي لم يصروا عليها وأقلعوا عنها ، وقد جزى الله المؤمنين
 والمنافقين في الدنيا ، فرد المشركين عن المدينة وكفى المؤمنين شر القتال ،
 وأخزى المنافقين بالقهر والغلبة والخسران بأيدي المؤمنين ، وسيوف
 المؤمنين . وهذا ما شرع بينه فقال جل شأنه (وَرَدَّ اللَّهُ) القادر القادر ، قدر
 وصد (الَّذِينَ كَفَرُوا) وهم الأحزاب من قريش ومن ناصرهم جواه معهم
 لغزو المدينة هردم عنها وعن قتال النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم (بِضَيْطِهِمْ)
 وحنقهم وحقدهم (لَمْ يَنَالُوا) من زحفهم على المدينة ، وعيبتهم إليها
 (خَيْرًا) مطلقا لأقليل ولا كثيرا ، بل هادوا مخنولين ورجعوا خائينين
 وارتدوا خاسرين ، لم يدركوا من زحفهم أي خير ، ولا أي فقه ، بل
 نزلت بهم النوازل ، وحلت بهم السكاوثر من الريح والجنود التي
 أرسلها الله عليهم (وَكَفَى اللَّهُ) تعالى بقدرته وفضله وعذله وإحسانه
 (الْمُؤْمِنِينَ) الصادقين التائبين مع النبي ﷺ (الْقِتَالَ) وشره والحرب
 وضروها ، فلم يشتبكوا مع الأحزاب إلا قليلا لا يذكر حتى أن الله
 تعالى لم يسه قتالا ، كقتال بدر أو أحد مثلا ، بل كانت مباوزة خرج
 لها أسد الله تعالى على كرم الله وجهه فصرع عدوه وعدو ربه وعدو

نبيه ، وأظهره الله عليه (وَكَانَ اللَّهُ) تعالى (قَوِيًّا) يفعل ما يريد (عَزِيزًا)
 لانظيره لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو الظاهر فوق
 عباده وهو الحكيم الخبير ، ولما انتهى من أمر الأحزاب وخبرهم شرع
 يذكر خبر الذين ظاهروهم من اليهود وقضوا عهدهم وكانوا حريبا على
 الرسول وأصحابه ، وهم بنو قريظة ، فقال جل شأنه (وَأَنْزَلَ اللَّهُ
 بِحَوْلِهِ وَفُوتِهِ) الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ) ظاهروا الأحزاب وناصروهم بائتمامهم
 على النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم (مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ) فيه توبيخ
 وتقريع لهم على اتصافهم للمشركين وهم أهل كتاب ، فكان الأولى
 بهم أن ينصروا من جاء مصدقا لما معهم ، وأنزل الله عليه كتابا يهدي إلى
 الحق وإلى طريق مستقيم . هؤلاء هم بنو قريظة أنزلهم الله لغدرهم
 وخيانتهم (مِنْ صِيَّاصِهِمْ) من حصونهم التي يعتزون بها ومعاقلم التي
 يعتمدون عليها (وَقَذَفَ) وألقى (فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) والقزع والخوف
 من النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، فأنهم بعد مراجع الأحزاب خائنين
 ونولوا عن المدينة مدبرين ، اشتبهم النهر والخوف ، لما أقدموا عليه من
 الخيانة العظمى ، والغدر الشديد ، فأنساهم الرعب أنفسهم حتى نزلوا على
 حكم الرسول ، فأمر بقتل فريق ، وأسر فريق كما قال تعالى (فَرِيقًا) بمن
 كانوا . رموس النفاق ، وأصل الشقاق ، ونسب الغدر والخيانة (تَقُولُونَ)
 عقابا لهم وقصاصا منهم (وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا) لأنهم رضوا بما فعل الخائنون

وسكتوا عما عمل المنافقون ، وكلهم أعداء كافرون ، وذلك أن الرسول ﷺ بعد انهزام الأحزاب ورجوعهم عاد إلى المدينة فأمره الله تعالى أن يغزو بني قريظة لنقضهم العهد ففزاهم وأظفروا الله بهم ، فقتل فريقا وأورث الله المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم ، وكان هذا النصر سببا في خوف الأعداء من الرسول وأصحابه ، ففتح الله عليهم أرضا أخرى لم يظنوها ولم ينزلوا فيها ، وهي أرض خيبر أو مكة . قال تعالى (وَأَوْزَنَكُمْ) بصبركم وصدقكم (أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ) خيانتهم وغدرهم وكفرهم والمراد بالأرض المزارع ، وبالديار الحصون ثم قال (وَأَمْوَالَهُمْ) من قنود وماشية وأثاث (وَأَرْضًا) أخرى (لَمْ تَطُوهَا) قالوا هي خيبر ففتحت بعد بني قريظة ، وقيل إن هذا وعد للمسلمين بكل أرض يفتحونها إلى يوم القيامة من فارس والروم ومصر والشام وغيرها ، والمراد أوزنكم في علمه فيشمل ما كلن وما يكون (وَكَانَ اللَّهُ) تعالى (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ) خالقه (قَدِيرًا) * يتصرف فيه كيف شاء على وفق علمه ، ومقتضى إرادته ، فهو يوقى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويمز من يشاء وبذل من يشاء بيده الملك وهو على كل شيء قدير . وهذا بيان وجيز عن غزوة بني قريظة : بنو قريظة قوم من اليهود كانوا يقطنون المدينة وكانوا حلفاء الأوس ، وكان سيد الأوس سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وكانت هذه الغزوة سنة خمس للهجرة ، وذلك أنه لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق إلى المدينة دخلها وقت الظهيرة فجاءه

جبريل عليه السلام وهو في بيت عائشة رضي الله عنها وقال له: إن الله يأمرك بالتيأسير إلى بني قريظة، فأمر بلالا فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة، ثم سار إليهم وقد لبس رسول الله ﷺ السلاح، والناس حوله قد لبسوا سلاحهم، وركبوا خيلهم، وهم ثلاثة آلاف ومعهم من الخيل ستة وثلاثون فرساً واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وقدم على بن أبي طالب كرم الله وجهه باللواء إلى بني قريظة، وكان اللواء على حاله لم يجل من مرجعه من الخندق وسار على كرم الله وجهه حتى دنا من حصونهم، وغرز اللواء بمقرية منها، وأقبل الرسول حتى دنا من تلك الحصون ونادى بني قريظة قائلاً: «هل أخزاكم الله وأنزل بكم قمته؟» فاستعطفوه واعتذروا عما كان منهم فحاصرهم بمنزلة الإسلام خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان حيي بن أخطب من زعمائهم، دخل حصونهم وفاء لكعب بن أسد، لأنه عاهده على أن يكون معه لو قضى عهد النبي ﷺ يوم الأحزاب، فدخل الحصون وقتل مع من قتل في غزوة بني قريظة. فلما أيقنوا أن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يقتلهم، قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خللاً ثلاثاً أيها شتم، قالوا وما هي؟ قال تنابع هذا الرجل ونصده، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدون في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم، وما منعنا من الدخول إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من

بي إسرائيل ، فإن اتبعتموه تكونوا آمنتم بالكتابين الأول والآخِر
 « التوراة والقرآن » ، وكانوا يجدون صفته ﷺ قبل أن يبعث ، وأن
 دار هجرته المدينة ، فلما قال ذلك كعب قتلوا لا تفارق حكم التوراة
 أبداً ، ولا نستبدل به غيره ، قال كعب فاذا أيتم علي هذه فمهل فلنقتل
 أبنينا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصليين السيوف
 ولم تترك وراءنا قتلا ، حي يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك
 ولم تترك وراءنا نسلا يخشى عليه ، وإن نظفر فلعمري لنجدن النساء
 والأبناء ، قتلوا تقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ، قال فإن
 أيتم علي هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه
 قد آمنوا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، فقالوا انفسد
 سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا ، ولم يقبلوا منه خصلة من
 تلك الخصال ، ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعت إلينا أبا لبابة
 لنستشيره في أمرنا وكن مناصحاً لهم ، لأن ماله وولده فيهم ، فأرسله
 ﷺ إليهم فقابلوه بالبكاء من شدة الحصار ، وقالوا يا أبا لبابة : أرى
 أن نزل على حكم محمد ؟ قال نعم ، وأشار بيده إلى حلقه (أنه التبع
 فلا تفعلوه) قال أبو لبابة رضي الله عنه : فوالله ما زالت قلماي من
 مكلمها حتى عرفت أني خنت الله ورسوله فندمت واسترجعت ونزلت
 وإن عني لتسيل من الدموع ، ثم ذهب رضي الله عنه إلى المسجد ،
 وربط نفسه بسلسلة ثقيلة إلى عمود من عمد ، وقال والله لا أذوق
 طعماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي مما صنعت ، وعاهد الله

ألا يظاً بنى قريظة أبداً، ولا يرى فى بلد خان الله ورسوله أبداً، فعرف رسول الله ﷺ ذلك، وقال: لو جاني لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل، فأنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه فأنزل الله تعالى (وَأَخْرَجُوا عَنْكُمْ أَزْوَاجَهُمْ خَطَرُوا عَمَلَكُمْ صِلَاكُمْ وَآخِرُ سَيْدِكُمْ) عسى الله أن يتوب عليهم إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فثار الناس ليطلقوه. وبشروه بالتوبة، فبأنى إلا أن يكون الرسول هو الذى يطلقه، فأطلقه ﷺ حين مر عليه لصلاة الصبح. وأما بنو قريظة فلم يجدوا بداً من النزول على حكم الرسول، فزولوا على حكمه، فأوثق المقاتلة وجعلهم ناحية، وأخرج النساء والنراى وجعلهم ناحية، وتوائب الأوس يرجون الرسول أن يعفو عن بنى قريظة لأنهم حلفاءهم، فقال لهم: أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى، قال فذلك إلى سعد بن معاذ سيد الأوس، وكان سعد قد أصيب بسهم فى غزوة الخندق ووضع فى خيمة امرأة يقال لها فيدة وكانت بالسجد معدة لمداداة الجرحى من الصحابة، فأناه قومه فخلوه على حمار وأقبلوا به وهم يقولون له: أحسن فى مواليك، وهو متكأ، فلما أكثروا عليه قال: لقد أناسعد إلا تأخذ فى الله لومة لائم، فقال بعضهم واقوماه فلما قدم وراءه الرسول قال لمن حوله: قوموا إلى خيركم، فقاموا إليه وسلموا عليه، وانتهى إلى رسول الله ﷺ فقال له: احكم فيهم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، قال: قد أمرك الله أن تحكم فيهم، فقال سعد

لبنى قريظة : أرضون بحكمي ؟ قالوا : نعم ، قال سعد : فاني أحكم فيهم
أن تقتل الرجال وتنقم الأموال وتسبي الذراري والنساء ، فقال رسول
الله ﷺ لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله ، ثم أمر بالرجال منهم ،
فأخذوا متفرقين وضربت أعناقهم ودفنوا في حفر أعدت لهم بظاهر
المدينة ، ثم سبي النساء والذراري وقسمت الغنائم في المجاهدين ،
وأرسل السبي إلى نجد والشام فبيعوا واشترى بهم خيل وسلاح ،
وأمر الرسول ﷺ ألا يفرق بين الولد وأمه ، وأن من وقع في يده
سبي يرفق به ويسعى في عتقه ، وإذا وجد صغيرا يباع إلا لمسلم ،
ففعلوا ذلك ، ولما انتهى شأن بني قريظة قال رسول الله ﷺ : لن
تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم ، وأما سعد بن معاذ
فقد انفجر الجرح الذي بيده من السهم الذي أصابه في غزوة الخندق
فاحتضنه ﷺ فسأل عليه الدم ، وحملوه إلى منزله فأت منه شهيدا ،
وبكى لموته المهاجرون والأنصار ، وحزن عليه النبي ﷺ حزنا شديدا ،
وكانت ربحانة بنت عمرو متزوجة في بني قريظة فسييت واصطفاهما
رسول الله ﷺ وأسلمت ، ثم أعتقها وتزوجها ، ولم تزل عنده حتي
مات مرجعه من حجة الوداع ، سنة عشر رضى الله عنها ، وكانت هذه
الغزوة وغزوة الخندق في سنة واحدة وبهما أعز الله الاسلام وأوقع
الربغ في قلوب أعدائه فلم تحدثهم أنفسهم بالجرأة على قتال المسلمين .

وكان النصر حليف المسلمين في كل الغزوات بعدهما (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ).

فيا أيها المسلمون هذا تاريخكم المجيد، وعمل سلفكم الحميد، لم ينالوا عزاً من غير جهاد، ولم يدركوا خيراً بغير نضال، واتقد صدقوا الله فيما عاهدوا، وأخلصوا له فيما قالوا وفعلوا، فكان لهم نصيراً، ومعهم معيناً، ومكنهم من أعدائهم، وأظفرهم بهم، فسيروا على نهجهم، وامشوا في طريقهم، يؤتكم خيراً عظيماً ونعماً مقبلاً (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) (الله مع الصابرين وهو ولي المتقين)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُصْغَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَتَّبِعْ مَنكُنَّ فَلَهُ وُسُوءَةٌ وَتَعْمَلُ صَاحِبًا تُوتِنَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ

وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يٰنِسَاءَ الرَّسُولِ لَسْنَّ كَلْحَدٍ مِّنَ
النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ
مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَفَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ
وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى حال الرسول والمؤمنين، وحال
المنافقين والمخادعين، والوفين بمهدم والخائنين، أمر رسوله ﷺ
بعد ذلك بالدعوة إلى الدار الآخرة، فبدأ بأزواجه الطاهرات، لأنهن
أقرب إليه، وهن القدوة الحسنة للنساء المؤمنات، وإذا صلح حال
النساء صلح حال الأمة، فقال جل شأنه (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ)
الْحُجْ، وسبب نزول هذه الآية وتسمى آية التخيير أن الله تعالى لما نصر
نبيه ﷺ ورد عنه الأحزاب، وفتح عليه النصير وقريظة ظن
أزواجه عليه الصلاة والسلام أنه اختص بمائس اليهود وذخائرهم،
فمعدن حوله وقطن يارسول الله: بنات كسرى وقصر في الحلي والحلل،
والاماء والخول، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه
الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهم له بتوسعة الحال، وأن يعاملهم
بما تعامل به للولك وأبناء الدنيا أزواجهم، فأمره الله تعالى بأن يتلو
عليهن ما نزل في أمرهن، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وعن
جابر رضي الله عنه، قال أقبل أبو بكر رضي الله عنه، يستأذن على

رسول الله ﷺ ، والناس يبابه جلوس والنبى ﷺ جالس ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه ، فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فدخلوا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه ، لا تكلم النبى ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتنى النفقة آتفاً ، فوجأت عنقها ، فضحك النبى ﷺ حتى بدا ناجذاه ، وقال هن حولى يسألتنى النفقة ، فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة : كلاهما يقولان تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ، فهما رسول الله ﷺ ، فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيلار فبدأ بعائشة رضى الله عنها ، فقال لى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ قال فتلا عليها (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ) الآية قالت عائشة رضى الله عنها أفيك استأمر أبوى ، بل اختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة ، من نساءك ما اخترت ، فقال ﷺ إن الله لم يبعثي معنفاً ، ولكن بعثي معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن مما اخترت إلا أخبرتها . وروى أنه لما نزلت آية التخيير كان عنده ﷺ نسع نسوة : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية من قریش ،

وصفية بنت حيى النضيرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرة بنت الحارث من بني المصطلق، وبدأ بمائشة فلما اختارت الله ورسوله والدار الآخرة رضى الفرج فى وجه رسول الله ﷺ، فتتابعن كاهن على ذلك، فلما خبرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة شكرهن الله على ذلك، إذ قال سبحانه (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) فقصره الله تعالى عليهن وهن التسع اللاتي اخترن الله عز وجل ورسوله ﷺ قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) خطاب تشریف وتقدير وتعظيم (قُلْ لِأَزْوَاجِكِ) الطاهرات المحسنات للمؤمنات حين يطالبنك بلباس الزينة والحلى لما رأيته وقد نصرك الله تعالى وأظفرك بأعدائك وأنالك منهم مغام كثيرة (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ) وتختزن وترغب (الْحَيَاةَ) الفانية (الدُّنْيَا) وزخرفها ومتاعها (وَزِينَتَهَا) الداهية للهبية عن الآخرة الباقية الدائمة (فَتَمَّالِينَ) أقبلن وجئن راضيات بخيرات الدنيا على ما عند الله (أَمْتُكُنَّ) أعطكن ما جعل الله تعالى على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهن إياهن بالطلاق فى قوله (وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِمِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) ومتعة الطلاق كسوة على قدر سعة المطلق، وهى واجبة لمن لم يدخل بها، ومستحبة لمن دخل بها،

(وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا) وأطلق سراحكم إطلاقاً حسناً بالمعروف، وأطلقكم على ما أذن الله به، وأدب به عباده بقوله : — (إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ) من غير ضرر ولا خصومة ولا نزاع ولا مشادة . وقدم المتعة على الطلاق مع أنها مرتبة عليه ليناسب لإرادة الدنيا وزيتها، ولما انتهى من القسم الأول وهو الدنيا شرع يذكر القسم الثاني وهو الآخرة فقال جل شأنه (وَإِنْ كُنْتُمْ أَتَيْتُمُ الطَّاهِرَاتِ الْكَمَالَاتِ (تُرِدْنَ) وَتَحْتَرِنَ (اللَّهُ) تَعَالَى (وَرَسُولُهُ) ﷺ (وَالدَّارَ) الْبَاقِيَةَ (الْآخِرَةَ) وما فيها من نعيم مقيم، ومقام كريم وخير عظيم، في رضا الله تعالى وصحبة رسوله ﷺ، إن كنتم تحترون الحياة الباقية على الحياة الفانية (فَإِنَّ اللَّهَ) تَعَالَى فضلاً منه وكرماً (أَعَدَّ) وهياً ويسر وجعل (لِلْمُحْسِنَاتِ) في دينهن وإرضاء دينهن وإطاعة نبيهن (مِنْكُمْ) وكلكن محسنات أعد الله تعالى لها على إحسانها وإطاعتها واختيارها ما يبق على ما يفى (أَجْرًا) كبيراً (عَظِيماً) فوق إحسانكم وفوق ما ترجونه من الله الكريم، ولم يكن التخيير قوياً لمن في الطلاق حتى إذا اخترته طلقتهن، ولكنه تقيض في اختيار الدنيا أو الآخرة، فإن اخترن الدنيا فارقهن وسرحهن وطلقتهن ومتمهن كما أذن الله تعالى من غير ضرر ولا ضرار، ولكنهن اخترن النار الآخرة فأبقاهن ولم يطلق واحدة منهن، وتوفى عليه الصلاة

والسلام وهن جميعاً في عصمته ﷺ ، وقد خبره الله جل شأنه في إتيائه من شاء وتطليق من شاء في قوله تعالى : (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) أى تطلق من تشاء منهن وتبقى على عصمتك من تشاء (وَمَنْ ابْتَغَيْتَ) مراجعتها (مِمَّنْ عَزَلْتَ) وطلقت (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ) في مراجعتها ، مع هذا كله لم يطلق واحدة منهن فأخذن عنه الدين وبلغنه للمسلمات والمسلمين رضي الله عنهن ، ثم شرع ينفوذهن اختيار الدنيا المؤدى إلى المنكرات ، وفعل السيئات بأن من تعمل منهن منكراً فمذابها مثل عذاب غيرها مرتين ، فقال جل شأنه (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ) يا أزواج المصطفى المختار ﷺ وهذا خطاب لمن كسائر الخطابات في الآيات الأخرى ؛ مثل (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) أوحاه الله إلى نبيه وبلغه نبيه ﷺ فهو خطاب كثيره « مَنْ يَأْتِ » عبر بالياء مراعاة للفظ من ، وقد قرئ بالياء مراعاة لعنى من « مَنْ كُنَّ » أيتها الحسنات « فَبَاحِشَةٍ » بمعصية من نشوز وغيره « مُبَيِّنَةٍ » اسم فاعل من بين فتكون دالة وموضحة بنفسها على أنها معصية وخطيئة وقيحة ، وفي قراءة مبينة بتشديد الياء مفتوحة اسم مفعول من بين فتكون قد يلها الله ورسوله أو بين العرف فخشا وقيحها . وهذا من باب الفرض والتقدير كما في قوله « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » وقوله (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ

الْمَاعِدِينَ) وقد عصمهم الله تعالى من المنكر لأنهم أزواج المعصوم
 ﷺ فلم يقع منهم كبيرة ، فهذا شرط لم يقع وهو قوله من يأت منكراً
 بضاحشة مينة وجوابه (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ) بسبب إتيان الفاحشة
 (ضِعْفَيْنِ) في الدنيا ويوم القيامة ، وكانت المضاعفة لأنهم أولات مقام
 عظيم فذنبن عظيم وعقابه عظيم ، وهذا تحذير لغيرهن من المؤمنات
 المسلمات ، لأن الله تعالى قد أوعد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم
 على قربهن وعلو درجاتهن وإكمال إيمانهن ، فغيرهن أولى وأحق بهذا
 الوعيد ، ووظة العالم أعظم من زلة الجاهل ، ومقام الحر غير مقام الرقيق .
 لذلك كان حد الحر ضعف حد الرقيق ، روى عن زين العابدين
 رضي الله عنه أن رجلاً قال له : إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب
 وقال نحن أحرى أن مجرى فينا ما أجرى الله تعالى : في أزواج النبي
 ﷺ من أن نكون كما تقول : إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ،
 ولمسئتنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتي تليها ، ثم قال
 تعالى : (وَكَانَ ذَلِكَ) التضعيف الذي أوعده الله به من تذبذب إن فرض
 ذلك (عَلَى اللَّهِ) تعالى القادر المطلع العليم الخبير (يَسِيرًا) ممكنًا مقدورًا
 لا يمنع منه أنهم نساء رسول الله ﷺ بل هذا هو سبب تضعيف
 العذاب إن حصل الذنب لغيرهن واتصالهن بالمعصوم المختار حبيب
 الله ونبي الله ونجى الله ، فوجب عليهن فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك
 ما نهى عنه ، ومراعاة ذلك أكثر من غيرهن لشرفهن ونسبتن إليه

صلى الله عليه وسلم، ولما بين مضاعفة العقاب لمن تقدم منهم على المعصية
 ناسب أن يذكر مضاعفة الثواب لمن تعمل الصالحات وتأتي الحسنات
 فقال تعالى: (وَمَنْ يَفْعَلْ) راعى لفظ من فأتى بياء الغائب، وفي قراءة
 ومن ففعلت بته الغائبة مراعاة لمعنى من، والقنوت الطاعة، ومن تخضع
 (مِنْكُمْ) يا أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم (لِلَّهِ) تعالى (وَرَسُولِهِ)
 ﷺ، من تطع الله ورسوله (وَتَعْمَلْ) بأوامرهما عملاً (صَالِحًا)
 مقبولاً مرضياً عنه، من صلاة وصوم وزكاة وحج (تُؤْتِيهَا) تعطها
 (أَجْرَهَا) وثواب عملها الذي تستحقه (مَرَّتَيْنِ) ضعفين، كما أن
 عذابها يكون لو كان ضعفين، فلو فعلت حسنة كانت بعشرين مثلاً لها
 إن كانت بعشر أمثالها لغيرها، وإن زادت عن عشر أمثالها ضوعفت
 لها الزيادة، وهذا الفضل من الله تعالى عليهن في حياته ﷺ وبعد وفاته
 إلى اتقاهن رضى الله عنهن؛ ثم بين زيادة كرمه وسعة إحسانه فقال
 عز وجل: (وَأَعِدْنَا) وأعدنا وهياًنا ويسرنا (لَهَا) في الجنة
 (رِزْقًا) واسعاً (كَرِيمًا) عظيماً، زيادة على أجرها المضاعف، وهذا
 الرزق الكريم أنهم يكن في منازل رسول الله صلى الله عليه وسلم
 في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق، ثم بين سبب مضاعفة
 العقاب والثواب لمن بقوله جل شأنه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) اللاتي تشرفن
 بزواجه صلى الله عليه وسلم (لَسْتُنَّ) في القدر والمقام عند الله تعالى
 ورسوله وعند الناس (كَأَحَدٍ) لفظ أجد في سياق النبي للعجوم فيشمل

الواحد والنثنى والجمع مذكراً ومؤنثاً ، فالمعنى ليست جماعتكن كجماعة أخرى (مِنْ النِّسَاءِ) من نساء هذه الأمة ، فأنتن فوق نساء هذه الأمة في الفضل والشرف وعلو المقام (إِنَّ اتَّقِيْتُنَّ) الله تعالى وأرضيتن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن دمتن على هذه التقوى فأنتن أفضل نساء هذه الأمة ، ثم فصل هذه التقوى بترك الكلام اللين في عادة الناس ، وبقول المعروف ، وبلزوم النازل إلا لعذر شرعى ، وبترك التبرج المقوت وباقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وباطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ وبفهم ما يتلى عليهن من آيات الله وكلامه والحكمة التى ينطق بها رسول الله ﷺ ، أخذ يفصل ذلك كله بقوله جل وعلا (فَلَا تَخْضَعْنَ) إن كنتن أفضل نساء هذه الأمة ما عدا فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، فلا تخضعن للرجال (بِالْقَوْلِ) بسبب القول اللين الذى يقيم فى قلوب الرجال فيجرهم إلى الفتنة (فَيَطْمَعَ) فيكن النبي الجاهل الغر (الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) وضعف إيمان وقفاق ، وعى بسبب لين قولكن عند محادثته أو عند استماع صوتكن بكلام لين رقيق (وَقُلْنَ) إذا تكلمتن (قَوْلًا) حسناً جميلاً (مَعْرُوفًا) فى الخير وإرضاء الله العليم الحكيم ، وفى الدعوة إلى الله ودينه ، أو تعليم شرعه أو بيان فضل نبيه ، أو تلاوة قرآن أو ذكر أو دعاء الخ وقال الضحاك (قَوْلًا مَعْرُوفًا) قولاً عفيفاً فيه شدة وقوة لا يطمع به طامع ولا يجترىء به مريض القلب (وَقَرْنَ) أصله اقررن حذف الراء الثانية وقلبت جرّة.

الراء الأولى إلى القاف فاستغنى عن همزة الوصل فصار قرن بمعنى أقن
وامكنن (فِي يُونِكُنْ) ملازمات لها بمعيدات عن الناس وعيونهم
والاحتكاك بهم في الطرقات خشية الفتنة ، وكن لا يخرجن من بيوتهن
إلا لمنر شرعى كحج أو زيارة أبوين أو أقارب ، أو عيادة مريض
أو نحو ذلك ، وإذا خرجن لا يبدن زينتهن ولا شيئاً من محاسنهن ،
فاذا كان الله تعالى قد أمرهن هذا الأمر وهن أمهات المؤمنين ،
وزوجات سيد المرسلين وهن المحسنات للمؤمنات ، العابدات القانتات ،
الصالحات الحافظات ، فغيرهن من سائر النساء أولى أن يخشى عليهن
ومنهن لو خرجن ومشين في الطرقات على أعين الناس ، وفيهم العصاة
الفجيرة ، والمجرمون الفسقة ، هذا صريح القرآن قد خالفناه ؛ وتركناه
وهجرناه ، فكانت تلك الفوضى الشائعة في الفتيات والفتيان ، والنساء
والرجال وعمت الفتنة ، حتى جاهروا بالعصيان ، ونادوا بالخروج على
القرآن ، واتباع الهوى والشیطان ، واستشرى الفساد ؛ ودخل كل
البلاد ، واختلطت الأنساب ، وضاعت الأحساب ؛ وإن شئت فنظرة
إلى المصايف وما يزكّى فيها ، وإلى الشواطىء وما يجري عليها ، وإلى
المجتمعات وما تقيض به ، وإلى المنزهات وما تنمنه ، مما يأتیه المسلمون
وأبناء المسلمين وبنات المسلمين ونساء المسلمين ورجال المسلمين (وَإِذَا
أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى

الله عليه وسلم قال : **إِنَّ الْمَرْأَةَ عَوْرَةٌ** ، فإذا خرجت من بيتها استشرها الشيطان ، وإن أقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قمر بيتها ، وقد يحرم عليها الخروج بل قد يكون كبيرة ، إذا تحققت منه الفسدة كخروجها متعطرة متزينة مبدية محاسنها ، كما يقع الآن مما يوجب الفتنة ، وإذا ظنت الفتنة فالخروج حرام وليس كبيرة ، ولا يجوز الخروج إلا لمنزرو بشرطه : وهي وجود المحرم والاحتشام وترك التعطر ، وإخفاء المحاسن ، مما يمنع من وقوع الفتنة ، ويصد عنها المفسدين ، ويرد عنها المعتدين ، وقد زاد الله تعالى في تأديبهن ليقتدى بهن نساء المؤمنين فقال جل شأنه (**وَلَا تَبَرَّجْنَ**) ولا تبرزن (**تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**) التي كانت قبل الاسلام والتبرج التبخر في تنميع إظهار المحاسن والزينة وما يجب ستره من المنق والصدر والشعر والقفاء والظاهر والأذرع والسيقان ، وما يعتل معالم الجسم ويظهر قوامه للناس . وكل ذلك حاصل الآن بدون مبالاة ولا حياء ، وقد زاد النساء في التبرج عن الجاهلية الاولى ، ولأن ذلك راجع اليهن وإلى أولياء أمورهن لعنهن الله لعناً كبيراً ، ولعن من يرضى بذلك منهن ، ولعن من ينظر اليهن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صنفان من أهل النار لم أرهما ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات ، وهن كأسمه البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا

وكذا ، وعن عائشة رضى الله عنها ، أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال بأسماء : إن المرأة إذا بلنت المحيض لم يصالح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه ، وعن أبي أمامة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجرد حلاوتها في قلبه ، وعن معاوية بن حيدرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا ترى أعينهم النار ، عين حرست في سبيل الله ، وعين بككت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله . وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدنيا متاع ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة ، مسكين مسكين رجل لا امرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لككم راح ومستول عن رعيته ، الامام راح ومستول عن رعيته والرجل راح في أهله ومستول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راح في مال سيده ومستول عن رعيته ، ولككم راح ومستول عن رعيته ، فالأنثى لا يقع على المرأة وحدها بل عليها وعلى كل مستول عنها ، هذا أدب الله وأدب رسوله

والله لو تأدبنا بها لكننا كما كان السابقون الاولون في عز وسؤدد ،
ورفعة لنا الامر لالغيرنا علينا ، ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها
على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ، وبعد أن أدبهن
بهذا الأدب العالى أمرهن بركنين عظيمين من أركان الاسلام ، وهما
إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم بأمر عام وهو إطاعة الله ورسوله ، فقال
جل شأنه (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ) المكتوبة على كل مسلم ومسلمة ومعلوم
أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتجعل ممن يقيمها عبداً روحياً
مؤمناً طاهر القلب نقي النفس (وَأَتَيْنَ الزَّكَاةَ) المفروضة ، لأنها
طهرة تؤلف بين قلوب المسلمين وتجعلهم أخوة صادقين ، وبهية
الاركان داخلة في قوله (وَأَطِعْنَ اللَّهَ) تعالى في كل ما أمر به ونهى
عنه (وَرَسُولَهُ) وأطعن رسوله ﷺ فيما جاء به وبلغه عن ربه عز
وجل ، ومن ذلك : الصوم ، والحج ، وعمل كل ما يرضى الله والرسول
(وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيراً * وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا * إِنَّ الْأُمْسَامِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ

وَالصَّابِرِينَ وَالْخَاشِعِينَ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُؤْتَصِفِينَ
وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَرِهَتْ أَعْدَاءُ اللَّهِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ

بعد أن اشتد سبحانه وتعالى في أمر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ونهيهن ، وتحذيرهن وترغيبهن ، بين أن السبب في ذلك والغرض منه إنما هو حفظهن من كل رجس وقص ، وبما وهن طاهرات كاملات طيبات شريفات فقال جل شأنه : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ) فهذا تعليل لكل ما سبق ؛ إنما يريد الله تعالى بتلك الأوامر وهذه النواهي (لِيُذْهِبَ) أن يذهب فاللام زائدة والمعنى يريد الله أن يذهب (عَنْكُمْ) فيه خطاب المؤنث بـخطاب المذكر للتعظيم وبيان الفضل وعلو المقام ومقتضى الظاهر عنكم ، لقوله : (وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) فمدل عنه لهذا وليدخل في أهل البيت غير أزواجه عليه الصلاة والسلام من الأصول والفروع من النسب ، يريد الله تعالى بما أمر وبما نهى أن يذهب ويمنع عنكم (الرِّجْسَ) معناه القدر والنجس والمراد به الذنب والسوء والفحشاء (أَهْلَ) يأهل (الْبَيْتِ) بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما كان لإذهاب الرجس لا يقتضى التطهير ، بل قد يزول الرجس ولا يطهر المحل ، قال جل شأنه : (وَيُطَهِّرْكُمْ) بالتقوى وفعل الخبرات : (تَطَهَّرَ) تاماً دائماً باقياً مما

يكون في أهل معاصي الله تعالى ، والرجس إشارة إلى ما نهى عنه ،
 والتطهير إشارة إلى ما أمر به ، وظاهر سياق الآيات والمناسبات لهذا
 السياق أن المراد بأهل البيت نساؤه الطاهرات عليهن السلام ، ويؤيد ذلك
 ما روى عن طريق عكرمة رضى الله عنه عن ابن عباس رضى الله عنهما
 في قوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)
 قال : نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله خاصة ، وعن عروة رضى الله عنه
 (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ) قال : يعني
 أزواج النبي صلى الله عليه وآله ، وعن علقمة قال : كان عكرمة ينادى في السوق
 (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
 تَطْهِيرًا) قال نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله خاصة . وصح في روايات كثيرة
 أن أهل البيت عليهم السلام للتصلون بنسبه صلى الله عليه وآله من الأصول والفروع . فعن
 زيد بن أرقم رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : أذكركم الله في
 أهل بيتي ، فقيل لزيد رضى الله عنه : ومن أهل بيته ؟ أليس نساؤه
 من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ؟ ولكن أهل بيته من
 حرم الصدقة بعده ، آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس ، وعن
 ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله قسم الخلق
 قسمين فجعلني في خيرهما فسيما ، فذلك قوله : وأصحاب اليمين ، وأصحاب
 الشمال ، فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل
 القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرهما ثلثاً ، فذلك قوله ، وأصحاب اليمنة

ما أصحاب المينة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والساقون الساقون ، فأنا من السابقين ، وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ، وذلك قوله : وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأنا أتق ولدت آدم وأكرمهم علي الله تعالى ولا غفر ، ثم جعل القبائل يوتناً ، فجعلني في خيرها بيتكذلك قوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) فأنا وأهل بيتي مطهرون من الذنوب ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لما دخل على رضي الله عنه فاطمة رضي الله عنها جاء النبي ﷺ أربعين صباحاً إلى بابها يقول : السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته : الصلاة وحكم الله (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) أنا حرب لما حاربهم ، أنسلم لمن سالمهم ، وعن حكيم بن سعيد قال ذكرنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند أم سلمة رضي الله عنها ، فقالت فيه نزلت (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) قالت أم سلمة جاء النبي ﷺ إلى بيتي فقال لا تأذني لأحد فجات فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أمنه أن يدخل على جده وأمه وجاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه : فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط ، فجلهم نبي الله بكساء كان عليه ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، فنزلت هذه

الآية حين اجتمعوا على البساط ، قالت فقلت يا رسول الله وأنا ، قالت فوالله ما أنعم ! وقال إنك إلى خير ، وعن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً) دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وجمالاً عليهم كساء خيبريا ، فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، قالت أم سلمة أأست منهم ، قال أنت إلى خير ، وصح في روايات أخرى أن أهل البيت يشمل الأزواج الطاهرات ويشمل المتصلين به ﷺ من النسب ، فقد روى أنه ﷺ ضم إلي أهل الكساء وهم علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم بقية بناته وأقاربه وأزواجه وهذا هو المراد من الآية ، وإن كان سبب النزول يدل على الخصوص ، بالأزواج ، أو بأهل النسب . ثم خص العرف أهل البيت بنسل علي وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين ، والتعميز بقوله عنكم يشعر بالعموم ، وفيه تغليب المذكر على المؤنث ، والمخاطب على الغائب ، وقوله : إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لا يدل على أنهم معصومون ، لأن الله سبحانه وتعالى يريد بأرسال الرسل وإزالة الكتب خير الخلق وهداية الخلق ولكن منهم من يهتدى ومنهم من لا يهتدى ، فكذلك جل شأنه يريد بما أمر ونهى إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم ولكن يجوز أن يكون منهم من لا يذهب عنه الرجس ولا يتقى ، والحق أنهم غير معصومين ، وليكنهم جميعاً يتوفون على الإيمان كرامة

للنبي عليه الصلاة والسلام ، وفي الآية حث لآل البيت أن يدوموا على الطاعة والخيرات ، وعمل الصالحات ، حتى يكونوا على طهارة تامة ، وصلاح وتقوى ، وبعد عن كل رجس وخش وذنب وإثم ، فالنبي إنما يريد الله بالأمر والنهي أن يذهب عنكم الرجس إن انتهيتم واتقتم فالأرادة على حقيقتها وهي مشروطة بالانتهاء والانتهاز ، فقل للذين يدعون الانتساب لأهل البيت وهم في حمة الرذيلة غارقون ، وعن طريق الفضيلة ناكبون ، افرءوا إن شئتم قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ففيها أمر لأهل البيت بالبعد عن الذنابات ، وبطهيرهم من السيئات فان كنتم صادقين ، فاتبعوا سنن سيد المرسلين ، وآل بيته الطاهرين . وإلا كنتم كاذبين ، والله مع الصادقين . وفي الآية تشريف لأهل البيت من وجوه ، فإله تعالى جل شأنه اعتنى بأمرهم ، وأظهر حبه إليهم وخطبهم ، ووعدهم بقبول أعمالهم ، وهذه بشارة لهم بالجنة ثم جعل ذلك كله قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ، فهم أهل الله وخاصته ، وهم في الخلق نوره ورحمته ، ولذلك كان منهم الأئمة الواصولون ، والهداة الراشدون في كل عصر وزمان ، فمن فتادة رضى الله عنه في قوله : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) قال هم أهل بيت طهرهم الله من السوء واختصهم برحمته ، قال وحدث الضحاك ابن مزاحم رضى الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول : نحن أهل بيت

طهرهم الله ، من شجرة النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ،
 وبیت الرحمة ، ومعدن العلم ، وهذا لا ينافی أن غیرهم ممن ليسوا من
 أهل البيت قد ينالون منازلهم ويدركون منازلهم ، غیر أن العلماء أجمعوا
 علی أن المهدي المنتظر لابد أن يكون منهم رضى الله عنهم أجمعين ،
 وجعلنا بهم من المهتدين ، ورزقنا حبهم ، وحشرنا معهم . وبعد أن
 أمرهم ونهاهم فيما سبق أمرهم بذكر ما يسمعون من قرآن وحكمة حتى
 يدمن علی التقوى ويزددن إيماناً ونوراً فقال جل شأنه : (وَاذْكُرْنَ)
 للناس علی سبیل العظة والتذكير والارشاد والتنبيه ، أو تذكر أنن
 (مَا يَنْتَلِي) ويقراء (فِي يُؤْتِكُنَّ) أيتها الطاهرات ، والتالى هو النبي
 ﷺ أو جبريل عليه السلام أو الصحابة رضى الله عنهم أو أنن أنفسكن
 (مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) تعالى وكلامه وهو القرآن الكريم (وَالْحِكْمَةِ)
 وهى السنة التى بين بها النبي ﷺ كلام ربه ، أو الحكمة التى اشتمل
 عليها القرآن من الهداية والعلم ، من باب ذكر الخالص بعد العام لأهميته
 ولأنه المطلوب الأعظم ، وفى الآية تنبيه لمن بأنهم أقرب الناس إليه
 ﷺ فمن أولى أن يبادرن بالانتفاع بهذا الخير العظيم ، والسعادة الأبدية
 وفيها إشارة إلى علو قدرهن وارتفاع منزلتهن ، وتشرفهن بذلك النور
 الوضاء ، نور النبوة الذى أثار الوجود من مشرقها إلى مغربها ساطعاً
 من هذه البيوت الطاهرة التى ضمت منبع النور ، ومصدر الحكمة ،
 وأصل الهداية والنعمة ، وهو النبي ﷺ ، وفيها أمر لمن بارشادغيرهن

بعد أن أمرهم ونهاهم وجعلهم أهلاً للقيام بمهمة الوعظ والارشاد والتبليغ والتذكير ، وفيها دلالة على أن من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وأن يحوز من صفات الكمال ما يجعله أهلاً للارشاد ، وقدوة حسنة في الناس

يأيتها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كل ذا التعليم
لا تنس عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
ابداً بنفسك فانها عن غيرها فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
قال الله تعالى لمن أعرفن هذه النعمة ، واحفظنها بدوام الشكر
عليها ، بفعل الطاعات والتذكروا والتذكير (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى) كَانَ يَكُنْ
(لَطِيفًا) إِذْ جَعَلَ لَكُنْ فِي بُيُوتِ النَّبِيِّ ﷺ ، بُيُوتَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ
وَمَنْزِلَ الْوَحْيِ وَالرَّحْمَةِ وَمَهْبِطِ الْهُدَى وَالنُّورِ (خَيْرًا) بَكُنْ إِذْ
اخْتَارَكَ أَنْزَاجًا خَيْرَ خَلْقِهِ وَأَفْضَلَ عِبَادِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَهُوَ
لَطِيفٌ بَكُنْ إِذْ أَمَرَكَ وَنَهَاكَ وَأَرْشَدَكَ وَلَمْ يَدْعَكَ بِلِزْمٍ رَعَا كُنْ
وَحَفِظَكَ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَحَقُّ بِالْكَرَامَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ ، وَأَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ
وَالِاجْتِنَابِ ، ، وَبَعْدَ أَنْ هَدَى وَأَرْشَدَ الزُّوْجَاتِ الطَّاهِرَاتِ ، وَفِيهِ إِرْشَادٌ
لِسُكْلِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، شَرَعَ يَبِينُ مَا أَعَدَّهُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ جَمِيعًا ،
فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ) ، إلخ ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ لِبَيَانِ مَا أَعَدَّهُ
لِأَهْلِ التَّقْوَى مِنْ ذَكَورٍ وَإِنَاثٍ ، يَرُودُ أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ أَوْ كُلَّ أَزْوَاجِ
النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرَ اللَّهُ الرِّجَالَ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ النِّسَاءَ

فنحن نخاف ألا يقبل منا طاعة ، فنزلت (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ) الآية ، وعن قتادة رضي الله عنه قال دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن قد ذكر كن الله في القرآن ولم نذكر بشيء ، أما فينا ما يذكر ؟ فأنزل الله (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) الآية ، وعن عبد الرحمن بن شعبة رضي الله عنه قال سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول قلت للنبي ﷺ ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ، قالت فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت وأنا أسرح شعري ، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرة بيتي فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : يا أيها الناس إن الله تعالى يقول . (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) إلى آخر الآية ، وقد ذكر عشر مراتب الأولى التسليم والافتقار في قوله : (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ) الذين دخلوا في الإسلام واتقوا الله وأسلموا الله عز وجل من الذكور والإناث ، والثانية الإيمان وذكرها بقوله (وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين ، فالإسلام قول باللسان ، والإيمان تصديق بالقلب ، وعلى ذلك فهما متغايران كما قال تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) وإذا قال العبد بلسانه وصدق بقلبه أطلع وعمل ، فالطاعة والعمل هي المرتبة الثالثة التي ذكرها بقوله

(وَالْقَانِينَ) الطمعين (وَالْقَانِتَاتِ) الطمعات ، فالقنوت هو الطاعة في سكون . قال تعالى (أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) وقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ) فاذا كان الاسلام والايمان والطاعة لزما الصدق ، فالصدق هو المرتبة الرابعة . وقد ذكرها بقوله (وَالصَّادِقِينَ) في أقوالهم وإيمانهم وأعمالهم (وَالصَّادِقَاتِ) في أقوالهن وإيمانهن وأعمالهن . فلا كذب ولا قنات ولا زياره ، والصدق الاخبار عن الشيء على ما هو عليه . والكذب الاخبار عن الشيء على غير ما هو عليه . والكذب حرام والصدق واجب . قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقال جل شأنه (ثُمَّ نَبْتَلُهمْ فَنَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) فالصدق علامة الايمان كما أن الكذب أماره النفاق . وقال ﷺ « عليكم بالصدق . فإن الصدق يهدي إلى البر . والبر يهدي إلى الجنة . وإياكم والكذب . فإن الكذب يهدي إلى الفجور . والفجور يهدي إلى النار . ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » وقال الله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ليسلم وكان فيه خصال خمس سيئة ، الكذب

والسرقة، والزنى، وشرب الخمر، والقتل . فقال النبي ﷺ اختارك واحدة وأترك لى أربعاً وأسلم . فقال له النبي ﷺ أترك الكذب . فرضى وأسلم ومضى إلى سبيله . فلما هم بالسرقة خاف أن يضبط فيسأل فيصدق فيجد . فترك السرقة وبقية الخصال خشية أن يجد . ففي الكذب كل الضرر . وفي الصدق النجاة والخير . يحكي أن الحجاج خطب فأطال . فقام رجل فقال الصلاة . فان الوقت لا ينتظره والرب لا يمهرك . فأمر بحبسه فأناه قومه . وزعموا أنه مجنون . وسألوه أن يخلى سبيله . فقال إن أقر بالجنون خليته . فقيل له . فقال : معاذ الله ، لا أزعج أن الله ابتلاني ، وقد عافاني ، فبلغ ذلك الحجاج فعفا عنه لصدقه ، فلو أن المسلمين صدقوا في إسلامهم وإيمانهم وأعمالهم وأقوالهم لشكروا عز الله ، ولعادلهم عبد الساقين الأولين من سلفهم رضي الله عنهم ، ولما كانت هذه المراتب تتطلب صبراً وثباتاً ، وقوة وجهاداً ، ذكر المرتبة الخامسة وهي الصبر .

بمعناها ، فقال عز وجل (وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ) على مشاق الإسلام والايمن والطاعة الصدق ، والصبر هو ترك الشكوى ، من آلام الشدة والبلوى ، ولا ينافيه التضرع إلى الله والالتجاء إليه عند اشتداد الكرب ونزول الخطب ، وقد قال الله في الصابرين (إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وقال في الثناء على أيوب عليه السلام (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ولا إيمان لمن لا صبر له ، قال ﷺ : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، والصبر في كل

شيء طريق كماله وإتقانه، في الطاعة، في الصناعة، في الزراعة في كل أمر، فصلاة الصابر ليست كصلاة المستعجل، وصناعة الصابر ليست كمصنعة غيره وكذلك كل عمل لا يكمل إلا مع الصبر، والصبر على المكروه يخفف من وطئها وشدها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا) علي مشاق ما اقترض عليكم وأدوه على أكل الوجوه وصَابِرُوا) عدوكم وغالبوه بالثبات والجهاد وكل أنواع المقاومة، فإن الظفر للصابر أخيراً ولو دقيقة واحدة أمام عدوه (وَرَابِطُوا) في الثغور وميادين القتال فأقيموا بها مرابطين محافظين لعدوكم مترصدين (وَأَتَّقُوا اللَّهَ) في كل أحوالكم وخافوا عقابه واخشوا عذابه (لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ) لكي تفلحوا وتنجحوا وتفوزوا بالسعادة في الدنيا والآخرة، وإذا تمت هذه المراتب للمبدل لزمه الخشوع والخوف من ربه، والاشفاق من خشيته وهي المرتبة السادسة التي ذكرها بقوله (وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ) والخشوع السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع، والحامل عليه الخوف من الله تعالى واستحضار هيئته، وتصور عظمته، ومراقبته في السر والعلن. قال صلى الله عليه وسلم: اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وإذا حصل المبدل على مرتبة الخشوع زال عنه الكبر والنظرسة والظلم والتسوة والقهر والغلبة والنصب والتهب والسلب وتحلى بالتواضع والحلم والعدل والاحسان والوثوق بالله والرضا بقضائه وقدره وعاش راضياً مرضياً وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا مدحه ماح وأثنى عليه، قال: اللهم

أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون ، واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون ، وليس معنى الخشوع إظهار النحافة والكسل والمشى بين عباد الله كالليت ، إنما معناه إشعار القلب خشية الله تعالى في كل وقت وحال . روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا تكونوا عيايين ولا تكونوا إمانين ، ولا متمادحين ولا متماوتين . أى مظهرين صورة الموت بالضعف والنحافة أو بالقول والفعل ، روى أن عمر رضي الله عنه نظر إلى رجل مظهر للنسك تماوت نخفته بالدرة ، وقال لاعت علينا ديننا أمانك الله . وفي قوله : (وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ) إشارة إلى الصلاة ، لأن الصلاة من لوازمها الخشوع ، وصلاة بلا خشوع كجسد بلا روح قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) وإذا تمت هذه المراتب لعبدها نت عليه الدنيا ، وعرف حق ربه في ماله فأخرج حق ربه طيبة نفسه ، مطمئناً قلبه ، فكان من النفقين في سبيله ، المتصدقين ابتغاه مرضاته ، وهذه هي المرتبة السابعة وقد ذكرها بقوله : (وَالْمُتَصَدِّقِينَ) من طيبات ما كسبوا فرضاً وتطوعاً (وَالْمُتَصَدِّقَاتِ) وفيه إشارة إلى الزكاة فالصدقة نوعان : صدقة فرضها الله تعالى على العبد في ماله يخرجها كل سنة ، وصدقة يتطوع بها متى وجسعة ، والصدقة هي الاحسان إلى الناس المحتاجين الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ينفق عليهم يعطون زكاة للمالطاعة لله تعالى ، وإحساناً إلى خلقه ، وقد ثبت في

الصحيحين « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفي حديث آخر « والصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار » وقد قدم الله الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في قوله تعالى (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) لأن إيفاق المال صعب (وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) (وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَبْرًا وَلَا كِبْرًا وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) والذي ينال هذه المراتب السبعة يكون قد هيا نفسه لطاعة ربه فيحتاج لما يكسر به شهوته ويزيد في صفاء قلبه ويشعره بنعمة الله عليه وحاجة الفقير إلى ماله وعونه ، وكل ذلك يكون بالصوم ، وهو المرتبة الثامنة التي ذكرها بقوله (وَالصَّائِمِينَ) شهر رمضان الذي فرض الله عليهم صومه والذين يتطوعون بصيام أيام آخر زيادة على الفرض ماداموا مستطيعين ، لا يضرهم صوم النفل في حياتهم ولا أبدانهم ولا أعمالهم (وَالصَّائِمَاتِ) الفرض والنفل وفيه إشارة إلى فضل الصوم ، وفي الحديث الصوم جنة أي وقاية من أمراض النفس والجسم فهو يركي البدن ويطهره وينقيه من الأخلط الرديئة طبعاً وشرعاً ، والصوم من العبادات التي لا يدخلها الرياء فهو سر بين العبد وربّه ، وهو من أكبر العون على كسر الشهوة شهوة البطن والفرج ، التي تنشأ عنها مفسد كثيرة ، بل كل الشرور تنشأ عن شهوة البطن وشهوة

الفرج ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة -- النفقة - فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء - وقاية من تلك الشهوة ولما كان للصوم وحده لا يكفى في حفظ المرء نفسه ، فقد يكون صائماً ويشتهى ، لذلك ذكر المرتبة التاسعة وهى حفظ المرء فرجه مما حرم الله فقال (وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ) مما لا يرضى الله تعالى (وَالْحَافِظَاتِ) فزوجهن مما حرم الله تعالى ، ومما وصف الله به المؤمنين المفلحين الناجين قوله جل شأنه (وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ فُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) والحافظات فزوجهن إلا على أزواجهن إن كن حراً ، أو من ملكن إن كن إماء ، لحفظ الفرج من الحرام محتاج لجهد قس شاق حيث جعل في المرتبة التاسعة ، ومن استطاع ذلك كل من المتقين ، ولما كان المقصود من تلك المراتب التسعة هو خشية الله ، والخوف من الله ، ومعرفة الله ، والوصول إلى الله ، وكانت تلك الأعمال لا يتفرغ لها العبد في كل حال ، فهو لا يستطيع يصلي طول وقته ، وكذلك في الصوم والصدقة ، ولكنه يستطيع أن يذكر الله في كل أوقاته لهذا ختم الأوصاف بالمرتبة العاشرة وهى الذكر الكثير فقال جل شأنه (وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ) تعالى بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم قائمين وقاعدين ومشين وراكبين وفى إسلامهم

وإيمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقهم ووصوفهم وحفظهم فروجهم ، وعلى كل هيئة وحال (وَالَّذَا كَرَاتِ) كذلك ، وقد ورد في الذكر الكثير آيات كثيرة قال تعالى (لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) وقال هنا (وَالَّذَا كَرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا) وقال فيما يأتي (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا) لأن مشاغل الدنيا كثيرة وفي المرء طبائع شهوانية تتنازع في كل أوقاته : غواسه وبطنه وفرجه ، كل أولئك تخفزه إلى الشر وتسوقه إلى العدوان والآنم ، ومن وراء ذلك كله الشيطان وغروره ، ووسوسته وحر به ، لذلك كله أمرنا الله تعالى بالذكر الكثير حتى تقاوم هذه الجنود جنود إبليس ، فإذا ذكر العبد ربه كثيراً مع ما ناله من هذه المراتب لم يجد الشيطان إليه سبيلا ، ولقي ربه وليس عليه شاهد بذنب والمراد بالذكر مع الاستحضار والخشية ذلك الذكر الذي تلين له الجلود ونوجل له القلوب كما قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) وذكر الله يكون بذكر أسمائه مع مراعاة معنى كل اسم أو بالتسبيح أو بتلاوة القرآن أو بالصلاة ، وقد أخبر عن حازوا هذه الصفات العشر بقوله جل شأنه : (أَعَدَّ اللَّهُ) تعالى بسبب ما كسبوا وبسبب ما كسبن (لَهُمْ) ولهن (مَغْفِرَةٌ) عما فرط منهم ومنهن من الذنوب قبل أن ينالوا ويتلن هذه الصفات (وَأَجْرًا عَظِيمًا) على ما عملوا

وهملن من الطاعات ، يوم الجزاء (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا) فيأبها المسلم هذه هي الصفات العشر التي تنجيك من عذاب أليم ، وتجعلك يوم القيامة في نعيم مقيم ، وعليها سعادتك وسعادة المسلمين إخوانك في الدنيا والآخرة ، فاجعلها من صفاتك واحتفظ بها ، لتكون كلمة الله هي العليا ، والله مع الصابرين ، (وإِنَّ اللَّهَ لَسَعَ الْمُحْسِنِينَ)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا * وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَعْمُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ

اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا •
مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ
النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا •

كان من عادة الجاهلية التبتى ، فيدعى الرجل أن فلانا ابنة ،
فينسب إليه ، ويدعى به ، فيقال ابن فلان ، فلا يصح أن يتزوج الرجل
من زوجة من ادماء إذا طلقت ، وكانوا يدعون زيد بن حارثة بابت محمد
فنسخ الله ذلك كله بقوله : (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) وقوله :
(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) فصاروا يقولون زيد بن حارثة ، بين الله تعالى
ذلك كله أول السورة ، وأراد أن ينسخ ما يترتب على حكمه المادة
فشرع يذكر قصة زينب الأسدية مع زيد التي انتهت بزواجه عليه السلام
منها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في الزوج من أزواج أديليهم
إذا فارقوهن ، وكانوا يمنعون ذلك ، ويروونه كبيرة ، فنسخه الله تعالى
وجعل أول ناسخ له نبيه عليه السلام ، فقال جل شأنه (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ) الخ
فناسبة هذه الآية لما قبلها أنها تنمى لقصة زيد التي بدأ بها السورة
وأنه سبحانه وتعالى لما بين صفات المؤمنين والمؤمنات ، ناسب أن
يذكر ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون والمؤمنات مع الله تعالى
وزسوله عليه السلام فيما يؤمرون به أو ينهون عنه ، فقال : (وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ) الخ والسبب في نزول هذه الآية ما روى عن

فتادة قال: نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش، وكانت بنت عمه رسول الله ﷺ فخطبها رسول الله ﷺ فرضيت، ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة، أثبت وأنكرت، فأنزل الله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) فتابعته بعد ذلك ورضيت وعن ابن عباس قال خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد ابن حارثة، فاستنكفت منه، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة، فأنزل الله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) الآية كلها فرضيت ورضي أخوها عبد الله فزوجها رسول الله ﷺ زيداً، بعد أن جعلت أمرها بيده عليه الصلاة والسلام وساق إليها عنه المهر عشرة دنانير وستين درهماً وخمسة درهماً وإزاراً وخمسين مداً من طملم وثلاثين صاعاً من تمر، قال تعالى: (وَمَا كَانَ) وما صح ولا ينبغي ولا يحل شرهما (لِمُؤْمِنٍ) بالله تعالى ورسوله ﷺ (وَلَا مُؤْمِنَةٍ) بهما (إِذَا قَضَى اللَّهُ) تعالى (وَرَسُولُهُ) سيدنا محمد ﷺ (أَمْرًا) أنزله الله وبينه الرسول، حلالاً أو حراماً، مباحاً، أو محظوراً (أَنْ يَكُونَ لَهُمْ) للمؤمنين والمؤمنات (الْخِيَرَةُ) والاختيار (مِنْ أَمْرِهِمْ) هذا الذي أمرهم به الله ودلهم عليه الرسول؛ بل يجب عليهم أن يذعنوا ويطيعوا، ويسمعوا ويقبلوا، كل ما أمرهم

به الله ودلهم عليه الرسول ، ولو خالف هواهم ، وما في نفوسهم ، قال تعالى : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُكَلِّمُوكَ فِي شَجَرٍ يَنْبَغُهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَاسُوا تَسْلِيمًا) وقال جل شأنه : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ثم أوعدهم إذا خالفوا أو خالفن فقال : (وَمَنْ يَعْصِرْ) ومن يخالف (الله) تعالى فيما أمر به أو نهى عنه (وَرَسُولُهُ) في ما بلغ ودل ؛ ويتبع هواه ورأيه ونفسه (فَقَدْ ضَلَّ) عن طريق الهدى والصواب (ضَلَالًا مُبِينًا) ظاهراً واضحاً بين الانحراف والاعوجاج ، وفي الآية الأمر بالتمسك بالكتاب والسنة ، والنهي عن العمل بغيرها ، فاعليه المسلمون الآن من العمل بالقوانين الوضعية التي تخالف الكتاب والسنة إنما هو ضلال مبين ، وزين عن طريق الهدى والصواب ، يستوجب المقت والمقاب ((وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ، ولما كانت الآية السابقة قد نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها ناسب أن يذكر قصتها مع زيد رضي الله عنه ومع رسول الله ﷺ فقال جل شأنه : (وَإِذْ نَقُولُ لِلْحَزَنَةِ) نزلت هذه الآية في قصة زيد وزينب وتطليقها منه وتزويجها من النبي ﷺ ، وتذكر لك بياناً وجيزاً عن زيد وزينب رضي الله عنهما ، فأما زيد فهو زيد بن حارثة بن شراحيل ويكنى أبا أسامة وهو مولى

رسول الله ﷺ وحبّة وأبو حبة أسامة بن زيد أصابه سبي في الجاهلية فأخذوه وقدموا به سوق عسكلظ فشرّوه لخديجة رضي الله عنها فوهبته خديجة للنبي ﷺ بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمانين سنين فأعتقه وتبناه وصاروا يدعونه زيد بن محمد حتى أنزل الله (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين حمزة بن عبد المطلب ، وحزن أبوه لفقدته حتى عرفه بعض قومه وأخبروا أباه حارثة بموضعه ، ففرج حارثة وأخوه كعب لفدائه فقدماه مكة ودخلا على النبي ﷺ فقالا يا ابن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومه ، جئناك في ابنا عندك فامن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فقال من هو ؟ قالوا زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : فهلا غير ذلك ؟ قالوا ما هو ؟ قال ادعوه وخبروه ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً ، قالوا قد زدتنا على النصف وأحسننت ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم ! هذا أبي ، وهذا عمي : قال فأنا من عرفت ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو اخترها ، قال ما أريدهما ، وما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني مكنن الأب والعم ، فقال أبوه وعمه ويحك يا زيد ، أئختار العبودية على الحرية وعلى أميك وأهل بيتك ، قال نعم ! فقرأت من هذا الرجل شيئاً ، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً ، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر عند الكعبة فقال يا من حضر : اشهدوا أن زيدا أخي يرثني وأرثه ، فلما رأى ذلك أبوه وعمه

طابت قوسهما وانصرفا، فترى أنه آخر عشرة الرسول ﷺ على أبيه وأمه وأهله وقومه، وهو أول من أسلم من اللوالمى رضى الله عنه، وشهد بدرًا، وكان البشير إلى المدينة بالظفر والنصر، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليهم، ولو بقى لاستخلفه بعده، ولما سير رسول الله ﷺ الجيش إلى الشام جعل زيدًا أميرًا عليهم، وقال فإن قتل جعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فقتل زيد فى مؤتة من أرض الشام فى جمادى من سنة ثمان من الهجرة، وقتل جعفر، ثم قتل عبد الله بن رواحة رضى الله عنهم أجمعين وبكى الرسول لقتلهم، ولم يذكر فى القرآن من أصحاب النبي ﷺ ولا من أصحاب غيره من الأنبياء إلا زيد رضى الله عنه، وقتل وهو ابن خمس وأربعين سنة، وقد زوجه النبي ﷺ ابنة عمته زينب رضى الله عنها، ثم طلقها وتزوجها النبي ﷺ ونزل فى ذلك (وَإِذْ تَقُولُ) إلى قوله: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا). وأما زينب رضى الله عنها فهى زينب بنت جحش الأسدية، وأما أئمة بنت عبد المطلب عمه النبي ﷺ، ولها أقدمية فى الاسلام، وهى من المؤمنات المهاجرات، تزوجها زيد بن حارثة، ثم تزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث، وقيل سنة خمس للهجرة لا بطل ما كلف أهل الجاهلية يعتقدونه، من أن الذى يتبنى غيره يصير ابنه فيتوارثان ولا تحل له امرأة المتبنى كما لا تحل له امرأة ابنه إلى غير ذلك. فأبطل الله ذلك،

فمن أنس بن مالك قال : لما اتقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : اذهب فاذكرني لها ، قال زيد فلما قال لي رسول الله ﷺ ذلك ، عظمت في عيني فذهبت إليها ، فجعلت تظهرني إلى الباب فقلت يا زينب : بعث لي رسول الله ﷺ يذكرك ، قالت : ما كنت لأحدث شيئاً ، حتى أوامر ربي عز وجل ، فقامت إلى مسجدها ، وأنزل الله هذه الآية : (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) فجعل رسول الله ﷺ يدخل عليها بغير إذن ، قال أنس كانت زينب بنت جحش تقتخر على نساء النبي ﷺ ، و تقول زوجني الله من السماء ، وأولم عليها رسول الله ﷺ بخبز ولحم ، وكانت صناع اليد ، تعمل يدها وتتصدق به في سبيل الله ، قالت عائشة رضي الله عنها هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ : ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين من زينب ، وأتقى الله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم أمانة وصدقة ، وقال ﷺ إنها لأواهة فقال رجل يا رسول الله : ما الأواه ؟ قال المتخضع المتضرع . وكانت أول نسائه صلى الله عليه وآله وسلم لحوقاً به ، كما قال عليه الصلاة والسلام أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً ، فكانت هي زينب رضي الله عنها ، ومعني أطولكن يداً أكثركن معروفات وخيراً وصدقة ، توفيت سنة عشرين للهجرة ، وأرسل إليها عمر بن الخطاب اثني عشر ألف درهم كما فرض لنساء النبي ﷺ فأخذتها وفرقتها في ذوى قرابتها وأيتامها ، ثم قالت : اللهم

لا يدركني عطاه لعمر بن الخطاب بعد هذا ، فانت وصلى عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعا ، وقد تزوجها النبي ﷺ وهى بنت خمس وثلاثين سنة ، وماتت وهى بنت خمسين سنة ، أو ثلاث وخمسين سنة ، قال تعالى (وَإِذْ تَقُولُ) واذكر أيها النبي الكريم وقت قولك (لِلَّذِي) يزيد بن حارثة الذي (أَنْعَمَ اللَّهُ) تعالى (عَلَيْهِ) بتوقيفه للإسلام ، وتوفيقك لحسن تربيته ، ورعايته ، والمطف عليه ، حتى لقد كان منك بمنزلة الابن من الأب ؛ بل قدمك على الأب والم لما رأى منك من الحب الخالص ، والكرم العظيم ، والآيات الباهرة ؛ كما قال جل شأنه (وَأَنْعَمْتَ) يابى الله (عَلَيْهِ) بالعتق ، والتحرير من الرق ، والهداية إلى الاسلام ، وصحبتك ياخير الأنام ، وغير ذلك من صنوف الانعام قول له (أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) زينب بنت جحش ولا تفارقها ، وذلك أن زيدا لما تزوج زينب كانت معه ذات حدة وشدة ، وكانت تفخر عليه بشرفها وحسبها ويسمع منها مالا يحب ، فغاض الله عنه إلى الرسول وقال يا رسول الله انى أريد أن أفارق صاحبتى ، فقال الرسول : أرباك منها شيء قال لا والله ولكنها تتعظم على لشرفها وتؤذي بلسانها ، فقال له النبي ﷺ (أَمْسِكَ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) فلا تطلق (وَأَتَى اللَّهَ) تعالى يازيد فى أمرها وفى عشرتها ، ولا تسرع فى مفارقتها ، لأنها كما تقول تتعظم عليك لشرفها ، وتؤذي بلسانها ، وكان ﷺ يعلم من طريق الوحي أن زيدا سيطلقها ، ولكنه اتبع

طريقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال له : أمسك عليك زوجك،
واتق الله فيها ولا تفارقها لمجرد ما وقع في قفسك منها ، فقال الله تعالى
لنبيه ﷺ (وَتَحَنَّنْ) أيها النبي (فِي قَفْسِكَ) الرحمة الشريفة (مَا اللَّهُ)
تعالى (مُبْدِيهِ) كما سبق في علمه وهو طلاقها وتزوجك (وَتَحَنَّنْ)
وتخاف (النَّاسَ) المؤمنين والمنافقين أن يفتنوا ، إذا قلت لزيد طلقها
حين قال لك إنها تؤذي ، فيجد المنافقون طريقاً إلى الفتنة ويقولون
إنه يأمره بطلاقها لأنه يريد زواجها ، وهي زوجة ابنه الذي تبناه
(وَاللَّهُ) تعالى (أَحَقُّ) هو الأحق (أَنْ تَحْشَاهُ) ولا تحش غيره ولا
تنظر إليه متى أعلمك الله بما يخاف ما عليه الناس ، فاجتث إلا
لاخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومن تلك العادات السيئة إلى الخير
العظيم ، فكل ما في الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم لرأفته
ورحمته لم يأمر زيدا بطلاقها خشية وقوع الناس في الفتنة ، وقد علم من
طريق الوحي أنه سيطلقها وأنها من أزواجه صلى الله عليه وسلم فقال
له ربه : متى علمت شيئاً من طريق الوحي فأذكره ولا تحش إلا الله
الذي أوحى إليك وأعلمك ، روى عن علي بن زيد بن جدعان ، قال :
سألني علي بن الحسين رضي الله عنهما - ما يقول الحسن في قوله تعالى :
(وَتَحَنَّنْ فِي قَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) فذكرت له ، فقال : لا . ولكن
الله تعالى أعلم بنبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما
أتاه زيد رضي الله عنه ، ليشكوها إليه ، قال اتق الله ، وأمسك عليك

زوجك ، فقال . قد أخبرتك أني مزوجكها ، ونحني في قصك ما الله
مبديه ، وروى عن السدي أنه قال نحو ذلك : وهذه الحادثة دلت على
كمال حياته صلى الله عليه وسلم ، وعظيم أدبه ، وعلو خلقه ، أخفى أمراً
أباحه الله له ، وأطلعه عليه وأنه لا حرج فيه ولا عيب في إتيانه ،
فلست حياً أن يعرفه الناس ، فيطلق المناقون ألسنتهم ، ويرجف به المرجفون
كما هي عادتهم ، في حين أنه لم يكن مستنكراً عندهم أن ينزل الرجل
منهم عن امرأته لصديقه ، ولا مستهجنًا إذا نزل عنها أن يتزوجها
الآخر ، فإن المهاجرين لما دخلوا المدينة استهم الأنصار معهم كل شيء ،
حتى أن الرجل منهم إذا كانت له امرأتان نزل عن إحداها وتزوجها
للمهاجر ، وإذا كان الأمر مباحاً من جميع جهاته ، وليس فيه وجه من
وجوه القبح ، وليس فيه مفسدة ولا مضرة بأحد ، ولا بالهيئة العامة ،
فليس في إتيانه أية تقيصة ، فإياك إذا كانت فيه المصلح الآتية :

(١) أن الله تعالى أراد أن ينسخ بزواجها ما كان من حرج في
زواج زوجة النبي متى طلقت ، واقضت عنها ، كما دل عليه قوله
جل شأنه : (زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي
أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) .

(٢) أن يحو من النفوس أن زيداً رضي الله عنه ابن محمد ﷺ كما كان يدعى
إلى أن نزل قوله تعالى : (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) وهو ما أفاده قوله تعالى :
(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ)

(٣) أن زينب رضي الله عنها بنت عمته عليها السلام ، فإذا طلقت وانقضت عدتها فهي أحق أن تحفظ وتصلن عنده عليها السلام ، وفي ذلك ما فيه من صلة القربى (٤) بيان أنه عليه السلام يفعل ما يأمره به ربه ، وإن كانت نفسه الشريفة المطبوعة على الشفقة والرحمة والرأفة ترى أنه قد ينتج ما ربما قتل الناس أو صدم عن الحق (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) مع هذا كله أخفى الرسول عليه السلام عن الناس ما علمه بالوحي من أن زيدا رضى الله عنه سيطلق زينب وأنها ستكون من أزواجه الطاهرات ، وأخفاه لأنه لم يؤمر بتبليغه ، فلا جناح عليه في إخفائه ، فلما أراد الله إبطال هذه العادة أنزل قرآنا يبطلها ويتلوه الناس وهو قوله (فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كَهَا لِكَيْلَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا تَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) فلم يكن هذا عن هوى ولا غرض منه عليه السلام ، بل كان عن وحي وتنزيل ومع أنه أخفى طلاقها وأنها ستكون من أزواجه ، نسبوا إليه أنه أخفى حبها وميله إليها ، وقالوا أنه رآها فوقعت محبتها في قلبه ، وأراد طلاقها من زوجها وأخفى ذلك كله ، مما لا يليق بمنصب النبوة وعصمة الرسالة ، وما لا يتفق مع خلقه العظيم ، وفضله الكبير ، وسمو نفسه ، وعلو أدبه وشرفه عليه السلام ، والعجب أن يستسيغ ذلك مسلم ويقول ، وكيف يقال إنه رآها فأعجبته ، وهى بنت عمته ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولم يكن النساء محتجبن ، وما نزل الحجاب إلا بسببها في قوله

تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) وهو ﷺ الذي زوجها زيد رضي الله عنها ، والآية الكريمة تدل على أن الذي أخفاه هو ما أوحاه الله إليه من زواجها بعد طلاقها من زيد ، لأن الله تعالى أبدى وأظهر ما أخفاه . ولم يبد ولم يظهر غير تزويجها منه وهو قوله : (زَوْجًا كَمَا) فلو كان الذي أخفاه رسول الله ﷺ محبتها وإرادة طلاقها ، لكان ذلك هو الذي يظهره الله تعالى ، لأنه لا يجوز أن يخبر جل جلاله ، أنه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره ، ولو أظهره لقال ما الله مبديه من حبك إياها ورغبتك في تطليقها حين شاهدها ، فكل ذلك لم يكن ، فإخفاه هو ما علمه ربه من أنها ستكون زوجته ، ومع علمه قال : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وهو عليه الصلاة والسلام المؤمنین رؤوف رحيم ، فلو قال له طلقها لكان ذلك له وقعه في قلب زيد رضي الله عنه ، وقد قال سيدنا علي زين العابدين بن الإمام الحسين رضي الله عنها إن الذي أخفاه هو ما أوحى إليه من أن زيدا سيطلقها وستكون من أزواجه ، والقول ما قال السيد الكريم ، فليس بعد قوله قيل ولا قال . ثم شرح سبحانه وتعالى في إتمام هذه القصة فقال جل شأنه (فَلَمَّا قُضِيَ) أتم (زيد) وهو ابن حارثة رضي الله عنه (منها) من زينب رضي الله عنه وعنها (وطرأ) حاجة وأردا ولم يبق له هوى فيها ، ولا ميلا إليها ، ولم يجد بدا من طلاقها ، فطلقها راضيا مختارا من غير معرفة بما أعلم الله به نبيه ﷺ ، فلما طلقها واقتضت عدتها

« زَوْجَنَا كَهَا » بلاولى ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ،
 خصوصية له صلى الله عليه وسلم ، وتشريفاً له ولها ، فمن أنس رضى
 الله عنه لما انقضت عدة زينب رضى الله عنها ، قال رسول الله صلى الله
 عليه وسلم لزيد بن حارثة : اذهب فاذا كرها على ، فانطلق حتى أتاها
 وهى تحمر عيניה ، قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع
 أن أنظر إليها ، وأقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرها ، فوليتها
 ظهري ونكصت على عقبي ، وقلت يا زينب أبشري ، أرسلنى رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يذكرك ، قالت ما أنا بصانعة شيئاً ، حتى أؤمر
 ربى عز وجل ، فقامت إلى مسجدتها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج النابى
 وبقي رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وانبعثه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتتبع حجر
 نسائه يسلم عليهن ، ويقلن يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى
 أتى أخبرته أن القوم قد خرجوا ، أو أُخبر ، فانطلق حتى دخل البيت
 فذهبت أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ
 القوم بما وعظوا به (لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ)
 الآية كلها . رواه مسلم والنسائى ، وكان تزويجه منها سنة ثلاث وقيل
 سنة خمس وهو الأرجح لأن سورة الأحزاب نزلت بالمدينة فى هذه

السنة ، وكان هذا الزواج للتشريع كما سبق ، ولقوله تعالى (لِكَيْلَا
يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ) وإثم (فِي أَزْوَاجٍ) في الزوج
من أزواج (أَدْعِيائِهِمْ) الذين دعوم لا قسمهم واتخذهم أبناء يدعون
باسمهم فيقال ابن فلان ، كما كان يقال زيد بن محمد حتى نزل (ادْعُوهُمْ
لِأَبَائِهِمْ) فقالوا زيد بن حارثة ، وكانت العرب تعتقد حرمة زواج
نساء من يتنوم كحرمة نساء آبائهم من أصلابهم ، فأخبرهم الله تعالى
أن نساء الأَدْعِيَاءِ حلال لهم (إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) واقتضت صلة
الزواج بطلاقهن وانقضاء عتقهن بخلاف أزواج آبائهم الصليب فنهى بحر من
على الآباء بمجرد العقد عليهن للأبناء ، وكل شيء تعلقت قدرة الله
تعالى به لا بد أن يكون ويقع كما في علمه في الوقت المقدر له والأجل
المحدد لظهوره كما قال تعالى « وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ » تعالى وما يريد
تكوينه من الأشياء التي منها ابطال التبن ، ونسخ ما يرتب عليه في
اعتقاد أهل الجاهلية من منع الزوج من أزواج الأَدْعِيَاءِ ، وغير ذلك
كان كل ذلك « مَقْعُولًا » له تعالى ونافذًا وحاصلاً على مقتضى علمه ،
وقضائه وقدره ، ولا بد من حصوله كما علم وأراد ، فالخشية من الناس
أو أي اعتبار آخر لا يمنع ظهور أمر الله ، ولا يقف دون حصوله ،
ولا حرج ولا إثم على النبي صلى الله عليه وسلم في تنفيذ ما أمره الله
به للتشريع وليكون سنة للمسلمين ، ومن ذلك تزويجه من زينب
رضي الله عنها كما قال جل شأنه (مَا كَانَ) لم يكن « عَلَى النَّبِيِّ »

ﷺ (مِنْ حَرَجٍ) ولا عيب ولا ذنب، كما قال أعداء الله، إنه زوج امرأة من تبنائه، وأنه يكثر من الزواج. فأما زواجه بها فهو بأمر ربه وقد كان للمصالح التي سبق ذكرها، وأما الاكثار من الزواج فلم يجتمع في عصمته غير تسع وقد مات عنهن، وكان زواجه من كل واحدة لغرض شريف وقصد جميل، هو الاستعانة بها وبقومها على إقامة دعائم الدين، ونشر الدعوة الإسلامية، وغيره من الأنبياء قد جمع في عصمته أضعاف ما كان له ﷺ كداود وسليمان عليهما السلام، ولم يتزوج بكراً إلا السيدة مائسة رضي الله عنها، فليس على النبي المعصوم ﷺ (مِنْ حَرَجٍ) فيما قَرَضَ الله له أن ينقذه، ويبلغه للناس من طريق الفعل أو من طريق القول، كالزواج من أزواج الأعداء، وللنعم من أن يدعى أحد لغير أبيه، ولم يكن النبي ﷺ بدعا من الرسل. بل فعل ما فعله الرسل، وسار على السنن التي ساروا عليه وهو إبلاغ ما أمر بتبليغه بالفعل أو بالقول (سُنَّةَ اللَّهِ) تعالى سن الله عز وجل ذلك سنة (فِي) الأنبياء والأمم (الَّتِي خَلَوْا) ومضوا وقضوا حياتهم (مِنْ قَبْلِ) من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وأمته وتلك السنة هي أن الله تعالى فرض عليهم أموراً فعلوها وبلغوها لأمتهم غير ناظرين لما عليه تلك الأمم من العادات والحالات، فأنما جاءوا لتغيير هذه العادات ومحو تلك الحالات، التي لا تعود عليهم بخير ولا فائدة بل فيها ضررهم وأذام. والنبي صلى الله عليه وسلم فيما فعل لم يخرج عن هذه السنة

وكل أمر يأمرون به فهو مقدور ومكتوب عند الله تعالى ، ولا بد من حصوله ووقوعه ، فلا اعتراض ، ولا محل للاعتقاد على ما كان من زواج زينب رضي الله عنها بالنبي ﷺ ، لأنه لم يكن عن هوى في نفسه ، وإنما كان لتنفيذ أمر ربه الذي فرضه عليه ، وألزمه به ، كما قال تعالى : (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ) تعالى (قَدَرًا) فضاه ثابتاً في علم الله أزلاً (مَقْدُورًا) مقضياً حاصلًا وواقعاً في وقته ، وعلي وفق علمه عز وجل ، ولكن أمر الله بالنسبة للأنبياء لا ينافي العصمة ، ولا يكون في مكروه أو محرم ، لأنهم يبلغون رسالات ربهم كما قال جل شأنه : (الَّذِينَ يُسَلِّطُونَ) لأنهم . ومنهم وأولهم وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ ، فهم جميعاً يبلغون (رِسَالَاتِ اللَّهِ) تعالى ، كما أمرهم ، وعلي وفق ما أُرشدتم ، لا ينقصون منها شيئاً ، ولا يتركون منها أمراً ، ولا تأخذهم في ذلك خشية أحد ، ولا رهبة جبار ، ولا يمنهم منها لوم لأنهم ، ولو كانت على غير هوى من أرساوا إليهم ، وعلى خلاف طاعتهم ورجائهم ، معتمدين على ربهم (وَخَشَوْنَهُ) في تبليغ رسالاتهم ، فيؤدونها على أكل الوجوه ، وأثم الأحوال (وَلَا يَنْشَوْنَ أَحَدًا) في القيام بالتبليغ وفي كل أمورهم (إِلَّا اللَّهَ) تعالى الذي اختارهم واصطفاهم وآوام وأيدهم ونصرهم ، (وَكَفَى بِاللَّهِ) تعالى (حَسِيبًا) علياً بكل شيء ، فهو ينصر ويجزي المحسنين من الأنبياء وغيرهم ، ويخذل ويماقب المسيئين من

يمارسون الأنبياء ويقتفون الآباء، ولما تزوج النبي ﷺ زينب رضي الله عنها قال الناس: امرأة ابنه، فأنزل الله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ) (أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ) فقد مات أبناؤه عليهم السلام وهم في من الطفولة، وزيد ليس من أبناؤه، وإنما هو ممن أحبهم وعطف عليهم لسابقتهم في الاسلام، وتفاينهم في حبه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن ﷺ أباً أحد من الرجال (وَلَكِنْ) كان (رَسُولَ اللَّهِ) إلى الخلق كافة (وَحَامٍ) بفتح التاء وكسرها، فهو ختام (النبيين) لآبى بعده ولا معه (وَكَانَ اللَّهُ) جل شأنه (يَكُلُّ شَيْءًا) في الدنيا والآخرة (عَلِيًّا) به، فلم يُبق له ابناً يرث النبوة، وجعل شرعه فيه كفاية الخلق في معاشهم ومعادهم إلى يوم القيامة؛ لأنه أراد أن يكون نبيه ﷺ خاتم الأنبياء فلا حاجة لنبي بعده، لاستيفاء شرعه لكل ما فيه سعادة الخلق في دينهم ودنيائهم، وفي صحابته وعلماء أمته ما ينبغي عن إرسال رسول بعده ﷺ، وقد قاموا رضي الله عنهم بهذه المهمة خير قيام، ولا يزال في أمته ﷺ من المؤمنين به دماء عاملون إلى يوم القيامة، وإن اختلفوا كثرة وقوة، باختلاف العصور، والخير في السابقين، والسابقون أولئك المقربون (وَتَسْكُنُ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَنْعَمُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) فبيننا ﷺ خاتم النبيين، وقد ادعى الرسالة

في زمنه وبعد زمنه دجالون كذابون فقتلوا وبأن للناس أمرهم، وهو
 ﷺ رسول إلى الخلق كافة كما قال الله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي
 رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) فهو ﷺ خاتم الأنبياء؛ وصفي الأصفياء
 والرسول إلى أهل الأرض والسماء، عن أبي هريرة رضى الله عنه أن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فضلت على الأنبياء بنيت: أعطيت
 جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الفنائم، وجعلت لي
 الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون.
 وعن عبد الرحمن بن جبير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج
 علينا رسول الله ﷺ يوماً كالودع فقال أنا النبي الأُمِّي ثلاثاً، ولا نبي
 بعدى، أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة
 النار وحمة العرش، وتجوّزني، وعرفت وعرفت أمتي، فاسمعوا.
 وأطيعوا ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله تعالى أحلوا
 حلاله وحرموا حرامه اهـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا
 سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ
 يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ
 بِكُرَّةٍ وَأَصْبِلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ

مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * نَحْنُ نَعْتَمِدُهُمْ يَوْمَ
يَأْتُونَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا
مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا * وَلَا
تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَانَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ
الَّذِينَ طَلَقْتَهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ
تَعْتَدُوهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا .

لما بين الله تعالى فيما سبق صفات المؤمنين ختمها بقوله : (وَالَّذَا كَرِينَ
اللَّهُ كَبِيرًا وَالَّذَا كِرَاتِ) ، ثم بين أنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيرة
من أمرهم متى أمر الله ورسوله أو نهى الله ورسوله ، وضرب مثلاً
لذلك هو حادثة السيدة زينب مع سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنهما
وتزوجها من النبي صلى الله عليه وسلم بعد مفارقة زيد لها وإقضاه
عنها ، ثم شرع يأمر المؤمنين والمؤمنات بالذكور الكثير وتسييح الله
التقدير في كل وقت وعلى كل هيئة ، وأنه تعالى يجزيهم على كثرة
ذكرهم بأنه يصلى عليهم هو وملائكته عليهم السلام ، وأنه أعد لهم
أجرًا كريمًا عظيمًا ، وذلك ليعوزوا صفة الذكورين الله كثيرًا ، وليكونوا

من أسلموا أمرهم لله ورسوله في كل شيء ، فهذه هي النسبة بين هذه الآيات وما سبقها ، فقال جل شأنه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وصدقوا بقلوبهم بالله ورسوله وحازوا صفات المؤمنين (اذْكُرُوا اللَّهَ) تعالى بضرع وخشوع وخشية وخضوع وتذكروا استحضار (ذِكْرًا كَثِيرًا) بأستسكم وجوارحكم وقلوبكم في الليل والنهار ، في السر والعلن ، في السفر والحضر ، قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، ذلك بأن القلب تتجاذبه طبائع الشهوة في الانسان ، وتنتابه وساوس الشيطان ، ويؤثر فيه المعيان ، وكثرة الذكركم تجلو القلب ، وتطهر النفس فتطفي الشهوات وتبعده عن ارتكاب السيئات ، ويكون كاللائكة ، روح طاهرة راضية زاكية ذاكرة شاكرة ، والله يذكركم بأسمائه أو بالصلاة أو بالدعاء أو بتلاوة القرآن ، وأفضل الذكركم ما كان عن استحضار وكن ليلا لقوله تعالى : (إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً) وقوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَجُدْ لَهُ) وقوله : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) وقوله : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا) وقوله : (آمَنَ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) وقوله : (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً) وقوله : (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً) وكان

ﷺ يقوم من الليل وينام من الليل ، ولم يقم ليلة قط حتى أصبح ، ولم يُم ليلة قط حتى أصبح ، رفقاً بالمسلمين حتى لا يقوموا الليل كله اقتداء به ، وكثير من الصحابة والتابعين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه كانوا يقومون الليل كله ، ومنهم من دام على ذلك ثلاثين سنة ، ومنهم من دام عليه أربعين سنة ، وصلى الصبح بوضوء العشاء ، كسعيد بن المسيب ، وفضيل بن عياض ، وهب بن منبه وأبي عبد الله الخواص وغيرهم ، والأفضل أن يقوم بعض الليل وينام بعضه على قدر استطاعته وعلى شرط ألا يعوقه ذلك عن عمله بالنهار (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)
ومما يدل على فضيلة الذكر ، وأنه باب الوصول ، وطريق الرضا والقبول ماورد فيه من الآيات والأحاديث قال تعالى : (فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)
وقال : (فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ)
وقال : « فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا »
وقال : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » وقال :
(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ) قال ابن عباس رضى الله عنهما أى بالليل والنهار ، في البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ؛ والسر والعلانية ، وقال تعالى : (وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ، بِالْفُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ

الغافلين) وقال تعالى: (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) قال ابن عباس رضي الله عنهما: له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه، والآخر أن ذكر الله تعالى أعظم من كل عبادة سواه، ومن الأحاديث قوله ﷺ يقول الله عز وجل: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي، وقوله ﷺ: من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل، وقوله ﷺ: يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملائكته في ملائكته من ملئته، وإذا قرب مني شبرا قربت منه ذراعا وإذا قرب مني ذراعا قربت منه باعا، وإذا مشى إلى هرولت إليه وقوله ﷺ: سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: من جلتهم ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله وقوله ﷺ قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين. وقوله ﷺ: ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله عز وجل إلا حنت بهم الملائكة وغشينهم الرحمة. وذكروهم الله تعالى فيمن عنده. وقوله ﷺ ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفورا لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات وقوله ﷺ: أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وقوله ﷺ: من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة وسئل رسول الله ﷺ أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال إذا كرون الله كثيرا

كل هذا وغيره مما ورد في فضل الذكر والتذكر إنما هو في الذكر بحشية واستحضار وفهم المعنى، لأن في الذكر باللسان دون القلب، قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وليس الذكر حرفة من الحرف، إنما هو عبادة من العبادات، لا تشغل التذكر عن السعي لرزقه، والكسب للحصول على عيشه، فافعله بعض الناس من الانقطاع للذكر بالليل والنوم بالنهار ثم يعيشون حالة على غيرهم. ليس من الدين وفاعله آثم متى كان قادراً على العمل، يستطيع الكسب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ)، ثم قال جل شأنه (وَسَبِّحُوهُ) وسبحوا الله تعالى وفسدوه ونزهوه عما لا يليق به (بُكْرَةً) أول النهار (وَأَصِيلًا) آخر النهار، والمراد كل أوقاتهم واختص طرفي النهار بالذكر ليبدأ عمله بذكر الله ويختمه بذكر الله ولأن هذين الوقتين من أوقات الانشغال بالدينا والمراد بالتسبيح كل ما يشمل التنزيه من دعاء واستغفار وتوبة وقول سبحان الله، وكل ذلك داخل في ذكر الله في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا اللَّهَ) وإنما ذكره بعده لين فضل التسبيح والذكر في هذين الوقتين أول النهار وآخره، والمراد بالتسبيح الصلاة، والصلاة ذكر وأفردها لبيان فضلها وإكمال شرفها، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتجعل الإنسان ملكاً طاهراً، وروى عن قتادة

رضي الله عنه في قوله : (وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) قال : صلاة الصبح وصلاة العصر ، وما ورد في ألفاظ التسبيح قوله ﷺ : لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ؛ وقوله : أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقوله : كلتان خفيقتان علي اللسان ، قهيتان في اليزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، ولما أمر بالذكر والتسبيح ناسب أن يذكر جزاء الذين يركنوا إلى التسبيح فقال جل شأنه : (هُوَ) الله (الَّذِي) بفضله وإحسانه (يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ) يرحمكم ، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة (وَمَلَائِكَتُهُ) يصلون عليكم يستغفرون لكم ، فهي من الملائكة بمعنى الاستغفار ومن المؤمنين بمعنى الدعاء ، وهذه الصلاة من الله ومن الملائكة عليكم (لِيُخْرِجَكُمْ) الله بها (مِنَ الظُّلُمَاتِ) من من ظلمات الجهل ، أو من ظلمات المعاصي (إِلَى النُّورِ) نور العلم أو نور الطاعة والإيمان وعمل الصالحات ، هذا بالنسبة لمن أذنبوا أما الذين تقدمت صفاتهم في قوله إن المسلمين فالعنى بالنسبة لهم ليديم إخراجكم من الظلمات إلى النور أي ليديم إيمانكم ويزيدكم نوراً على نوركم ، وسبب نزول آية (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ) إلخ ما روى عن مجاهد رضي الله عنه قال : لما نزلت (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) قال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله ما نزل الله عليك

خيراً إلا أشر كنا فيه فذرات (هُوَ الَّذِي يَصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ
 ثُمَّ يَنْسُجُ سَبْعَانَهُ وَتَعَالَى مَزِيدُ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ
 جَلَّ شَأْنُهُ (وَكَانَ) اللَّهُ تَعَالَى (بِالْمُؤْمِنِينَ) بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَمَلَائِكَتِهِ
 وَكِتَابِهِ (رَحِيماً) فَقَدْ وَفَّقَهُمْ فَعْمَلُوا فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا بِالصَّلَاةِ
 عَلَيْهِمْ مِنْهُ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، وَمَقَامٌ
 كَرِيمٌ بَيْنَهُ يَقُولُهُ: (تَحِيَّتُهُمْ) الْحُجَّةُ. وَذَلِكَ مَتْنُهُ الرَّحْمَةُ (تَحِيَّتُهُمْ)
 تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ (يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ يَلْقَوْنَ
 رَبَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ (سَلَامٌ) تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ السَّلَامُ، وَقِيلَ تَحِيَّتُهُمْ مَعْنَاهُ
 تَحِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ فِيهَا سَلَامٌ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ مَرْحَباً بِعِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَرْضَوْنِي فِي
 دَارِ الدُّنْيَا بِاتِّبَاعِ أَمْرِي، وَقِيلَ تَحِيَّتُهُمْ مَعْنَاهُ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ
 يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ سَلَامٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ
 مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) ثُمَّ يَنْبَغِي
 بَقِيَّةُ جَزَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُ لَيْسَ دُخُولُ الْجَنَّةِ وَالتَّحِيَّةُ فَقَطْ بَلْ
 (وَأَعَدَّ) اللَّهُ تَعَالَى لَهُوْلَاءَ الْمُؤْمِنِينَ (أَجْراً) عَظِيماً (كَرِيماً) حَسَناً،
 نَوَابِغاً لَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْأَجْرَ الْكَرِيمَ فِي آيَاتٍ
 كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
 مَا تَدْعُونَ) وَقَوْلِهِ: (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ،

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ، وَفِيهَا مَا تَشْتَبِهُونَ
الْأَنْسُ وَتِلْكَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا غَالُونَ) فهذا هو الأجر الكريم
العظيم لمن أطاع ربه ، ولقى به قلب سليم ، ولما أمرهم بالذكر الكثير ،
وبين أنه أعد لهم الأجر الكريم منهم على الاحتفاظ بذلك يشهد لهم
الرسول الكريم بأنهم أهل لجواره ودخول داره مع النعم عليهم من
الطيبين والصديقين والشهداء والصالحين فقال جل شأنه (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)
الْمُخْتَارُ (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ) إِلَى النَّاسِ كَلْفَةَ عَرَبًا وَعَجَبًا يَضَا وَحَمَرًا وَصَفْرًا
(شَاهِدًا) تشهد عليهم بأنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ، وتركت
فيهم ما إن تمسكوا به لن يضلوا كتاب الله تعالى وستتلك المباركة وأهل
بيتك الطاهرين ، وصحابتك الأكرمين والعلماء المرشدين ، فمن اتبع
واهتدى كان معك في الجنة ، ومن خالف وعصى حرم ذلك الخير العظيم
وأدخل الجحيم « وَمُبَشِّرًا » وأرسلناك مبشرا للناس بالجنة لمن أطاع
وعمل الصالحات « وَنَذِيرًا » ينذر الكافرين والعاصين بالنار « وَدَاعِيًا »
إِلَى اللَّهِ « تعالى تطالبهم بتوحيده وتهديسه وإفراده بالعبودية وترك
الاشراك بكل أنواعه ، وتطالبهم بطاعته وعبادته بأمر به ونهى عنه
في كتابه الكريم وشرعه القويم الذي تبينه لهم وتدلهم عليه « بِإِذْنِهِ »
متعلق بدواعي والمعنى تدعو إلى دين الله تعالى بتيسيره وتسهيله وتوفيقه
وإعانتة قوله (بِإِذْنِهِ) يدل على ما صاده الرسول ﷺ في سبيل
دعوته من عناد الباطلين ، ومقاومة للكاذبين ، من قريش واليهود

وغيرهم (وَسِرَاجًا) تستضيء بك القلوب ، وتستنير بهديك النفوس
وتشرق بهاء الدين وجمال الخلق والخلق على قومك وغير قومك ،
ثم وصف السراج بقوله : (مُنِيرًا) أى دائم النور والاشراق ،
لأن من السراج ما يقل ضوءه ، لضعف مادته ، وصفة الاضاءة ،
ملازمة له فى حياته وبعد وفاته ، لبقاء شرعه الكريم وذينه القويم
ظاهراً إلى يوم الدين ولما كان قوله : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) فى
حكم الأمر ، فالعنى كن مرسلًا شاهدًا إلخ عطف عليه قوله : (وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ) الصادقين زيادة على أن بشرتهم بالجنة ، بشرهم (بِأَنَّهُمْ)
جزاء على طاعتهم وصالح أعمالهم (مِنَ اللَّهِ) تعالى ، من عنده ، ومن
نعمائه ، ومن حسناته (فَضْلًا) عطاه (كَبِيرًا) جزيلا عظيما ينالونه
يوم القيامة بعد دخولهم فى الجنة وهو كل ما يشاءون ويشتهون عند
ربهم كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فى رَوْضَاتِ
الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) ،
وعن الحسن قال : لما نزل قوله تعالى : (لِيَفْرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ
ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) قالوا يا رسول الله : قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل
بنا فأنزل الله تعالى (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا
كَبِيرًا) ويحتمل أن هذا الفضل الكبير فى الدنيا والآخرة لافى الآخرة
فقط ، ويكون المراد به فى الدنيا أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم أتباع

خير خلق الله ، وأنهم الأمة الوسط العدول الذين سيكونون يوم
القيامة شهداء على الناس ويكون رسول الله عليهم شهيداً ، وأنهم أهل دين
هو خير الأديان وختامها ، وفيه كل ما يحتاج إليه الخلق في معاشهم
ومعادهم ، وأنهم الأمة التي رفع الله عنها الخسف والصبيحة ، وما كان
ينزل بالأمم السابقة تحقيقاً لوعده في قوله : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنْتَ فِيهِمْ) (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ) ولما بين حاله ﷺ مع المؤمنين ناسب أن يبين حاله مع
الكافرين فقال جل شأنه : ادع إلى الله وبشر المؤمنين (وَلَا تُطِيعِ
وَدْمَ عَلَى هَرِ الْكَافِرِينَ وَبِذْ كَلَامِهِمْ ، وَمُخَالَفَةِ أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ الَّتِي
تَنَاقَى دِينُكَ وَدَعْوَتُكَ) (وَالْمُنَافِقِينَ) وَلَا تَطْعِ الْمُنَافِقِينَ إِنْ أَشَارُوا بِرَأْيٍ ،
أَوْ أَدَلُّوا بِمَشُورَةٍ . فَانْهَمِ الْكَافِرِينَ (يَرْيَدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ) دَعْمُ أَنْوَفِهِمْ ، وَمَا يَكِيدُونَ ، وَالنَّهْيُ
عَنِ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي أَنْ الْمَنْهَى قَدْ فَعَلَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : (لَقَدْ
جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ) فَهُوَ ﷺ لَمْ يَقْعُ مِنْهُ
شَكٌّ فِي الْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُ مِنْ رَبِّهِ ، وَلَمْ يَقْعُ مِنْهُ تَكْذِيبٌ ، وَحَالُ أَنْ
يَكُونَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ عَصَمَهُ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا مُبَارَكًا ، وَكَانَ الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ
يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أُمُورًا يَبْغُونَ بِهَا أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ تَزِينُ ، وَلَهُمْ مِنْهُ نَصِيبٌ فِي

الحكم والأمر ، إلى غير ذلك من المقاصد التي قد يكون ظاهرها الخير وهي كل الشر ، فهي الله تعالى نبيه عن أن يطيعهم في شيء وهو لم يطعمهم من قبل هذا انتهى في شيء ، (وَأَقْنَهُ يُعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) ، (وَدَعْ) وانترك (أَذَانُ) ولا تحفل بما ينالك من الأذى بأيديهم وألسنتهم ومكرهم وكيدهم ، وسر في طريق دعوتك غير مبال بما يؤذونك به ولو كان شديدا ، فإن النصر لك ، والظفر والنعمة لك (وَتَوَكَّلْ) في كل أمورك وفي دعوتك (عَلَى اللَّهِ) تعالى وحده ولا تنظر إلى مام فيه من عز وجاه ، وعدد وعدة (كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) فاعتمد في كل شيء على الله (وَكَفَى بِاللَّهِ) تعالى (وَكَفِيلًا) تسكل إليه أمورك وتعتمد عليه في كل أحوالك (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وإذا كان الأذى عس الدين ويضر المسلمين ، وجب ردهم وصددهم وقتالهم ، لقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ قُدْرًا) ، وهذه الآية تصف الرسول بما وصفته به التوراة فقد روى عن عطية بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : بأنها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للمؤمنين ، أنت عهدي ورسولي سميتك

للتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعيننا عميا ، وآذاننا صما ، وقلوبنا غلغاها

وقد ورد في القرآن هذا الوصف وزيادة ، فقوله تعالى : (وَمَا أَوْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقوله : (وَلَئِنَّكَ لَمَلِي خُلُقٍ عَظِيمٍ) فهما كل صفات الجلال والكمال ومعالي الأخلاق والخلال ، ويدل على أنه ﷺ أوفى ما لم يؤت غيره من الأنبياء قوله تعالى (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

ولما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالدعوة إلى الله ، وتبليغ شرعه الشريف معتمداً على الله ، غير مبال بأعداء الله ، شرع بين بعض أحكام الدين فيما يتعلق بالمؤمنين والمؤمنات ، وبه ﷺ وأزواجه الطاهرات فقال جل شأنه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وصدقوا الله تعالى ورسوله ﷺ (إِذَا أَنْكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) إذا عقدتم عقد النكاح على المؤمنات ، أو الكتانيات (ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ) لعنن من الأعداء عقب العقد أو بعده بعتة قصرت أو طالت ، وكان هذا الطلاق (مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ) من قبل أن يجامعوهن (فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ) وهي أيام يتربصن فيها بأقسهن (تَعْتَدُونَهَا) تستوفون عددها ، وذلك لتظهر براءة الرحم بالعدة فلا يكون على الزوج حق ولا تبعة ، ولتلك أفضت الآية أن

العدة من حق الرجال لأنها لصيانة ماثمهم والأنسب الراجعة إليهم،
وتخصيص المؤمنات في قوله (نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) مع عموم الحكم
للكتائيات للتنبية على أن المؤمن ينبغي له أن يتخير المؤمنات لزواجه
ولا يتزوج إلا مؤمنة، وإن حل له أن يتزوج الكتائية ، إلا أن
المؤمنة خير له وأحق أن يقدمها على الكتائية لقوله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) فإيفله بغض الشبان للتعليمين
من الزوج بالكتائية وهم يتعلمون في بلاد الغرب غير الأفضل إلا
إذا قصد بهذا الزواج العفة والصيانة من ارتكاب جريمة الزنى ، أما
إذا أمن ذلك فالمؤمنة خير له في حياته وعيشته وذريته ودينه ، وقوله
« إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ » يفيد أن الطلاق لا يملك
إلا بالعقد ، فمن قال كل امرأة أتزوجها طالق ، أو إذا تزوجت فلانة فهي
طالق ، لا يقع طلاقه لأنه لا يملك العصمة بغير العقد وهو قول الشافعي ،
وقيل يقع وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف وزفر ومحمد ، لأنه علق
الطلاق على العقد وقد وجد العقد فيقع الطلاق ويكون الوقوع بعد
العقد ، فلا ينال الآية ؛ وقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ » يفيد أن التي
عقد عليها ولم يمسه لا عدة عليها إذا طلقها ولو خلا بها وهو قول الشافعي ،
وقيل عليها العدة إذا خلا بها وهو قول أبي حنيفة وأحمد ، فالشافعي
لا يوجب العدة إلا بالوطء ، وهما يوجبان العدة بالخلوة كأن ينلق عليها
بالأو يلقى دونها سترًا ، فالخلوة كالوطء عندهما ، ويكون المس كناية

عن الخلوة التي تقضى إلى المس ، ثم قال « فَمَتَّعُوهُنَّ » فأعطوهن المتعة وهي ما تستتر به عند الخروج من الكسوة الظاهرة والباطنة التي تليق بثقلها من أهل بلدها ، وحكم المتعة أنها واجبة إذا تزوجها بغير صداق وطلقها قبل الدخول ، وليس لها إلا المتعة ، ومستحبة إذا فرض لها مهرأ وطلقها قبل الدخول فلهما نصف المهر ولا تجب المتعة ، والمتعة تعتبر بحال الزوجين ، فإن كانا غنيين فلها الأعلى من الكسوة ، وإن كانا فقيرين فلها الأدنى ، وإن اختلفا فلها الأوسط ، وقيل فيمن طلقها قبل الدخول ولم يسم لها صداقا إن لها مثل نصف صداقها ولا تجب للمتعة بل تكون مستحبة ثم قال . « وَسَرَّحُوهُنَّ » وأخرجوهن من منازلكن ، فانه لاعددة لكم عليهن « سَرَّاحًا جَيِّلًا » مصحوبا باظهار العطف والرحمة من غير أن تؤذوهن بكلام أو غيره مما ينفّر النفوس ويغير القلوب « فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » والخير أبقى والاحسان باب الود « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَعْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّاتِ تَبَيَّنَتْ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ

يَسْتَنْكِحُهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

بعد أن بين الله تعالى الحكم الخاص بالطلاق بعد العقد وقبل
الدخول في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ
مِمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ
تَعْتَدُوهُنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) ناسب أن يذكر
الأحكام الخاصة بزواجه ﷺ وأن الله تعالى اختصه بمزايا ليست لكل
مؤمن في زواجه ، لأن ذلك الزواج قد ترتب عليه كثير من الحكم
التي دلت على أنه زواج قصد به وجه الله تعالى من تقوية شأن الدين ،
وشوكة المسلمين ، وإظهار شعار الإسلام ، ونشر تعاليم الشرع الشريف
ومبانيه شرف أزواجه الطاهرات ورفع درجاتهن ونسبتهن وتطهيرهن
(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا) فقال جل شأنه : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ) الخ
والآية نزلت في أم هاني بنت أبي طالب رضي الله عنها ، فقد روى عن أبي
صالح مولى أم هاني قال : خطب رسول الله ﷺ أم هاني بنت أبي
طالب فقالت يا رسول الله إني مؤمنة وبني صغار ، فلما أدرك بنو هاجر منته عليه
نفسها ، فقال أما الآن فلا ، إن الله تعالى أنزل علي (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا

لَكَ أَزْوَاجَكَ) إلى قوله (هَاجِرَنَ مَعَكَ) ولم تكن من المهاجرات ،
وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضى الله عنها قالت خطبني رسول الله
ﷺ فاعتذرت إليه فعذرنى ، فَأَنزَلَ اللَّهُ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ
أَزْوَاجَكَ) إلى قوله (هَاجِرَنَ مَعَكَ) قالت فلم أكن أحل له لأنى لم
أهاجر معه ، كنت من الطلقاء . وتفسير هذه الآيات سيكشف عن
الحكم الباهرة ، والأسباب للمقولة ، فى اختصاصه ﷺ بما اختص
به من زواج أكثر من أربع ، والجمع بين التسع اللاتى توفى عنهن ، بمعده
من المطاعن أو تلك الجاهلون الضالون المكذبون ، وهو عين الحكمة
ونفس الصواب لو كانوا يفقهون ، ولكن الله تعالى يقول (مَنْ يَهْدِ
اللَّهُ فَبِهِ الْهَيْدَى ، وَمَنْ يَضِلْ فَلَا يُثْقَرُ) فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) قال سيدنا
أبو بكر رضى الله عنه قد انتظامت الآية ضروب النكاح التى أباحه
الله تعالى لنبىه ﷺ ، وقوله حق وصدق وإليك البيان : قَالَ تَعَالَى
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) المصطفى والحبيب المحببى ، والأمين على وحى السماء
(إِنَّا) نشرعاً لك ولنيرك من أمتك التى تشرفت بك (أَحْلَلْنَا)
وأبجنا لك أن تزوج (أَزْوَاجَكَ) اللاتى سيكن لك زوجات ،
أبجنا لك أن تزوج (اللَّاتِى آتَيْتَ) أعطينهن (أَجُورَهُنَّ) مهورهن ،
وقد كلن مهرهن ثلثتى عشرة أوقية ونصف أوقية ، وذلك خمسمائة درهم ،
إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فانه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله تعالى
أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فانه اصطفاها لنفسه من سبي خيبر

ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث
المصطلقية كانت من سبايا بني المصطلق فوقعت في سهم ثابت بن قيس
ابن شماس فكانت به على نفسها أن تعطيه مالا وتمتق ، فأدى عنها النبي
ﷺ كتابتها وتزوجها ، رضى الله عنهن أجمعين . فهذا هو الصنف
الأول وهن اللاتي تزوجن بمهر مسمى وأعطاهن فأولئك حل لهن ،
ومثله ﷺ في ذلك غيره من أمته ، فمن أوفى شروط عقد النكاح
وأعطى المهر حلت له من عقد عليها ، روى عن مجاهد في قوله :
(أَزْوَاجُكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ) قال صدقتهن ، والصنف الثاني
من أحل الله تعالى دل عليه قوله « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ » واللاتي
يصرن إليك بملك اليمين « مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ » مما أوصار الله تعالى
إليك من الكفار بالسبي وغيره مثل مارية القبطية وريحانة وصفية
وجويرية ، وكلهن أسلمن ، فأما مارية وريحانة فبقيتا ملك يمينه ﷺ حتى
ماتتا رضى الله عنهما . وأما صفية وجويرية فقد أعتقهما وتزوجها ،
وكن مما آفاه الله عليه من الغنيمة إلا مارية فقد أهديت إليه من المقوقس
ملك مصر ولذلك يحمل لغيره صلى الله عليه وآله وسلم من المؤمنين أن
ينكح بملك اليمين من السبي .

والصنف الثالث مما أحل الله تعالى دل عليه بقوله « وَبَنَاتِ عَمِّكَ
وَبَنَاتِ أَخِيكَ » أفرد في العم وجمع في العمات للتنويع كما في قوله :
« عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّامِلِ » وقوله : « يُخْرِجُهُم مِّنَ السُّلُومَاتِ إِلَى النُّورِ »

وكذلك قوله : « وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ » والمعنى وأحللنا لك أن تزوج بالمهر بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك « اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ » وخصهن بالذكر مع دخولهن في اللاتي آتاهن أجورهن تشريفاً لهن بالمجرة ، وقوله آتيت أجورهن وقوله مما آفاه الله عليك ، وقوله اللاتي هاجرن معك ، لبيان الأفضلية وليست قيوداً تدل على تحريم غيرهن ، فيصح نكاح من لم يسلم لها مهرًا ولها مهر المثل ، ونكاح من ملكها بالشراء ، ونكاح غير المهاجرات غير أن الأفضل نكاح من سمى لها مهرًا ، ومن ملكها بالحرب ، ومن كانت من المهاجرات ، والسيدة أم هانئ رضي الله عنها فهمت أن المجرة شرط ولذلك قالت : فلم أكن أحل له لأنني لم أهاجر معه كنت من الطالقة ، وهذه الأصناف تحل لغيره عليه السلام من المؤمنين فالرجل أن يزوج ابنة عمه وعمته وخاله وخالته متى استوفى شروط الزواج ، والصنف الرابع بما أحل الله تعالى وهو ما اختص الله به نبيه صلى الله عليه وسلم وليس لكل مؤمن ، ما دل عليه بقوله « وَأَمْرَأَةً » وأحللناك امرأة « مُؤْمِنَةً » تريد التشرف بك « إِنْ وَهَبَتْ قَسَبًا لِلنَّبِيِّ » صلى الله عليه وسلم بنير صدق ، فيحل له زواجها بشرط أن يريد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ويرضى به ، فالهبة وحدها لا تكفي ، ولذلك قال : « إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ » صلى الله عليه وسلم « أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا » أن يطلب زواجها ، فارادته زواجها جارية مجرى القبول ، ثم بين أن هذا الصنف خاص به صلى الله عليه وسلم فقال « خَالِصَةً لَكَ »

قد خُص لك هذا الصنف خالصة أى خلوصاً ، وهو الزواج بلفظ الهبة من غير صداق ومن غير ولى ومن غير شهود ، خُصصت به « من دون المؤمنين » فليس لمؤمن أن يتزوج بلفظ الهبة من غير مهر ولا ولى ولا شهود ، فهذه خصوصية له ﷺ دون سائر المؤمنين ، وقال الامام أبو حنيفة يصح الزواج بلفظ الهبة ، ولها ما مى من المهر وإن لم يسم شيئاً فلها مهر المثل ، وقال الامام مالك الهبة لا تحل لأحد بعد النبي ﷺ ، وقال الامام الشافعى لا يصح بلفظ الهبة ، وهو مذهب الامام أحمد ، وعن الامام مالك أنه قال يتمد الزواج بلفظ الهبة إذا ذكر المهر ، وصريح الآية أنه خصوصية له ﷺ فلا يصح بلفظ الهبة لغيره عليه الصلاة والسلام ، قاله سبحانه وتعالى بين الأفضل فلا أفضل فالزوجة التي أوتيت مهرها أطيب من التي لم توتّه ، والملوكة من طريق السبي أطهر من التي اشتريت ، ومن هاجرت خير ممن لم تهاجر ، وآخر المراتب من وهبت نفسها ، ولذلك لم يتزوج النبي ﷺ واهبة نفسها وإن كانت تحل له ، أخرج ابن سعد عن ابن أبي عون أن ليلى بنت الحطيم ، وهبت نفسها للنبي ﷺ ، ووهبن نساء أنفسهن فلم نسمع أن النبي ﷺ قبل منهن إحداهن ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ، وقد وهبت أم شريك بنت جابر نفسها للنبي ﷺ فالتقها قبل أن يدخل بها وكذلك خولة بنت حكيم فأرضاها وتزوجها عثمان بن مظعون بإذنه عليه الصلاة والسلام ، وقيل إنه تزوج من الواهبة نفسها فقال الشعبي

وغيره هي زينب بنت خزيمة الأنصارية الهاشمية أم السالكين رضي عنها وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته، وقال ابن شهاب وقتادة : ميمونة بنت الحارث هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى (وَأَمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) الآية والصحيح أنه • تزوجها ولم تهب نفسها، وقوله (مُؤْمِنَةً) يدل على أنه ﷺ لم يزوج كافرة، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى (وَأَزْوَاجُهُ أَمْهَاتُهُمْ) فإن الكافرة لا يجوز أن تكون أم المؤمنين، وقد قال ﷺ سألت ربي ألا أزوج إلا من كل معي في الجنة فأعطاني، وأما التسري بالكفرة فجائز وقد تسرى ربحانة بنت شمعون وكانت يهودية من سبي قريظة وقد أسلمت رضي الله عنها وكذلك مارية القبطية رضي الله عنها ومن خصائصه ﷺ أنه لم ينكح أمة ولو مسلمة، لأن نكاحها خلوف العنت، وهو ﷺ معصوم، ولتقدان مهر الحرة، ونكاحه ﷺ غني عن المهر ابتداء وانتهاء، ولثلاثا يكون ولده رقيقاً، ومنصبه ﷺ منزله عن الرق، وعبر بلفظ النبي في قوله «لِلنَّبِيِّ» وقوله «إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ» للتعظيم وزيادة التكريم، وإشارة إلى أن النبوة هي مناط ثبوت الحكم فكانت خصوصية، كما يدل عليه قوله «خَالِصَةً لَّكَ» والمراد بينات عمه وبنات عماته بنات القرشيين وبنات القرشيات، فانه يقال للقرشيين قربوا أو بعدوا أعمامه صلى الله عليه وسلم، ويقال للقرشيات قرين أو بعدن عماته صلى الله عليه وسلم والمراد بينات خاله وبنات

بنالائه ، بنات بني زهرة ذكورهم وإنهم واللاتي تزوجهن من القرشيات
 منت وهن : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم
 سلمة ؛ ولم يتزوج من الزهريات أصلاً ، والمراد باحلال زواجهن مجرد
 الجواز وهو لا يستدعي الوقوع والحصول ، ثم شرع يؤكد أن ما اختصه
 به ﷺ من الزيادة على الأربع ، ومن جواز الهبة له ، ليس لأحد من
 المسلمين أن يفعله ، فقال عز وجل (قَدْ عَلِمْنَا) وما علم الله لا بد أن
 يكون علمنا (مَا فَرَضْنَا) ومنعنا وألزمنا وأوجبنا (عَلَيْهِمْ) على
 المؤمنين (في أَزْوَاجِهِمْ) من الشروط والأحكام ، من منع الزيادة عن
 أربع واشتراط العدل في الزيادة عن الواحدة ، ومن لزوم العقد بولي
 ومهر وشهود ، مما لم يفرض عليك مثله تكرمة لك ، وتوسيعاً عليك
 علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم من الشروط (وَمَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ) وما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من الاماء بشراء أو
 غيره مما ثبت ملك اليمين ، فرضنا عليهم أن تكون الأمة كتابية
 لا مجوسية ، وأن تكون ممن نحل لهم ، وأن ينكحوا ملشأوا من
 العدد ملك اليمين ، فرضنا على المؤمنين ، وحددنا لهم في الزواج. ووسعنا
 عليك فيه « لِكَلَّا يَكُونَ عَلَيْكَ » أيها النبي الكريم « حَرَجٌ »
 وحظر ، فجعلنا لك ما جعلنا لهم واختصصناك بما اختصاصناك به .
 لتسكون في فسحة من الأمر . ذلك لأنك تملك إربك وتعلق نفسك ،
 وتستطيع العدل والقسم بين أزواجك . وتنتظر إلى ما فيه رضا ربك .

وتستعين بهن على نشر دعوتك ، وبث دينك ، وتعاليمه القويمة ، أما
غيرك من المؤمنين فلا يستطيع ذلك ، لذلك اختصاصنا بما لم نبعه
لغيرك ، وقوله اكسلا متعلق بقوله (قَرَضْنَا) أو بقوله (أَخْلَلْنَا) ،
قال أبي بن كعب ومجاهد والحسن وقنادة وابن جرير في قوله : (قَدْ
عَلِمْنَا مَا قَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ) أى من حصرهم في أربع نسوة
حرائر ، وما شاء وامن الاماء ، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم
وم الأمة ، وقد رخصناك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه لكيلا
يكون عليك اھ . وقد علمت الحكمة من تخصيصه ﷺ بما لم يبعه
الله لغيره ، وإذا كان الله تعالى قد أحل له ما أحل ، وخصه بما خص من
الزواج فلا قيل ولا قال ، ولا لوم ولا اعتراض ، فليس بعد حكم الله
قول لقائل ، وليس مع أمره إنكار لنكر ، فإياك إذا كلت مع
حكم الله تلك الحكم التي بينها من نشر الدين وتعاليمه ، وتقوية الاسلام
 وإقامة دعائمه ، وصيانة أزواجه الطاهرات وتشریفهن به ﷺ ، مع
قيامه بالحقوق الزوجية من العدل والقسم وحسن العشرة ، ولكن إذا
عميت القلوب انطلقت الألسنة تتخبط على غير هدى (وَكَانَ اللَّهُ)
تعالى شأنه (غَفُوراً) كثير المغفرة ، يغفر ما يعسر التحرز منه كأب
يحدث المرء نفسه لم خص النبي ﷺ بأكثر من أربع ، ولم حل له ما لم
يحل لغيره ، إلى غير ذلك من الوسوس ، ويغفر ما سبق من الزواج على
غير ما فرض الله من نكاح الجاهلية (رَحِيماً) كثير الرحمة والرأفة ،

ومن رحمته أن بين لكم ما فرض عليكم ، وما خص به نبيه ﷺ ، مما اقتضته الحكمة وفيه الخير لكم ، وما اتشلكم به من أوساخ الجاهلية المهلكة ، وعاداتها السيئة (وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝ لَا يَحِلُّ لَكَ النَّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أصناف الأزواج التي تحل له ﷺ شرع بين حكم معاشرته ﷺ لنسائه ، وأنه تعالى أحل لنبيه ﷺ وجوه معاشرته لمن من غير إيجاب القسم بينهم وأنه يترك من شاء منهم ويؤوي إليه من شاء ، لأنه ﷺ بالنسبة لأمته كالسيد المطاع فأزواجه إذا قضى أمرأتهن كن له مطيعات ، ومع هذا التخيير

المطلق أرضاهن جميعاً وفارق الدنيا فكذلك بمن لفرافه عليه الصلاة والسلام وسبب نزول هذه الآية (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ) ما روى عن مجاهد قال : كان للنبي ﷺ تسع نسوة يخشين أن يطلقهن فأنزل يارسول الله : أقسم لنا من نفسك ومالك ما شئت ولا تطلقنا فأنزل الله تعالى (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) إلى آخر الآية ، والارجاء التأخير ، والايواء الضم ، وترجي وتؤوي خبران بمعنى الأمر ، فالمراد أرجي من شئت ، وعلى ذلك فالمعنى (تُرْجِي) تؤخر « مَنْ تَشَاءُ » أنت يا نبي الله (مِنْهُنَّ) من نسائك ، فلا تجتمع معها ، ولا تبنت عندها ، وتؤخرها عن نوبتها (وَتُؤْوِي) وتضم (إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) منهن في نوبتها وغير نوبتها ، أو المعنى تطلق من تشاء وتمسك من تشاء (وَمَنْ ابْتَغَيْتَ) وطلبت إيواها إليك (يَمْنُ عَزَلْتَ) ممن أرجأت وأخرت وتركت أو طلقت طلاقاً رجعياً (فَلَا جُنَاحَ) ولا حرج (عَلَيْكَ) في شيء من ذلك كله ، وهذه قسمة جامعة لكل الوجوه ، لأنه إما أن يطلق ، وإما أن يمسك ، وإذا أمسك قارب أو ترك ، وإذا قارب قسم أو لم يقسم ، وإذا طلق أو عزل ، فما أن يترك من طلق أو عزل ، وإما أن يراجع أو يضم وهو المقصود بالابتغاء في قوله : (وَمَنْ ابْتَغَيْتَ) فهذا تقويض مطلق وتخيير تام في أن يعاشرهن كيف شاء ، ومع هذا فقد سوى بينهن في

القسم إلا سودة رضي الله عنها فانها وهبت نوبتها للسيدة عائشة رضي الله عنها وقالت لرسول الله ﷺ لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نساءك فهو ﷺ السيد المطاع للطبوع على مكارم الأخلاق، شيمته العدل، ودأبه القسطاس المستقيم، قال الزهري: وما علمنا رسول الله ﷺ أرجأ منهن أحداً، ولقد آواهن كلهن حتى مات ﷺ، وقال قتادة: جعله الله في حل أن يدع من شاء منهن ويؤوى إليه من شاء يعني قميا، وكان رسول الله ﷺ قسم، وعن عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل، ويقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك، قال أبو داود يعني القلب. وعن هشام بن عروة عن أبيه. قال قالت عائشة: يابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم، من مكثه عندها، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ إلى التي هو يومها، فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وفرقت « وخافت » أن يفارقها رسول الله ﷺ يا رسول الله، يومى لعائشة، قبل ذلك رسول الله ﷺ منها، وروى عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم استأذن نساءه في مرضه أن يكون عند عائشة فأذن له، وهذا يدل على أنه كان يقسم لجميعهن إلا سودة فلها رخصت أن تجعل يومها لعائشة، وروى أنه كان صلى الله عليه وسلم يحمل في ثوب يطف به على نساءه وهو مريض يقسم بينهن، فلما ثقل عليه المرض استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها فأذن له، فهو

صلى الله عليه وسلم مع التخيير المطلق والتفويض التام في العشرة التي يراها مع أزواجه الطاهرات ، لم يترك القسم ينهن حتى في مرضه إلى أن تقل عليه المرض الذي توفي فيه ، وهذا نهاية العدل ، وإنه لأعظم مثل ضربه صلى الله عليه وسلم للرجال في معاملة النساء وعشرة النساء وإنه لغاية مكلوم الأُخلاق ، ونهاية الخشية من الله العزيز الحكيم . قال تعالى : (ذَلِكَ) التفويض المطلق من كل قيد ، وهذا التخيير

التام فيما نراه من عشرة نساءك ، وأنت قيد نفسك حتى في مرضك الأخير ، لعظيم خلقك ، وإكمال عدلك ، وكرم طبعك ، ذلك التفويض « أَأَدْنَى » وأقرب إلى « أَنْ تَقَرَّ » بسببه « أَعَيْنَهُ » ويمكن « سرورات راضيات ، ولك سامعات مطيعات ، وبك متعلقات » « وَلَا يَحْزَنُ » بسببك « وَيَرْضَيْنَ » منك « عَمَّا » بسبب ما « آتَيْنَهُنَّ » من نفسك وعدلك وكرمك « كُلُّهُنَّ » توكيد لضمير النسوة في يحزن ورضين ، فإن سويت ينهن وجدن ذلك فضلا منك لأن الله تعالى أحل لك أن تسوى وألا تسوى ، وإن رجحت بعضهن وهو مالم يقع علمن أنه بحكم الله تعالى قطعتن به قوسهن ، ثم عمم الخطاب للسيدات الطاهرات ولجميع المؤمنات والمؤمنات ، فقال عز وجل « وَاللَّهُ » تعالى « يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » أيها السيدات الطاهرات وأيها المؤمنون والمؤمنات ، فإذا رأيتم أن النبي ﷺ اختص بشيء أو أتى شيئا ، أو جعل له شيء فاعلموا أنه من ربه وأنه أوحى إليه ، وأنه

لا يزد ولا يصدر إلا عن وحى ، وأنه لحكمة أرادها الله العليم الحكيم
وأنه ﷺ أكمل الأنبياء جميعا لكمال بشريته ، وكمال روحيته ، ومن
آثار الكمال الاول تزوج مافوق الأربع وإحصائهم به ، وإيثارهم
إياه على كل من سواه ، وما منواه ، إلا الله . ومن آثار الكمال الثانى
ذلك الكمال الروحى للملائكى أنه كان كثيرا ما يبیت ويصبح ولا
يأكل ولا يشرب وهو فى غاية من القوة والنشاط ، وأن قلبه فى صحو
دائم تمام عيناه ولا ينام قلبه : وأنه أشجع الناس وأجود الناس وأوفى
من العلم ما لم يؤت غيره كما قال تعالى « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » إلى غير ذلك مما لم يكن لغيره
من الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام فلا تحدثوا أنفسكم بما يحبط
أعمالكم فى شأنه صلى الله عليه وسلم « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ولا تكونوا كالذين كفروا واعترضوا
وطعنوا فى مقام النبوة بكثرة تزوجه صلى الله عليه وسلم . وزعموا
أن هذا لغلبة الشهوة . وأنه من نفسه صلى الله عليه وسلم وليس من الله
منبعاته وتعالى الذى أنزل عليه آية « إِنَّا أَنحَلْنَاكَ » وآية « تُرْجَى
مِّنْ تَشَاءٍ مِنْهُنَّ وَتَوَّيَّ إِلَيْكَ مِّنْ تَشَاءٍ » فن هذا وما تقدم تعلم
بطلان دعواهم ثم قال جل شأنه (وَكَانَ اللَّهُ) جلّت قدرته (عَالِمًا) بكل
شيء ظاهر أو خفى . لا تخفى عليه خافية فى الارض ولا فى السماء وهو عليم

بذات الصدور، يعلم ما تسرون وما تعلنون. فاياكم وما خالك بالصدر وإياكم وما تحدثون به أنفسكم. من الخواطر السيئة والآراء الخاطئة وهو علم بما يناسب نبيه ﷺ وما يناسب غيره من المؤمنين فإذا خص نبيه بشيء فلحكمة يعلمها ولأن نبيه صلى الله عليه وسلم أوتي ما لم يؤت غيره من ضبط النفس. وقوة الإرادة. والصبر والناة وغير ذلك من الطباع الكريمة والخلال الشريفة فيبيح لنبيه ما لا يبيح لغيره من المؤمنين. وكان الله تعالى مع علمه التام (حلياً) كثير الحلم على عباده. فلا يجعل العقوبة ليكون هناك مجال يجده المؤمنون المذنبون للتوبة مما كان منهم ومن ذلك أن يقولوا أى قول لا يليق بمقامه العظيم عليه الصلاة وأتم التسليم.

ولما قوض الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم هذا التفويض المطلق في عشرة نساءه ورضين بما رضى الله ورسوله واختزن الله ورسوله والدار الآخرة على الدنيا وزينها. أكرمهن الله تعالى بقصر نبيه صلى الله عليه وسلم عليهن وألا يتزوج غيرهن فقال تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ). روى عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر ليستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً يباه لم يؤذن لأحد منهم، قال فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له فدخل، فوجد النبي ﷺ جالساً واجماً ساكتاً وحوله نساؤه، قال عمر: فقلت والله لا قولن شيئاً أمنحك به النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله: لورأيت بنت خازجة سألتني النفقة (وفي رواية لورأيت ابنة زيد وهي امرأة

عمر سألتني النفقة) فقامت إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي ﷺ، وقال من حولي كما ترى، يسألتني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يوماً عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده!! فهما رسول الله ﷺ عن هذا فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، وأنزل الله آية الخيار (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) قال فبدأ بعائشة فقال يا عائشة: إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تمجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن، ولما اخترن ذلك أنزل الله تعالى (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) ، فعن أنس رضي الله عنه قال: لما خيرهن فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال: (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ) لا يحل لك زواج النساء (من بعد) من بعدهن ولا التسع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) قال حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه، وعن عكرمة قال: لما خير رسول الله ﷺ أزواجه اخترن الله ورسوله فأنزل الله

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) من بعدهؤلاء التسع التي اخترتك ، فقد حرم عليك تزويج غيرهن اهـ . فلو ماتت واحدة لا يحل له زواج أخرى فقصره الله عليهن تكريماً وجزاء لمن طلى اختيارهن الله ورسوله ، وهن التسع اللاتي توفى عنهن : عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبي أمية ، وصفية بنت حيي بن أخطب الخيرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن ، ثم بين أنه لا يحل له أن يبدل بهن غيرهن فقال عز وجل (وَلَا) يحل لك (أَنْ تَبْدَلَ) أن تبدل وتستبدل (بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) بأن تطلقن أو بعضهن وتزوج بدل من طلقن ، فمن عبد الله بن شداد رضى الله عنه في قوله (وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) قال ذلك لو طلقن لم يحل له أن يستبدل ، وكان الاستبدال في الجاهلية أن يتنازل الرجل عن امرأته للآخر ويأخذ امرأة هذا الآخر وشيئاً من المال زيادة عليها تلقاه هذا التنازل ؛ فعن زيد بن أسلم رضى الله عنه في قوله (وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) قال كانوا في الجاهلية يقول الرجل للرجل الآخر وله امرأة جيلة : تبادل امرأتى بامرأتك وأزيدك ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل تنزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى ، فأنزل الله (وَلَا أَنْ تَبْدَلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ) وَلَوْ

أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) قَالَ فَدَخَلَ عَيْنَةَ ابْنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ عَائِشَةُ بِلاَ إِذْنٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ ااسْتِئْذَنْ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا اسْتَأْذَنْتَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْذُ أَدْرَكْتَ ، ثُمَّ قَالَ مِنْ هَذِهِ الْحِجْرَاءِ إِلَى جَنْبِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ أَفَلَا أَنْزَلَكَ عَنْ أَحْسَنِ الْخَلْقِ ؟ قَالَ يَا عَيْنَةُ إِنْ اللَّهُ حَرَّمَ ذَلِكَ ، فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : مِنْ هَذَا ، قَالَ الرَّسُولُ ﷺ هَذَا أَحَقُّ مَطْلَعٍ ، وَإِنَّهُ عَلَى مَا تَرَيْنَ لَسِيدٍ فِي قَوْمِهِ ، لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَسْتَبْدِلَ بِهِنَ أَزْوَاجًا أُخْرَيَاتٍ (وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ) حَسَنَ هَذِهِ الْأُخْرَيَاتِ اللَّاتِي تَأْتِي بِهِنَ بَدَلًا ، فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ سَائِرِ النِّسَاءِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سِوَى مَنْ كُنَّ زَوَاجَاتٍ لَهُ وَقَدْ تَزَوَّاهُنَّ ، وَقَدْ تَوَفَّى ﷺ عَنْ هَؤُلَاءِ التَّسْعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ غَيْرَهُنَّ وَلَمْ يُطْلَقْ مِنْهُنَّ ، ثُمَّ يَبِينُ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ فِي الْحَرَائِرِ أَمَّا الْإِمَاءُ فَفَكَ أَنْ تَأْخُذَ وَأَنْ تَتْرَكَ مِنْهُنَّ كَمَا تَشَاءُ فَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ (إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) إِلَّا الْإِمَاءُ ، فَفَكَ أَنْ تَبْقَى مِنْ نِسَاءِ مِنْهُنَّ وَأَنْ تَتْرَكَ مِنْ نِسَاءٍ ، وَهَذَا الْمَلِكُ بِالْيَمِينِ مِنْ طَرِيقِ النِّسَاءِ أَوْ مِنْ طَرِيقِ الشِّرَاءِ ، مُسَلِّمَةٌ كَانَتْ أَمْ كِتَابِيَّةٌ أَمْ مُشْرِكَةٌ ، وَلَكِنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَعْلُكَ الْيَمِينِ إِلَّا مَارِيَةُ الْقُبْطِيَّةُ وَرِيحَانَةُ وَقَدْ أَسْلَمَتَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا) حَفِظًا وَمَطْلَعًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ يَعْلَمُ الْحِكْمَةَ وَالنَّمْرَةَ فِي هَذَا الْحَظَرِ عَلَيْكَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَقَدْ أَبَاحَ لَهُمُ الطَّلَاقَ وَالِاسْتِبْدَالَ ، وَأَمَّا أَنْتَ

فلا يحل لك هذا نكريما لأمهات المؤمنين ، ولأنهن فيهن الكفاية
لارشاد المسلمين إلى ما عرفنه عنك من قواعد الدين ، ولتكون أنت
يارسول الله خالصا لله ، فلا يشغلك عنه شاغل ، فانه ما بقى لك من عمرك
إلا القليل ، والمؤمنون في حاجة شديدة إليك تؤدبهم وتربهم وتعلمهم
وتزكهم (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

عرفت مما سبق أصناف الأزواج اللاتي أحلهن الله تعالى لنبيه ﷺ
ولن آمن به واللاتي اختص بهن عليه الصلاة والسلام ، وأن جمعه لا أكثر
من أربع إنما هو بوحى ، وليس من تلقاه نفسه ، لقوله : (إِنَّا أَحْلَلْنَا
لَكَ أَزْوَاجَكَ) وقوله : (تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِمَّنْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن
تَشَاءُ) وعرفت أن الله تعالى قصره على السيدات التسع اللاتي نوفي
عنهن ، فلم يكن له أن يتزوج غيرهن ولو طلق ، مما يقطع بأن الأمر
من ربه ، ويجزم بعصمته وثبوت نبوته ، وأنه لا يأتي إلا عن وحى ،
ولا يترك إلا عن وحى (إِنَّهُوَ إِلَّا وَخِي يُوحَى) والآن أين لك
ما كان من فضل الاسلام على النساء ، وما أعطاهن من حرية وحقوق ،
وما من به عليهن من رعاية وصيانة ، وأن من هذه الحقوق ، وتلك
التي ، تمدد الزوجات ، فهو فضل عليهن ، وخير لهن ، وما كن الله
ليشرع لهن أو لغيرهن ، إلا ما هو خير ونعمة ، وفيه كل الحكمة ،
وهو العليم الخبير ؛ ثم أتكلم بعد ذلك على سيداتنا الطاهرات الكلمات
أمهات المؤمنين ، خير نساء العالمين ، وأبين الحكمة في زواجه ﷺ

بين وجمعه بين تسع منهن رضى الله عنهن ، قطعاً لألسنة الجورفين ،
وبياناً للكمال المطلق الذى ناله سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام .

١- ما كانت عليه المرأة قبل الاسلام وبعده

كانت النساء قبل الاسلام مهانات محقرات ، مستعبدات مسخرات
مملوكات غير مالكات ، حتى عند أهل الكتاب والديانات ، فلما أشرق
نور الاسلام ، وبزغت شمس رسالته عليه الصلاة والسلام ، انتشلن
من هذا الرق الأليم ، وحصلن على ذلك الفضل العظيم قال تعالى : (وَكُنْ
مِثْلُ النَّذِيِّ عَلَيْهِنَ بِالْحَرُوفِ) وقال : (وَحَاشِرُهُنَّ بِالْحَرُوفِ)
وقال : (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ
فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) وقال ﷺ : « ما أكرم النساء إلا كرم ، ولا
أهانهن إلا لثيم » وقال ﷺ : « أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً
والطفهم بأهله » وقال عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله »
وقال صلى الله عليه وسلم فى آخر حجة وهى حجة الوداع : « اتقوا الله
فى النساء » وإنى ذا كركك شيئاً مما كانت تمناه المرأة قبل الاسلام
جاء الاسلام وحررها منه .

١ - كانت تعامل معاملة المال فتورث رغم أنها كما يورث هذا
المال الجامد ، وكما يورث ذلك الحيوان الاعجم ، فهى الله تعالى عن
ذلك بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ

كَرَّهًا) فكان الرجل في الجاهلية إذا مات عن زوجته ، جاء ابنه من غيرها ، أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على هذه المرأة المسكينة المستعبدة وقال ورثت امرأته كما ورثت ماله ، فيصير أحق بها من نفسها ، ومن كل الناس ، فإن شاء تزوجها من غير صداق جديد ، وإن شاء زوجها من إنسان آخر وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيئاً رضيت بهذا الزواج أم لم ترض ، فنزلت هذه الآية محررة للمرأة من هذا المدوان الانيم ، وذلك الطغيان الكبير .

٢ -- فانت المرأة في الجاهلية تنكح نكاح المقت ونكاح الفاحشة بما يدل على الاغراق في الوحشية والهمجية ، فطهرها الله تعالى منها رحمة منه وفضلا ، فأما نكاح المقت فكان الولد إذا مات أبوه عن زوجة غير أمه ينكح زوجة أبيه من بعد موته فهي الله تعالى عن ذلك بقوله : (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) روى أنه لما توفي أبوقيس وكان من صالحى الانصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إني اتخذتك ولداً وأنت من صالحى قومك ولسكنى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأمره ، فأثته فأخبرته فأنزل الله عز وجل (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) وأما نكاح الفاحشة فكان الرجل يجمع بين الأختين ، فهي الله عن ذلك بقوله : (وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ)

٣ - كانت تعامل معاملة العبيد فتحبس وتهان حتى تقتدى نفسها بالمال ، فهي الله عن ذلك بقوله : (وَلَا تَمْضُلُوهُنَّ لِيَنْدَهِبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ) فكان الرجل إذا كره زوجته وأراد فراقها يسىء عشرتها ، ويضيق عليها ، ويضارها بالحبس والايذاء ، حتى تقتدى نفسها منه بالمال فيطلقها ، أو يفعل ذلك بعد الطلاق فيحبسها عن الزواج ويضارها حتى تقتدى نفسها منه بالمال فيطلق سراحها لتتزوج من غيره ، فزلت الآية ناهية عن هذا العمل الشنيع ، وذلك الأذى الشديد .

٤ - كان أولياء الأمور في الجاهلية يأخذون مهور النساء ، ولا يعطوهن شيئاً ، ظلماً وعدواناً ، فهي الله عن ذلك بقوله : (وَأَاتُوا النِّسَاءَ مَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً) أى أعطوهن مهورهن إعطاء حماً فريضة لمن من الله تعالى ، ولا تأخذوا منه شيئاً إلا عن طيب قس منهن (فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَمَا فَكُّوهُ هَنِئًا مَرِيئًا)

٥ - كان الرجل في الجاهلية يتزوج بأكثر من أربع يجمع بينهما فحرم الله الزيادة عن الأربع بقوله : (فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتْنً وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ ، فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) فجعل للرجل الزوج بأربع متى تحقق العدل في الجمع بينهما ، وإن خاف ألا يعدل فلا يتزوج إلا واحدة ، وقد روى أن غيلان ابن سلمة الثقفي أسلم وتحتة عشر نسوة ، فقال له النبي ﷺ : أمسك أربعاً وفارق سائرهن

وأن قيس بن الحارث الأسدي أسلم وعنده ثمانى نسوة فأمره النبي ﷺ أن يمسك أربعا ويفارق باقيهن ، وأن نوفلا بن معاوية الديلمي أسلم وفي عصمته خمس نسوة فقال له النبي ﷺ أمسك أربعا وفارق واحدة

٦ - كانت المرأة تحرم من الميراث فجعل الله تعالى لها نصيبا مفروضا فقال عز وجل : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) فكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الأطفال ، ويقولون إنما يرث من يحى النمل ، ويدافع عن الجار ، ويصد الكتيبة ، ويجوز الفتيمة

٧ - كانوا يحسبون المرأة شيطانة وليست إنسانة ، وعلى ذلك يفتونها ويحتقرونها ويعاملونها معاملة العدو اليهود فخرها القرآن الكريم من ذلك بقوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) وقال عز وجل : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) وقال جل شأنه (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) وقال كملت حكمته : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

٨ - كانت المرأة نكراه على الزواج ممن لا تحب ، كما كانت

تكره على البغاء ، فحرم الاسلام ذلك ، وجعل للمرأة الخيار في الزواج ممن تحب ، ومنع من إكراهها على البغاء . فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن) فقالوا يا رسول الله فكيف إذهابها قال : أن تسكت ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن جارية بكرراً أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرت أن أباه زوجها وهي كارهة فغيرها النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يسكرهون المرأة على البغاء ويأخذون الأجر على ذلك فحرم الله ذلك بقوله : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَنُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وقد نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول المنافق كانت له جارتان يقال لهما مسيكة ومعادة وكان يكرههما على الزنى لضريبة يأخذها منهما ، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم ، فلما جاء الاسلام قالت معادة لمسيكة إن هذا الأمر الذى نحن فيه لا يخلو من وجهين ، فإن يك خيراً ، فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً فقد آن لنا أن ندعه فأنزل الله هذه الآية . وقوله إن أردن تحصننا ، ليس شرطاً بل لبيان أنها أرادت ذلك كما يؤخذ من سبب النزول ، فلا كراه على البغاء محرم وإن لم يردن التحصين ، فاللعن إن أردن أم لم يردن فلا كراه على البغاء حرام مطلقاً .

٩ — كانوا لا يمدون المرأة أهلاً للاشتراك في المعابد الدينية ،

والمستديات الأهلية ، والمجتمعات الأدبية والسياسية ، وأن اللجنة خاصة بالرجال دون النساء ، فنزل القرآن باعطائها هذه الحقوق ، قال تعالى :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

لجعل لمن الصلاة في المسجد على اتصال ، وأباح لمن الحج ، وشهود الجمعة والجماعة ، مع الصيانة التامة واتباع الدين الخفيف في ذلك ، وكثيرات من المسلمات شهدن الفرو مع رسول الله ﷺ ، فكان يهين الطعام والشراب للمقاتلين ، ويداوين الجرحى ، ويقمن بالتمريض ، وكثيرا ما قن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحاججن في الدين ، روى سعيد بن منصور أبو يعلى بسند جيد عن مسروق أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى على النذر أن يزداد في الصداق على أربعائة درهم ، ثم نزل ، فأعرضته امرأة من قریش ، فقالت : أما سمعت الله يقول : (وَآتَيْتُمْ إِيَّاهُنَّ مِنْ طَعْنَارًا) فقال : اللهم غفرا كل الناس أفعه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر وقال : إني نهيتكم أن تزيدوا في منقنهن

على أربعائة درهم ، فن شاء أن يعطى من ماله ما أحب ، وكثير منهم
يقاتلون الكافرين في صفوف المسلمين في مبدأ الاسلام في حروب مسيلة
الكذاب وحروب الفرض والروم ، وفي واقعة اليرموك بدت الهزيمة
في صفوف المسلمين فمقد النساء خمرهن رايات ودفعن عمد الخيام ،
وسرن كمعد للمسلمين فأوقعن الرعب في قلوب الكافرين وكان النصر
بسببهن .

١٩ - كانوا يعدون البنات بدفنهن وهن على قيد الحياة فيقتلوهن
قتلا شنيعا ، خشية العار والاسترقاق والاملاق ، حرم الله ذلك بقوله
(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) وقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا
النَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وقوله : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ
خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت المرأة
في الجاهلية إذا حملت وكان أوان ولادتها حفرت حفرة فتمخضت على
رأس الحفيرة ، فان ولدت جارية رمت بها في الحفيرة ، وإذا ولدت
غلاما حبسته ، ويروى أن الرجل كان يأخذ بنته إذا شبت وقد زينها
وجملها وقد حفر لها بئرا في الصحراء فيجئ بها إلى هذا البئر فيقول
لها انظري فيها فإذا نظرت جاء من خلفها ودفعها فتقع في البئر ويهيل
عليها التراب حتى يستوى بالأرض

وقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقا أخرى . فقد جعل الله الجهاد
والتقتال على الرجال دون النساء فلم ينزل بالمسلمين الضرر فيجب عليهن

أن يدافعن مع المدافعين ، وجعل صلاة الجمعة والعيد على الرجال دون النساء ثلاثا يشغلن عن أولادهن ومنازلهن ، وجعل النفقة الزوجية على الرجال دون النساء لاشتغال الرجال بالكسب ، واشتغال النساء بتدبير المنازل ، وجعل نفقة أولادهن على الآباء دونهن لأن الرجال يعملون للكسب وهم يعملون لاقامة البيوت ، وجعل نفقة البنت على أبيها أو من تلزمه نفقتها عند هجر الأب أو موته مادامت غير متزوجة ، لأن الكسب ليس من شأنها ، وأباح الله تعالى تمدد الزوجات حتى يجد النساء من يحميهن ويحمين ويتفق عليهن ، والنساء أكثر عددا من الرجال ، فلو قصر الرجال على واحدة لبقى عدد عظيم بلا زواج وفي ذلك ما فيه من الضرر بهن وبأمنهن ، وأباح الله الطلاق في حدود الشرع حتى لا يكون في قباهن من غير طلاق على كره في العشرة وعلى مضض من الحياة مضار لا تحتمل ، وأوجب على الرجال صيانتهم وعشرتهم بالمعروف والعدل ينهن إن تعددن أو كانت واحدة

وجعل للرجال القوامة على النساء ، فقال عز وجل : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا آفَقُوا مِنَ أَمْرِ إِلَهُم) للأسباب الآتية :

١ - لأن الرجل أكمل عقلا ، وأوسع حيلة ، وأكثر صبرا ، وأقوى جسما من المرأة

٢ - لأن الرجل مهيا للحياة والعمل والمساكنة وتحمل المشاق

والمرأة دونه في كل ذلك ، لأنها مشغولة متعطلة أكثر وقتها بالحوض
والنفاس ، والحمل والوضع والرضاع والقطام والترية وتدير البيت فهي
محتاجة إلى الرجل ، ولا تؤدي وظيفتها بغيره ، لذلك جعله الله العليم
الحكيم قيا عليها

٣ - لأن الرجل مطالب بإعطاء المهر والقيام بالنفقة والكسوة
والسعى عليها وعلى أولادها ، لذلك جعل الله له الولاية على من ينفق
عليهن .

٤ - لأن الرجل اختص بأعباء كثيرة لا تستطيعها المرأة ، كالنبوة
والرسالة والخلافة ، والامامة والقضاء بين الناس ، والولاية في النكاح
والطلاق والرجعة والجمعة والخطبة والسفر وحده والجهاد والشهادة
في الحدود والقصاص ، خصه الله تعالى بذلك كله دون المرأة ، فكانت
له القوامه عليها

٥ - جعل الله تعالى للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى
أربع عند ضمان العدل دون للمرأة لقوة شكيمة الرجل واحتماله وبصبره
وثباته ، وسرعة انخداع المرأة وميلها وقرب تأثيرها ، وجزعها وضعفها
وعجزها وقلة حيلتها ، وكثرة قلبها ، ولأن ماء الرجل في أربع ينتج
ويأتين بأولاد معروف أبوم ، وأما مياه الرجال في واحدة يفسد بعضها
بعضاً فلا تلد ، وإن ولدت فلا يعرف له أب وفي ذلك ما فيه من فساد
نظام الحياة في الأمة ، وما يترتب عليه من الأمراض ، لذلك قدم الله
تعالى الرجل على المرأة وجعل له القوامه دونها

٦ - قد جعل الله للرجل ضعف نصيب المرأة في الميراث ، قال
(لِذَكَرٍ مِّثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) لما يقوم به الرجل من الحقوق
والواجبات الداخلية والخارجية منزلية وغير منزلية له ولأهله
ولوطنه فهو المكاف بالدفاع وحماية النفس والمال والافتقار والسعي
وما إلى ذلك ، والمرأة عبؤها على الرجل ، وتصرفاتها قد تكون سيئة
فاذا ساوت الرجل فقد تذهب بحال الأسرة إلى أجنبي عنها وهو زوجها.
هذا هو الغالب وإن كان في الرجال سيئو التصرف وفي النساء محسنات
التصرف ، وفي الرجال الكسالى وفي النساء العاملات ، إلا أن الشرع
الحكيم يراعى الغالب وما فيه المصلحة العامة لذلك كان للرجل القوامة
على المرأة .

٧ - جعل الله تعالى شهادة المرأة نصف شهادة الرجال ، قال
جل شأنه : (فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ
مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) لأن
المرأة سريعة الإقياد ، سريعة التأثر ، تتخدع بزخرف أقول ، وتلين
للحن الكلام ، وتميل مع الأهواء ، فجعل الله تعالى شهادتها نصف شهادة
الرجل خشية أن تضل لسبب من الأسباب ، نتذكرها أختها التي
تشهد معها ، مما يدل على أن القوامة ، إنما تكون للرجل لا للمرأة .

٨ - المرأة لا تسافر بغير محرم لها بخلاف الرجل ، قال ﷺ
لا تسافر امرأة مصيرة يومين ليس معها زوجها أو ذو محرم ، ذلك

لضعف المرأة والخوف عليها من الوقوع في حبال الشياطين من الانس
٩ - لا يجتلي بالمرأة بخلاف الرجل ، قال ﷺ : لا يخلون رجل
بامرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعهما محرم ، وقال عليه الصلاة والسلام
لا يخلو رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان ، ذلك لسرعة ميلها وانخداعها
وتأثرها فهي محتاجة إلى الزوج يحميها ، والزوج يحمي نفسه وزوجه ،
جعل الله له القوامه عليها

١٠ - جعل الله الرجل أمينا على المرأة وأوصاه بها خيرا ، قال
ﷺ : « اتقوا الله في النساء فانكم أخذتوهن بأمانة الله » وقال عليه
الصلاة والسلام « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » وقد خلق
الله المرأة من الرجل فالرجل أصل والمرأة فرع قال تعالى : (يَأْتِيهَا
النَّاسُ أَتَقُوتُ رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً) وقال عز وجل (هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)
وقال ﷺ : « كلكم لآدم وآدم من تراب » لهذا كله كان للرجل
القوامه على المرأة

وهذا هو العدل والحكمة وما يكون به نظام الحياة في الأسرة
والوطن ، ولا يوجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الأمم منذ
خلق الله الخلق أعطى النساء من الحقوق والعناية والكرامة والحفظ
والصيانة ما أعطاهن الاسلام ونبي الاسلام عليه الصلاة والسلام .

مفسرت الآيات وتكلمت على ما كان للمرأة قبل الاسلام بعده
وعلى حقوق الرجال ، وسأتكلم على مشروعية تعدد الزوجات وترجمة
كل سيدة من الأزواج الطاهرات ، فأقول وبالله أستعين :

مشروعية تعدد الزوجات

أباح الدين الاسلامي دين العقل والحكمة تعدد الزوجات وإنه
لنعمة للرجال والنساء متى كان في حدود الشرع ، وروعيت فيه العدالة
وأمن معه الليل والجور ، والخروج على ما قرره الشرع الشريف ،
وإنه لنقمة وأى قمة على الرجل والمرأة إن كان اقضاء الشهوة ولم تراع
فيه الحقوق ، وصحبه الظلم والجور ، وراقه الاجحاف والليل ، وهكذا
كل شيء قرره الشرع ، وشرعه الله وأمر به يكون خيراً ورحمة إن
أتى به العبد على وفق ما أمر الله ، ويكون قمة وشرّاً إن خالف فيه
أمر الله وأباح الشرع تعدد الزوجات لأسباب منها :

١ - لايجاد صلة النسب بين الرجل وأهل نسائه ، وأهل وأهلن
مما يقوى العصية ويكون سبباً في كثرة الأنصار والأعوان والقوة
والسلطان .

٢ - لكثرة النساء على الرجال ولا سيما عقب الحروب أو
الجوائح التي تحتاج الرجال دون النساء ، وترى للرجل ولداً واحداً وبنات
كثيرات ، أو ترى له البنات ولا أولاد له ، فأيسح للرجل التعدد رحمة
بهؤلاء النساء وميانة لهن .

٣ - لأن المرأة تبلغ سن اليأس متى بلغت الخمسين فلا تلد ، فلو قصر الرجل على واحدة لبقى مدة غير قصيرة من عمره من غير نسل يفيد ، ويفيد المسلمين ، والفرض المأمور من الزواج هو النسل . قال ﷺ : « تناكحوا تناسلوا فاني مباه بكم الام يوم القيامة »

٤ - لأن المرأة أغلب عمرها ضائع في الحيض والحمل والنفاس والرضاع ، وقد يكون الرجل شهوانياً فلما أن يقربها في حيضها أو قبلها فيضر نفسه ، أو يزني فغضب ربه ويضر نفسه وغيره ، فأبيح التعدد للخلاص من مثل هذه الحال ، ولتكون هناك فائدة وثمرة من غشيان الرجل امرأته وهي النسل ، فإن الحامل والمرضع والحائض والنفاس لا فائدة من غشيانها إلا قضاء الشهوة التي ضرره محقق مع الحائض والنفاس (وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ) .

٥ - لأن المرأة قد تكون عاقراً لا تلد ، أو مصابة بمرض مزمن أو بمرض معد ، أو بجنون أو غير ذلك مما لا تستقيم معه الحياة الزوجية فن الظلم قصر الرجل عليها في هذه الحال ، أو تكليفه أن يفارقها ولا طائل لها غيره ، فأبيح التعدد للخروج من هذا المأزق .

٦ - أباح الله التعدد للقضاء على تلك العادة الخبيثة عادة الزنى التي أصبحت مضارها واضحة ظاهرة يعرفها الصغير والكبير . ويتن من ويلاتها الحاكم والمحكوم ، وقد صنع من أدواتها الفرييون لمنعم من تعدد الزوجات ، ومن العجب أنهم يبيحون اختلاط النساء بالرجال ويحرمون التعدد ، فكان من هذا الاختلاط وذلك التحريم مصائب .

اجتماعية ومنزلية وشخصية أذهلتهم وحيرتهم ، فكتب كتابهم يعلنون أن إياحة التبعد هي الدواء للخلاص من هذا البلاء ، وتلك الازدراء .

٧ — من الناس من آتاه الله بسطة في الجسم وسعة في المال ، فأباح الله التعدد لتنتفع الأمة بمثل هذا في نسله ، فانه إذا تزوج أربعاً أتى منهم بأولاد يستطيع الاتحاق عليهم وتربيتهم أحسن تربية ، فلو منع التعدد لحرمت الأمة من مثل هذه الثمرة الطيبة ، ولكن هذا وأمثاله شراً على الأمة بذل أن يكونوا خيراً لها لأنهم في سعة من المال والقوة فلا يدأن يقضوا شهواتهم ، فلأن يقضوها في الحلال وفي فائدة الأمة خير وأولى من قضائها في الحرام وفي الاضرار بالأمة والله حكيم عليم

٨ — إذا كلن الرجل في سعة من المال والقوة وله امرأتان فأكثر وله منهن أولاد حرص على ماله وسعى في الكسب وعمل لحفظ كيان بيته أو ييوته ، أما إذا كانت له امرأة واحدة وبيت واحد فلا يهتم هذا الاهتمام فتتخسر الأمة سعيه وعمله وقد تخسره لكسله وعربدته ؛ وإن تحريم تعدد الزوجات عاد على من حرموه في بلادهم بمضار كثيرة منها ما سبق ومنها : —

(١) أنه يجعل الحياة الزوجية حياة أسر وجس واستعباد لكل من الزوج والزوجة إذا كان بينهما وفاق وفي المرأة أو الرجل ما يمنع من التمتع بها أو به ، أو أن أحدهما لا يصلح للنسل فيضطر أو تضطر إلى الزنى الذي فشت منه أمراض خبيثة في تلك البلاد حار فيها الطب علم ، قدمه وارقاته

(٢) أوجد كثيراً من النساء العانسات غير المتزوجات فاضطرورن للعمل مع الرجال ، وشاركهن في الأعمال فضيقن سبيل الحياة عليهن وعلى الرجال ، وكان من الاختلاط في العمل ما كان من الفساد والشر المستطير الذي نأث منه تلك الأمم .

(٣) حل كثيراً من الرجال والنساء علي اقتراف جريمة الزنى وخيانة كل من الزوج والزوجة صاحبه في أحوال كثيرة وحوادث عديدة امتلأت بها سجلات الشرطة والقضاء أتت من تحريم التعدد وتحريم الطلاق ، أما الاسلام فأباح التعدد وأباح الطلاق تخلصاً من هذه المخازى وتلك المضار ، ولم يبيح الشرع الشريف الزيادة علي الأربع في الجمع بينهما ، ليكون الزوج إلى العدل أقرب ، ومع هذا فهو لا يستطيع العدل التام في الجمع بين الأربع ولو حرص علي ذلك لقوله تعالى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ) ولم يبيح الشرع للمرأة أن تزوج أكثر من واحد لأنها لو كانت عند زوجين فأكثر . لفسد النظام وضاعت الأنساب ، وقتل الأزواج بعضهم بعضاً ، وعظمت البلية ، واشتدت الفتنة ، وفشت من ذلك الأمراض الخلقية والجسمية ، وكيف تستقيم حال امرأة فيها شركة متشاكسون ، وكيف تستقيم حال هؤلاء الشركاء فيها ، ومن الذي يقوم منهم بشأن الذرية إن وجدت ، والأرجح أنها لا توجد لفساد الحرث بهذا الاختلاط ، ونحن نرى الحوادث المؤلمة التي تحدث

لاشترائك رجلين أو أكثر في امرأة واحدة كل منهم يريد الأفراد
برفقتها على غير ما أمر الله ، هذا إلى تعطل كثير من النساء لو أيسح
للرأة أن تزوج بأكثر من واحد وفي ذلك ما فيه من الفساد الكبير ،
مع أن عدد النساء أكثر من عدد الرجال . فالشرع حكيم في أمره
حكيم في نهييه حكيم في إباحته حكيم في حظره (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَيِّنَاتٍ رَبِّكُمْ تُوفَّقُونَ)

وقد شدد القرآن الكريم ، والسنة النبوية على من تزوج بأكثر
من واحدة في وجوب العدل في القسم ، ومراعاة المساواة في كل شيء ،
عظم أو هان ، قل أو أكثر ، في النفقة ، في الكسوة ، في البيات ، في
البشاشة ، في كل الأمور ، حتى في الكلمة ، والنظرة والانتسامة وكل
ما يسر ، ولو كان لا يذكر ، قال تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا
بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ، فَتَذَرُوهَا
كَالْعُلَاقَةِ) وقال عز وجل : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) وقال
ﷺ : من كان له امرأتان فال إلى إحداها دون الأخرى جاء يوم
القيامة وأحدهما مائل ، وروى في الصحيح أن آخر ما أوصى به
النبي ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى جليج لسانه ونفى كلامه : الصلاة
الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوم مالا يطيقون ، الله الله في
النساء فانهن عوان (أسراء) في أيديكم ، أخذتوهن بأمانة الله ،
واستحلتم فروجهن بكلمة الله ، فالدين الاسلامي جعل التعدد متقلا

بشروط لا يستطيعها إلا من كل إيمانهم ، واستنارت قلوبهم ، وعظمت
 ثروتهم ، واشتدت قوتهم ، واستطاعوا مع ذلك كله العدل وعدم الميل
 الظاهر ، أما أولئك الذين أباحوا لأنفسهم التعدد ، وهم لا يملكون
 ما يقيم أودم ، ويسد حاجتهم ، أولئك الذين لا يريدون إلا قضاء
 شهواتهم ، ولو أضروا بغيرهم ، فقد أساءوا إلى أنفسهم وإلى دينهم واستحقوا
 غضب الله ومقته ، فقد أوقعوا في شر اكهم أرواحا عذبوها ، وأفسدوا
 أمانتها ، وأمرنا انهمكوها ، وأسرا آلوها ، واستخفوا بدينهم
 وأمنهم وبلادهم ، وأنوا أمرا إذا ، وارتكبوا إثمًا وجرمًا ، (أُولَئِكَ
 الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) ، أولئك الذين
 أفسحوا المجال للطعن على الاسلام في قوانينه وأحكامه ، ولو أنصف
 الطاعنون لثرثوا في حكمهم ، وحكموا على هؤلاء الظالمين ، لا على
 أحكام الدين ، فان أحكام الدين صريحة في أن التعدد مشروط بشروط
 لا يحل لمسلم أن يتخطاها ولا أن يتعداها ، (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
 فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) كيف يطعنون على الاسلام وهو لم يوجب
 التعدد وإنما أباحه وأباحه بشروط إن وجدت جاز وإن لم توجد لم يجز ،
 فلا بد أن يكون التعدد في حدود الشرع ، وفي سياج العدل والمساواة
 والرحمة والشفقة والخير ، وقد سار المسلمون وراء الفريقين في كثير
 من معتقداتهم ، وقلوبهم في أغلب أعمالهم ، ولو حرمها رب العالمين ،
 وصرح بتحريمها في كتابه المبين ، غرموا التعدد وأباحوا الاختلاط ،

وحرّموا الحجاب وأباحوا السفور ، بقول الله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يُعْرِضْنَ فَلَا يُوْذِينَ) ويقول في آية أخرى (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) وهن يقصرن جلابيبهن ويرفعن خمرهن ويظهرن شعورهن ومحاسنهن ويعصين الله ورسوله ، أصناف المسلمون الصيانة ، وحافظوا على الخروج إلى المرافق والملاهي بنسأهم وبناتهم ، وإلى شواطئ البحار ومواطن الممالك والدمار ، وانطبق عليهم قوله ﷺ : لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع (كناية عن شدة مواقة الكافرين في المحرمات) حتي لو سلكوا جعر ضب لسلكتموه ، قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال النبي ﷺ : فن ؟ يعني ليس المراد غير اليهود والنصارى ، متفقون آثارهم حتي لو دخلوا أرواً مكلن ضيق لا تبعتموهم ودخلتم وراهم ، فزل بالمسلمين وبالفريين ما نزل من المصائب والويلات الاجتماعية ، فقد كثرت الفتيات العانسات ، والنساء الفلسدات ، واضطرت الفتيات لشاركة الشبان في المدارس والأعمال ، فأوقعن الضيق بأنفسهن وبالشبيل في التعليم والهن ، ونشأ عن الاختلاط مائتن منه مصر ، ويئن منه الشرف والعفاف ، وكثرت حوادث الاقطاء وقتل الأطفال الآتين من السفاح ، ولحق العار بكثير من الأسر ، وعمت الفوضى ، وساد الفساد ، لمخالفة الدين الحنيف ، والشرع الشريف قال

تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقال جل شأنه : (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى
وَتُصْلِحْ لِهَاجِهِمْ وَسَاءَ لِمِصِيرٍ) وقال عز وجل : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . لَا يَسْتَوِي
أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ)
والآن أتكلم على السيدات الطاهرات أمهات المؤمنين رضى الله عنهن
أزواج النبي صلى الله عليه وسلم

هن السيدات الكاملات ، السلمات المؤمنات ، القاتنات الثابتات ،
العابدات السامحات ، الزاقيات الطاهرات ، اللاتي سماهن الله تعالى
في كتابه الكريم ، أمهات المؤمنين ، فقال جل شأنه : (النَّبِيُّ أَوْلى
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) فهن أمهات المؤمنين في
الاحترام والحرمة ، والبر والتكريم ، فلا يحل لمسلم أن يتزوج منهن بعده
ﷺ لقوله تعالى : (وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا) وذلك
ليتشرفن به ﷺ في الجنة ، كما تشرفن به في الدنيا ، ولا يحل لمسلم
النظر إليهن والخلوة بهن ، لقوله تعالى : (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا
فَلَسَّأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) ولا يحل لمسلم أن يشتبهن أو يتكلم في
حقهن لأن ذلك يؤذى النبي ﷺ والله تعالى يقول : (وَمَا كَانَ لَكُمْ

أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ) وَلَئِنْ أَذْهَبَ عَنْهُ الرِّجْسُ وَطَهَّرَهُمْ
 تَطْهِيراً كَامِلاً كَمَا قَالَ : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
 الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) فَقَدْ زَلَّتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ
 الْمَقْصُودُ عَمُومُ أَهْلِ الْبَيْتِ ، وَيُقَالُ لَهُمْ أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنَاتِ كَمَا يُقَالُ لَهُنَّ
 أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَدْ خِيَرَهُنَّ النَّبِيُّ ﷺ بِأَمْرِ رَبِّهِ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ
 الْآخِرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 تُرْذَنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعْنَكُمْ وَأَسْرَحْكُمْ سَرَاحاً
 جَمِيلاً ، وَإِنْ كُنْتُمْ تُرْذَنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ
 أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً) فَاخْتَرْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ
 الْآخِرَةَ ، وَكَافَأَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ الْإِخْتِيَارِ بِقَصْرِهُ ﷺ عَلَيْهِنَّ
 وَهَدَمَ تَطْلِقَهُنَّ ، فَلَمْ يَزُوجْ غَيْرَهُنَّ وَتَوَفَّى عَنْهُنَّ ، وَهُنَّ مَفْضَلَاتٌ عَلَى
 سَائِرِ النِّسَاءِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ
 إِنِ اتَّقَيْتُنَّ) وَكَانَ مَتَقِيَّاتٍ وَمَتَنَ عَلَى التَّقْوَى فَهُنَّ الْفَضِيلَاتُ ،
 وَثَوَابُهُنَّ وَغَقَابُهُنَّ مَضَاعِفَانِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ
 مِنْكُمُ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ
 عَلَى اللَّهِ يَسِيراً . وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعَمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا
 أَجْراً مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً) وَذَلِكَ لِجَمَالِ قُرْبِهِنَّ ،
 وَعُلُوِّ دَرَجَاتِهِنَّ ، وَحَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سِتِّ ثَلَاثَ الْمَقَرِّينَ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا

لأنهن أفضل من غيرهن من النساء ، وأفضلهن السيدة خديجة ثم السيدة عائشة ، ثم السيدة حفصة ، وأفضل النساء على الإطلاق السيدة فاطمة الزهراء ثم السيدة خديجة ، ثم السيدة مريم عليهما السلام ، ثم السيدة آسيا امرأة فرعون ومماسيأتى تعلم أفضلية أمهات المؤمنين رضى الله عنهن ، وللتفق عليه أن نساءه ﷺ إحدى عشرة شيدة ، ستة من قریش وهن : خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وسودة بنت زمعة ، وأربع عرييات من قریش وهن زينب بنت جحش ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، وواحدة غير عرية وهى من بنى إسرائيل وهى صفية بنت حيى ، وقد ماتت منهن عنده ﷺ اثنتان وهما خديجة وزينب بنت خزيمة ، وتوفى ﷺ عن التسع الباقيات ، وسأكتب عن كل سيدة منهن كلمة تبين الغرض من زواجهن ، وأنه ﷺ لم يتزوج واحدة منهن إلا لغرض دينى ، وقصد سام شريف ، والله المستعان .

١ - السيدة خديجة رضى الله عنها

هى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى فتجتمع معه ﷺ فى قصى ، وأما فاطمة بنت زائدة بن الأصم جندب ابن حجر بن بغيض بن عامر بن لؤى ، فتجتمع معه من جهة أمها فى لؤى ، فهى قرشية أما وأبا ، وهى أول من أسلم بإجماع المسلمين لم

يتقدمها رجل ولا امرأة ولا صغير ولا صغيرة ، فلها فضل الأسيقية .
 في الاسلام (والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) وكانت تدعى
 في الجاهلية الطاهرة ، تركها ما كانت تقعله نسله الجاهلية ، تزوجها
 بكرأ أبو هالة مالك بن النباش بن زرارة التميمي الأسدي ، وجاءت
 منه بولدين هندو هالة وهما صحابييان ، فلما مات تزوجها عتيق بن عائد بن عبد
 الله بن عمر المخزومي ، وجاءت منه بنت اسمها هند ، وهي صحابية ، فلما
 مات عتيق تزوجها النبي ﷺ ولها أربعون سنة ، وله عليه الصلاة
 والسلام خمس وعشرون سنة ، والسبب في زواجها بالنبي ﷺ أنها
 رضى الله عنها كانت ذات شرف ومال ، وكانت تاجرة تستاجر الرجال
 في مالها على جمل لهم من الربح ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها
 من صدق حديثه ، وعظيم أماته ، وكريم أخلاقه ، بعثت إليه وعرضت
 عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً ، وتمطيه خيراً مما كانت تعطى
 غيره من التجار ، فقبل وخرج مع غلام لها يقال له ميسرة حتى قدم
 الشام فراه بحيرى الراهب وأخبر ميسرة بأنه النبي المنتظر ، وباع النبي
 ﷺ سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد ، ورجع إلى مكة فباعته خديجة
 ما اشتراه فكان ضعف ثمن السلعة ، وحدثها ميسرة يقول الراهب ،
 وكانت رضى الله عنها سيدة حازمة ليبية ، مع ما أراد الله لها من كرامتها
 فبعثت إليه ﷺ تقول له : إني قد رغبت فيك لقرابتك مني وشرفك
 في قومك ، وأما لك عندهم ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، وكانت

أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالا، فلما عرضت عليه نفسها أخبر أعمامه . فخرج معه حمزة وأبو طالب ، وخطبها أبو طالب من عندها عمرو بن أسد فقبل فزوجها ﷺ وأصدقها خمسمائة درهم وخطبها من عندها ، لأن أباهما قد مات فولدت له قبل الوحي القاسم وهو أكبر ولده عاش حتى مضى ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والطاهر ، ولما جاء جبريل إلى النبي ﷺ أول ما جاء أخبرها فنهبت معه إلى ورقة بن نوفل وكان عنده علم بالعبراني ويكتب الإنجيل فأخبره الرسول بما رأى ، فقال هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، فآمنت خديجة رضى الله عنها ، فكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدق بإياه ، وكان يخبرها بتكذيب الناس وإيذاهم إياه فكانت تخفف عنه وتصدقته وتهون عليه أمر الناس فنالت بذلك فضلاً عظيماً ، فكانت من الأربع اللاتي فضلهن النبي ﷺ على نساء العالمين وهن فاطمة الزهراء ، وخديجة بنت خويلد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وأفضل النساء على الإطلاق فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وبشر النبي ﷺ خديجة رضى الله عنها بيئت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب ، وروى في إسلامها أن جبريل عليه السلام نزل على النبي ﷺ وبحث في الأرض فنبع الماء فتوضأ جبريل وتوضأ النبي ﷺ مثل وضوئه ، وصلى ركعتين عليه الصلاة والسلام نحو الكعبة وبشره جبريل بنبوته وبلغه : اقرأ باسم ربك ثم انصرف جبريل ومضى الرسول فلم ير على شجر ولا حجر إلا

سمع : سلام عليك يا رسول الله ، فجاء إلى خديجة فأخبرها ، فقالت أروني كيف أراك ، فأراها فتوضأت كما توضأتم صلات معه ، وقالت أشهد أنك رسول الله - قبل أن يشهد بذلك غيرها ، وقد كانت رضى الله عنها حريصة على رضاه ﷺ ، ولم تتبعه في إيمانها كثيرها ، وأزالت عنه كل نصب وآنة من كل وحشة ؛ وهونت عليه كل عسر ، ولم تغضب قط ، وآزرتة في كل موافقه فكانت له عوناً قبل البعثة وبعدها وكان ﷺ يقول : إني رزقت حبها ، وهي التي كونت أول بيت في الاسلام ، منها ومنه ومن أبنائهما ، ومرجع أهل البيت إليها ، فهي أم السيدة فاطمة الزهراء التي تناسل منها أهل البيت الأصفياء ، الذين قال فيهم الله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) توفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين في السنة العاشرة من البعثة لعشر خلون من رمضان ودفنت بالحجون ونزل ﷺ في حفرتها وسوى عليها وتوفيت ومنها خمس وستون سنة فعاشت معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ولم تسكن فرضت الصلاة ولا شرعت صلاة الجنائزة ، ولم يتزوج عليها النبي ﷺ حتى ماتت ؛ ومات أبو طالب قبلها بثلاثة أيام فسمى عام وفاتها عام الحزن واتى النبي ﷺ بعدها أشد الأذى من قريش فقد كانوا لرد ابن عظيمين وحصنين منيعين ، وكان ﷺ لا يكاد يخرج من بيته بعد وفاتها حتى يذكرها فيحسن الثناء عليها ويكثر الاستغفار لها ، إلى أن تزوج عائشة

رضي الله عنها فسمعت ذلك منه . قالت عائشة رضي الله عنها فأدر كرتي
 البيرة ، قلت : هل كانت إلا عجوزا ؛ فقد أبدلك الله خيرا منها ، فغضب
 حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال لا والله ما أبدلي الله خيرا
 منها : آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبي الناس ، وواستني
 في مالي إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولادا إذ حرمني أولاد
 النساء ، قالت عائشة فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبدا ، وفي رواية
 قد أبدلك الله بكبيرة السن حديثه السن ، فغضب غضبا شديدا ، وقالت
 عائشة وسقطت في جلدني ، وقلت اللهم أذهب عيظ رسولك ، لم أعد
 أذكرها بسوء ما بقيت ، وفي رواية فغضب حتى قالت والذي بعثك
 بالحق لا أذكرها بعد هذا إلا بخير ، من هذا نعلم أنه ﷺ تزوجها
 بعد أن زغيت فيه وعرضت عليه نفسها وهو زاهد والناس يترامون
 عليها للمال وشرفها ، وكانت سنها أربعين سنة وسنة خمس وعشرين فهي
 كهلة وهو شاب ، وأنه لم يتزوج عليها حتى ماتت وبلغ الخمسين ،
 فبذلك يجوز أن قصده الدين ، وغرضه رب العالمين ، وإلا لتزوج قبل
 هذا الزمن ، ولتزوج بكرأ ، ولتزوج أكثر من واحدة إذ كان
 ذلك شائعا لا لوم فيه ولا تثريب ، وهو الصادق الأمين الشريف
 النبي ، آتاه الله الحسن والجمال وحب القلوب ، ولكنه لم يفعل ، فدل
 ذلك على تقديمه الدين على الدنيا ، وتفضيله الآخرة على الأولى (إِنَّكَ
 لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَوْ مَدِيرِينَ ، وَمَا أُنْتَبِ

يَهْدِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تَسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ).

٢ - السيدة سودة رضى الله عنها

هى السيدة سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس بن عبدود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى القرشية العامرية تجتمع معه ﷺ فى لؤى ، وأما الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو بن ليلى ابن خراش بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار الأنصارية . وقد أسلمت السيدة سودة رضى الله عنها قديما ، وبايعت على الاسلام قديما ، وكانت متزوجة ابن عم لأبيها يسمى السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود وكان للسكران إخوة كلهم صحابيون وهم سهيل وسهل وسليط وحاطب بنو عمرو ، وقد أسلم السكران معها قديما ، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، وقد مات رضى الله عنه حين قدم مع زوجته سودة إلى مكة ، وقيل مات بأرض الحبشة ، فهو رضى الله عنه ممن مات على الاسلام ، خلافا لما قيل من أنه تنصر وتركها وعادت إلى مكة ، قال فى أسد الغابة صفحة ٤٨٤ من الجزء الخامس « وكان مسلما فتوفى عنها فتزوجها رسول الله ﷺ » وقال فى الجزء الثالث من شرح الزرقاني على المواهب صفحة ٢٧١ « وكانت تحت ابن عم لها يقال له السكران ابن عمرو أخو سهيل ابن عمرو ، أسلم معه قديما وهاجرا جميعا إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، فلما قدما مكة مات زوجها . ولما مات زوجها

السكران رضى الله عنهما ، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها ، وذلك سنة عشر من النبوة ، وهى أول امرأة تزوجها بعد السيدة خديجة رضى الله عنهما تزوجها قبل السيدة عائشة رضى الله عنها .

روى أن خولة بنت حكيم قالت لابي ﷺ : أفلا أخطب عليك ؟ قال بلى فانكن معشر النساء أرفق بذلك ، فخطبت عليه سودة بنت زمعة وعائشة ، فتزوجهما ، فبى بسودة بمكة وعائشة يومئذ بنت ست سنين ، حتى نبى بها ، بعد ذلك حين قدم المدينة ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يدخل بعائشة إلا بعد سودة رضى الله عنهما بثلاث سنين ، ولما كبرت سنهما وهبت نوبتها للسيدة عائشة ، فقد روى أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك ، وكانت شديدة الاتباع لأمره صلى الله عليه وسلم ، وكانت تؤنسه وتضحكه بالشى أحيانا ، وأسنت عنده ولم تصب منه ولداً ، وتوفيت رضى الله عنها آخر خلافة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه سنة ثلاث وعشرين هجرية ، فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم تزوجها كبيرة السن وهى ثيب ، ولم يكن معه غيرها ومكث معها وحدها أكثر من ثلاث سنين ، حتى تزوج السيدة عائشة فى السنة الأولى من الهجرة ، وترى أنه أمضى من عمره أربعاً وخمسين سنة ولم يجمع بين اثنتين ، ولم يتزوج بكراً ، وترى أنه تزوج السيدة سودة لا يوانها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها فاراً

يعقيدته ، حريصاً على إيمانه ، وأنه تزوجها كذلك تألفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبتته صلى الله عليه وسلم ، فلم يتزوجها إلا لمقصد ديني ، وغرض إسلامي ، ووجهة خالصة لله رب العالمين ، فتبأقوم يقولون عليه الأقاويل ، ويدعون فيه ما هو منه بريء إن هو إلا كفر وجهل وطغيان (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ)

٣ - السيدة عائشة رضي الله عنها

هي السيدة المباركة الجليلة الكريمة العليمة القرشية الكنانية عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق بن أبي قحافة : عبد الله بن عثمان ابن عامر بن عمر بن كعب بن سعد بن تيم بن مره بن كعب بن لؤي فهي تجتمع معه ﷺ في مرة ، وأما أم رومان : زينب بنت عامر ابن عويمر بن عبد شمس بن أذينة بن سبيع بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة الكنانية ، وقد أسلمت أم رومان وبايعت وهاجرت وماتت في حياته ﷺ وقد تزوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين ، وبني بها في السنة الأولى من الهجرة عقد عليها في شوال سنة عشر من النبوة ولها ست سنين بعد عقده على السيدة سودة ، وأعرض بها في المدينة في شوال بعد سبعة أشهر من مقدمه إلى المدينة ولها تسع سنين ، وقال الهميلطي في سيرته : ماتت خديجة في رمضان ، وعقد علي سودة في شوال ، ثم على عائشة

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم بن الأوقص امرأة عثمان بن مظعون ، وذلك بمكة : أى رسول الله : ألا تزوج ؟ قال ومن ؟ قلت إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً قال فمن البكر ؟ قلت ابنة أحب خلق الله إليك : عائشة بنت أبي بكر ، قال ومن الثيب ؟ قلت سودة بنت زمعة بن قيس ، آمنت بك ، وابتعتك على ما أنت عليه ، قال فاذهبي فاذا كرهيهما على ، فجاءت فدخلت بيت أبي بكر فوجدت أم رومان أم عائشة ، فقالت أى أم رومان : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت وما ذاك ؟ قالت أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قالت وهل تصلح له ، إنما هي ابنة أخيه ، وددت ، انتظري أبا بكر فإنه آت ، فجاء أبو بكر فقالت يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قال وما ذاك ؟ قالت أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة ، قال وهل تصلح له ، إنما هي بنت أخيه ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال ارجعي وقولي له أنت أختي وأنا أخوك في الإسلام ، وابتعتك تصلح لي ، فرجعت وأخبرته بذلك ، فقال أبو بكر لأم رومان : إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه ، والله ما أخلفت أبو بكر وعداً قط . فأتي المطعم وعنده امرأته أم القتي ، فقال ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ فأقبل على امرأته فقال ما تقولين ؟ فأقبلت على أبي بكر فقالت : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك نصيبه وتدخله في دينك والنبي أنت عليه ، فقال أبو بكر للمطعم ما تقول

أنت ؟ فقال إنها تقول ما تسمع ، فقام أبو بكر ليس في نفسه شيء من الوعد ، فقال خلوة : قولى لرسول الله ﷺ فليأت ، فدعته فجاء فلما كان (تزوجها) وهى يومئذ بنت ست سنين قالت خلوة وخرجت فدخلت على سودة فقلت ياسودة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة قالت وما ذاك ؟ قلت أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه قالت وددت : ادخلي على أبي فاذا كرى ذلك له ، قالت وهو شيخ كبير قد تخلف عن الحج ، فدخلت عليه فقلت إن محمد بن عبد الله أرسلني أخطب عليه سودة ، قال كفى كريم ، فإذا تقول صاحبك ، قالت تحب ذلك ، قال ادعها فدعها ، فقال إن محمد بن عبد الله أرسل يخطبك وهو كفى كريم ، أفتجيبين أن أزوجك منه قالت نعم قال فادعها لى فدعته ، فجاء فزوجها ، وجاء أخوها عبد بن زمعة من الحج ، فجعل يحنو الرباب على رأسه ، وقال بعد أن أسلم : إني سفيه يوم أن أحنو الرباب على رأسى ، أن تزوج رسول الله ﷺ سودة ؛ وعن عائشة رضى الله عنها أن جبريل جاء بصورتها فى خرقعة من حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة ، وعنها قالت : قال رسول الله ﷺ يوماً يا عائش ، هذا جبريل يقرئك السلام ، فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ، ترى مالا أرى ، وكان مسروق إذا روى عنها يقول حدثتني الصديقة بنت الصديق البريئة المبرأة حبيبة حبيب الله ، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض ، وقال عطاء كانت عائشة من أفقه الناس وأحسن الناس رأياً فى العلم ، ولو لم يكن

لعائشة من الفضائل إلا قصة الافك لكفى بها فضلا وعلو مجد،
 فانها نزل فيها من القرآن ما يتلى إلى يوم القيامة اهـ
 وكانت أحب نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليه بعد خديجة،
 لأنها بنت الصديق الذي كان معه في هجرته (ثاني اثنين إذ هما في الغار
 إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ولما نزلت آية التخيير بدأ بها،
 واختار الإقامة عندها في مرضه، وقام لها وهي تنظر من ورائه إلى لعب
 الحبشة بحراهم في المسجد النبوي، وقال لها إني لأعلم إذا كنت علي
 راضية وإذا كنت علي غضبي، قالت بئس ما قال إذا كنت راضية قلت
 لا ورب محمد، وإذا كنت غضبي قلت لا ورب إبراهيم، قالت صدقت
 ما أهر إلا اسمك، رواه البخاري ومسلم والنسائي، وسابقتها في سفر
 فسبقتها، فلما امتلأت من اللحم سابقتها فسبقتها، فقال يا عائشة هذه
 بتلك، وكان يوافقها فيما تحبه ولا يمتص الله تعالى، وروى عنها أنها
 قالت فضلت علي نساء النبي ﷺ (غير خديجة رضي الله عنها) بعشر،
 لم يتزوج بكرًا قط غيري، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري، وأنزل
 الله برائي من السماء، وجاء جبريل بصورتى من السماء في حريرة،
 وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من
 نسائه غيري، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري، وكان ينزل
 عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري، وقبض وهو بين نحرى
 وسحرى، وقبض في الليلة التي كان يدور على فيها، ودفن في بيتي. وكانت
 مدة مقامه معها عليه الصلاة والسلام تسع سنين، ومات عنها ولها ثمانى

عشرة سنة ، ولم يتزوج بكر غيرها ، وكانت كثيرة الحديث عن رسول الله ﷺ ، عارفة بأيام العرب وأشعارها ، قال أبو موسى الأشعري ، ما أشكل علينا : أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فساألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً . رواه الترمذی وصححه ، وقال عروة ما رأيت أحداً أعلم بالقرآن ، ولا بفرضه ولا بحرام ، ولا بحلال ، ولا بفقهه ، ولا بشعره ، ولا بطب ، ولا بحديث العرب ، ولا نسب ، من عائشة ، وقد روى لها ألفان ومائتا حديث وعشرة ، وروى أنها مدحت النبي ﷺ بقولها :
فلو سمعوا في مصر أو صافخده لما بذلوا في سوم يوسف من نقد
لواحي زليخا لو رأين جبينه لا ترن بالقطع القلوب علي الأيدي
وكانت زاهدة كثيرة الكرم والصدقة ، ولم تلد قط ، وروى هشام عن أبيه ، قال كان الناس يتحرون بهديام يوم عائشة ، قالت :
« عائشة » فاجتمع صواحي إلى أم سلمة فقالوا يا أم سلمة ، إن الناس يتحرون بهديام يوم عائشة ، وإننا نريد من الخير كما تريد عائشة ، فرى رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كن أو حيث ما دار ، قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ — قالت أم سلمة . فأعرض عني ، فلما عاد إلى ذكرت له ذلك فأعرض عني ، فلما كن في الثالثة ذكرت له ذلك ، فقال يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فانه والله ما نزل على الوحي وأنا في فراش امرأة منكن غيرها ، وروى عنها أنها قالت رأيت رسول الله ﷺ طيب النفس فقلت يا رسول الله ادع لي ، قال : اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر ، وما أسرت وما

أعلنت ، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك فقال ﷺ أسرك دعائي ؟ فقالت مالى لا يسرفى دعاؤك ، قال فوالله إنها لدعوتى لأمتى فى كل صلاة ، وتوفيت رضى الله عنها بالمدينة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان سنة ثمان وخمسين للهجرة وهى ابنة ست وستين سنة فعاشت بعده ﷺ خمسين سنة ، ودفنت بالبقيع ، وقد قنع الله بها الأمة الاسلامية فى نشر العلوم وتعاليم الدين والشرع الشريف ولا سيما ما يتعلق من ذلك بأمر البيت والأسرة والمرأة ، وحضر جنازتها أكثر أهل المدينة ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه فى أيام معاوية بن أبى سفيان ، ودفنت ليلاً ، ونزل فى قبرها خمسة : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم بن محمد بن أبى بكر ، وعبد الله ابن محمد بن أبى بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وروى عنها الحديث كثير من أكابر الصحابة فعن عمر قال : إن عائشة حدثتني أن رسول الله ﷺ قال : وهو على فراشى : أيما امرأة مؤمنة وضعت خمارها على غير يبتها همكت الحجاب يبتها وبين ربه عز وجل ، فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة عائشة رضى الله عنها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة ، وكانت بنت تسع ، ولم يمكث معها غير تسع سنين ، وأنه ﷺ تزوجها بوحي من ربه ، لا لفرض من نفسه ، وأراد بهذا الزواج مكافأة أبيها الصديق وإحكام الرابطة بينهما ، فلم يتزوجها إلى للدين واجتهاد مرضاة رب العالمين ، فهى لم تعقب منه ولداً ، ولسكنها أذاعت علماً وفضلاً ، وفقهاً وعدلاً ، وديناً وشرعاً ، ولم يتزوج غيرها

بكرًا ، وهى أول من جمع بينها وبين غيرها وهى السيدة سودة رضى الله عنها ، وقد علمت السبب في زواجها والغرض منه ، مما يطل كلام البطلين ، ويدل على عصمة سيد المرسلين ، صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين .

٤ - السيدة حفصة رضى الله عنها

هى السيدة الجليلة القرشية أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب بن قنيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن عدى بن كعب بن لؤى فتجتمع معه ﷺ فى كعب ، وأما وأم أخيا عبد الله بن عمر زينب بنت مظعون ، الجحجية الصحابية المهاجرة ، وقد ولدت حفصة رضى الله عنها قبل البعثة بخمس سنين وقرش تبنى الكعبة ؛ وقد أسلمت وهاجرت ، وهى من المهاجرات ، وكانت قبل رسول الله ﷺ زوجاً لخنيس بن حذافة السهمي ، وكان ممن شهد بدرًا وتوفى بالمدينة بعد غزوة بدر من جراحات أصابته بيدى ، فهو صحابى جليل مهاجر بدرى ، ولما مات خنيس رضى الله عنه واقتضت عدتها ، عرضها عمر أبوها على عثمان ثم على أبى بكر رضى الله عنهم جميعاً ، فلم يجبه أحدهما إلى زواجها لأنه ﷺ ذكرها أمام أبى بكر فأمسك عنها ، روى عن ابن عمر شقيقها رضى الله عنها قال تأميت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدرًا وتوفى بالمدينة ، قال عمر فلقيت عثمان

فقلت إن شئت أنكحتك حفصة ، قال سأنظر في أمري فلبثت ليالي ،
ثم لقيني فقال : قد بدالي ألا أتزوج في يومى هذا ، قال عمر فلقيت أبا
بكر فقلت إن شئت أنكحتك حفصة فصمت ، فلم يرجع إلي شيئاً ،
فكنت عليه أوجد منى على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها النبي ﷺ
فأنكحها إياه ، فلقيني أبو بكر فقال لعلك وجدت على حين عرضت
على حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ، فقلت نعم ! قال فانه لم يمنعني أن
أرجع إليك فيما عرضت إلا أنني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها ،
فلم أكن لأفشي سره ، ولو تركها لقبيلها ، وكان قد عرضها على عثمان
حين ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ فقال عثمان ما أريد أن أتزوج
اليوم ، فالسبب في امتناع أبي بكر أن النبي ﷺ ذكر حفصة أمامه ؛
والسبب في امتناع عثمان أنها عرضت عليه حين ماتت رقية رضى الله
عنها فلم يقبل ورقية قد ماتت قريباً ، وقد أكرم الله حفصة برسول
الله ﷺ وأكرم عثمان بأمر كاثوم أخت رقية ، وأكرم أبا بكر
بإثارة رسول الله ﷺ على نفسه ، وتزوجها النبي ﷺ بعد السيدة
عائشة بستين سنة ثلاث للهجرة وسنة ﷺ ست وخمسون سنة ،
وسنها إحدى وعشرون سنة مكافأة لها ، وحياً في أيها ، وكان رسول
الله ﷺ قد طلقها تطليقة واحدة ثم راجعها ، روى عن أنس رضى الله
عنه أنه ﷺ طلق حفصة تطليقة فأتاه جبريل ، فقال طلقت حفصة
وهي صوامة قوامة ، وهي زوجتك في الجنة ، وفي رواية أنه ﷺ
طلق حفصة ، فبلغ ذلك عمر فحنا على رأسه التراب ، وقال ما يعبأ الله

بعمر وابنته بعدها ، فنزل جبريل من القد وقال إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر ، وري أن عمر رضى الله عنه دخل على حفصة وهي تبكي ، فقال لعل رسول الله ﷺ قد طلقك ، إنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجل ، فإن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً ، وروى لها عن النبي ﷺ ستون حديثاً ، وقد استرضاهما ﷺ بتحريم مارية ونزل في هذه الحادثة (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) ونزل فيها وفي عائشة رضي الله عنهما (تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ) وقوله (إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) وعن نافع قال : صامت حفصة حتى مات قطر ، كناية عن كثرة صيامها ، وتوفيت في شعبان سنة خمس وأربعين للهجرة بالمدينة في خلافة معاوية ، وهي ابنة ثلاث وستين سنة رضى الله عنها .

فترى من هذا أنه ﷺ تزوج السيدة حفصة وهي ثيب ، وقد تزوجها رغبة في إيوائها ، وتمويضا عن فقد زوجها الذي قتل في غزوة بدر وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه ، وتزوجها استرضاه لأبيها عمر رضى الله عنه الذي سره كل السرور هذا النسب الشريف ، وتزوجها ﷺ وسنه ست وخمسون سنة ، ولم يجمع بين ثلاث إلا بحفصة رضى الله عنها وهو في هذه السن ، وهو ﷺ الرموف بالمؤمنين والمؤمنات ، الرحيم بالمسلمين والمسلمات ، العادل الحسن العارف بحقوق الزوجية ، فهو ﷺ بالقام الأسمى والمحل الأرفع يسير على ضوء من ربه ، ويعمل بنور ممن بعثه واصطفاه عليه أفضل الصلاة وآتم التسليم

٥ - السيدة أم سلمة رضي الله عنها

هي السيدة الجليلة ذات الرأي الصائب ، والأدب الكامل
 أم المؤمنين أم سلمة : هند بنت أبي أمية : حذيفة بن المنيرة بن عبد الله
 ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهي تجتمع معه
 ﷺ في مرة ، وكان أبوها يعرف بزاد الراكب ، وأما عاتكة بنت
 عامر بن ربيعة بن مالك الكنانية ، وكانت السيدة أم سلمة موصوفة
 بالجلال البارع ، والعقل الراجح ، والرأي الصحيح : دخل عليها النبي ﷺ
 والغضب في وجهه الشريف ، حين أمر أصحابه رضي الله عنهم بالخلق
 أو التقصير بعد صلح الحديبية ، فتناقلوا فأشارت عليه أن يبدأ بنفسه ،
 ففعل فتساقبوا وحلقوا وقصروا ونحروا اقتداء به ﷺ ، مما
 ينل على راحة عقلها ، وإصابة رأيها رضي الله عنها ، وكانت قبل النبي
 ﷺ عند ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وكانت ممن أسلم
 قديماً هي وزوجها ، وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ، ثم قدما مكة
 وهاجرا إلى المدينة فولدت له عمر ودره وزينب ، فأما زينب فولدتها بعد
 موت أبي سلمة ، فخلت واتقضت عندها بوضع الحمل ، فبعث إليها أبو بكر
 يخطبها عليه فلم تزوجه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب
 يخطبها عليه ، فقالت أخبر رسول الله ﷺ أنني امرأة غيرة ، وأني امرأة
 مصيبة ، وليس أحد من أوليائي شاهداً ، فأني رسول الله ﷺ فذكر
 ذلك له ، فقال ارجع إليها فقل لها : أما قولك إنني امرأة غيرة فسادمو

الله فيذهب غيرك ، وأما قولك إني امرأة مصيبة فستكفين منيائك .
وأما قولك ليس أحد من أوليائي شاهداً فإنه لا أحد شاهد ولا غائب
من أوليائك يكره ذلك ، فقالت لأنها عمر (حين سمعت ذلك) قم
فزوج رسول الله ﷺ فزوجه في ليل بقين من شوال من السنة الرابعة
 للهجرة بعد السيدة حفصة وبعد أربعة أشهر ونصف من موت أبي
 سلمة ومنها حينئذ تسع وعشرون سنة ، ومنه ﷺ سبع وخمسون سنة
 وهي أول ظمينة دخلت المدينة مهاجرة ، فقد روى عنها أنها قالت :
 لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل بغير آل ، وحملي وحمل
 معي ابني سلمة ، ثم خرج معي يقود بعيره ، فلما رآه رجال بني النخيلة
 ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم « قوم أم سلمة » قاموا إليه فقالوا هذه
 قسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه ، علام تركك تسير بها في
 البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده وأخذوني ، وغضبت عند ذلك
 بنو عبد الأسد وأهواوا إلى سلمة وقالوا والله لا نترك ابنتنا عندها إذ
 نزعتموها من صاحبنا ، فتجاوزوا ابني سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق
 به عبد الأسد رهط أبي سلمة ، وجبني بنو النخيلة عندهم ، وانطلق
 زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة ، ففرقوا بيني وبين زوجي وبين
 ابني ، قالت فكنت أخرج كل غداة (صباح) فأجلس بالأبطح فأزال
 أبكي حتى أمسى ، سنة أو قريبا ، حتى مر بي رجل من بني عمن من
 بني النخيلة ، فرأى ما بي فرحمي ، فقال لبني النخيلة ، ألا تخرجون من
 هذه المسكنة ، فرقم بينها وبين زوجها وبين ابني . فقالوا لي ألقى

بِرؤسك إن شئت ، وزد على بنو عبد الأسد عند ذلك ابني ، فرحلت
 بعمري ووضعت ابني في حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة
 وما معى أحد من خلق الله ، أتبلغ عن لقيت ، حتى أقدم على زوجى ،
 حتى إذا كنت بالثنعيم لقيت عثمان بن طلحة أخا بنى عبد الدار ، فقال
 أين يا بنت أبى أمية قلت أريد زوجى بالمدينة ، فقال : هل معك أحد ؟
 قلت لا والله ، إلا الله وابنى هذا ، فقال : والله مالك من منزل ، وما
 مثلك يترك ، فأخذ بخطام البعير ؛ فانطلق معى يقودنى ، فوالله ما صحبت
 رجلا من العرب أراه كان أكرم منه ، إذا بلغنى المنزل أناخ بى . ثم
 تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام إلى بعمري فقدمه
 فرحله ، ثم استأخر عنى وقال اركبى ، فاذا ركبت واستويت على بعمري
 أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى نزل ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى
 إلى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف قبلاه ، قال : زوجك
 فى هذه القرية ، وكان أبو سلمة نازلا بها ، فدخلها على بركة الله تعالى ،
 ثم انصرف راجعا إلى مكة ، وكانت أم سلمة تقول : ما أعلم أهل بيت
 أصابهم فى الإسلام ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط
 كان . أكرم من عثمان بن طلحة . ومات أبو سلمة البدوى بجرح
 أصابه فى غزوة أحد ، فعالجه شهراً حتى برى ، ثم بعثه ﷺ فى سرية
 فتاب شهراً ، ثم عاد فانتقض جرحه ، فأت ثمان خلون من جهادى
 الآخرة سنة أربع ، وصممت أم سلمة رسول الله ﷺ يقول : (ما من
 مسلم تصيبه مصيبة فيقول اللهم آجرنى فى مصيبتى ، واخلفنى خيراً منها

إلا أخاف الله له خيراً منها) قالت رضى الله عنها فلما مات أبو سلمة ،
استرجعت وقلت : اللهم عندك احتسب مصيبتى هذه ، ولم تطب قبى
أن أقول : اللهم اخلفنى خيراً منها ، وقلت أى المسلمين خير من أبى
سلمة ؟ ثم إنى قلنا ، فأخلف الله لى رسول الله ﷺ ، فأوها وكن لها
خيراً من أبى سلمة ، فلم تشعر بألم الحياة مع كثرة أولادها من أبى سلمة
الذين قال فيهم رسول الله ﷺ وأما العيال فالى الله ورسوله . وروى عنها
أنها قالت فى بيتى نزلت (إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) قالت فأرسل رسول الله ﷺ إلى
فاطمة وعلى والحسن والحسين فقال هؤلاء أهل بيتى ، قالت قتلت
يارسول الله أنا من أهل البيت ؟ قال بلى إن شاء الله : وتوفيت رضى
الله عنها سنة تسع وخمسين للهجرة فى شوال ، وهى آخر أمهات المؤمنين
 وفاة ، وصلى عليها أبو هريرة رضى الله عنه ، وكن عمرها أربعاً وعشرين
سنة : فترى من هنا أن النبى ﷺ تزوجها ليموضها خيراً من زوجها
الذى فقدته وهى تحبه ولا ترى بعده خيراً منه ، وكانت كثيرة الأولاد
فلو تركت لكانت عيشتها بهم نكدت مؤلة ، فأوها وأوى أولادها وقام
بشؤونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها وصبرها ووفائها لزوجها ،
قد امتنعت عن الزواج وطفه لزوجها وأولادها ، ولم ترض إلا بالنبى
ﷺ لعلها بصبره وحلمه ، ووفائه وعدله ، وأنه خير لها ولأولادها
من غيره ، فهذا هو السبب فى زواجها بالنبى ﷺ ، وتلك هى الحكمة

وليحفظ الرسول ﷺ امرأة مؤمنة كانت زوجة لرجل مؤمن مات شهيداً في الذود عن حياض الاسلام ، وبها كان النبي ﷺ قد جمع بين أربع من الزوجات الطاهرات رضى الله عنهن ، وقد بلغ سنه ﷺ سبعا وخمسين سنة : مما يدل على أن قصده في كل أحواله الله الذي بعثه واصطفاه وقال فيه : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

٦ - السيدة أم حبيبة رضى الله عنها

هي السيدة رمة وكنيتها أم حبيبة ، وهي بنت أبي سفيان : صخر ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فهي تجتمع معه ﷺ في عبد مناف ، وأما صفية بنت أبي العاص بن أمية ، عمه سيدنا عثمان بن عفان بن أبي العاص ، فهي قرشية أموية ، وقد ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عاماً وأسلفت قديماً بحكة ، وكانت متزوجة عبيد الله بن جحش ، وولدت له بحكة حبيبة ربيبة رسول الله ﷺ ، واشتهرت بكنيتها بها ، فدعوها أم حبيبة ، وقد هاجرت رضى الله عنها مع زوجها عبيد الله وابنتها حبيبة إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها عبيد الله بن جحش ومات بالحبشة ، وثبتت على إسلامها ، وأبت أن تنصر معه . وخالفته ، وفضلت الاسلام على زوجها ، فجمع الله لها الاسلام والهجرة والصحبة هي وابنتها حبيبة رضى الله عنهما ، وأكل الله لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ ، فقد تزوجها ستة سنين للهجرة وسنها ربيت ثلاثون سنة ، ومنه ﷺ تسع وخمسون سنة ، قالت رضى الله

عنها : رأيت في المنام كأن زوجي عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة
فقرعت ، فأصبحت فإذا به قد تنصر ، فأخبرته بالنام فلم يحفل به ،
وأكب على شرب الخمر حتي مات ، فأتاني آت في نومي ، فقال : يَا أُمَ
المؤمنين ، فقرعت ، فإهو إلا أنا اقضت عدي ، فاشعرت إلا
برسول النجاشي يستأذن ، فإذا هي جارية تقوم على بناته يقال لها
أبرهة ، قالت : إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إلى أن
أزوجك منه ، فقلت بشرك الله بخير ، قالت ويقول لك الملك وكل
من يزورك ، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن أمية فوكلته ،
وأعطيت أبرهة سواربن من فضة كانت على : وخواتيم من فضة كانت
في أصابعي ، سروراً بما بشرتني به ، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر
ابن أبي طالب ومن هناك من المسلمين يحضرون ، وخطب النجاشي
حمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال : أما بعد فإن رسول الله ﷺ كتب
إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فأجبت إلى مادعا إليه
رسول الله ﷺ ، وقد أصدقها أربعائة دينار ، ثم سكب الدنانير بين
يدي القوم ، ثم تكلم خالد بن سعيد ، حمد الله وأثنى عليه وتشهد ثم قال ،
أما بعد فقد أجبت رسول الله ﷺ إلى مادعا إليه وزوجته أم حبيبة
بنت أبي سفيان ، وبارك الله لرسوله ، ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد
فقبضها ، ثم أرادوا أن يتفرقوا فقال اجلسوا ودعا بطعام فأكلوا ثم
تفرقوا ، قالت أم حبيبة : لما وصل إلى المال أعطيت أبرهة منه خمسين
ديناراً ، قالت فردتها علي ، وقالت إن الملك عزم علي بذلك ، وردت علي

ما كنت أعطيها أولا (السواربن والخوانيم) ثم جاءني من الند
 بعود وورس وعنبر وزبد كثير، فقدمت به معي على رسول الله ﷺ،
 وقد أرسل النجاشي أم حبيبة مع شرحبيل بن حسنة، قالت رضى الله
 عنها: ولما دخلت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة،
 وما فعلت معي أبرهة جارية النجاشي، وأقرأته منها السلام، فتبسم
 رسول الله ﷺ وقال وعليها السلام ورحمة الله وبركاته وكان قدومها إلى
 المدينة بعد رجوعه ﷺ من فتح خير سنة سبع للهجرة، ودخل بها
 النبي ﷺ بالمدينة في هذه السنة، فكان عقد الزواج منه ست بالحبشة
 والدخول سنة سبع بالمدينة وأجمعوا على أنه ﷺ تزوج السيدة أم
 حبيبة وهي بالحبشة، ودخل بها بالمدينة، وأن الدخول بها كن قبل
 إسلام أيها أبي سفيان، فقد روى أن أبا سفيان قدم المدينة أيزيد في
 هدنة الحديبية فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما أراد أن يجلس على
 فراش رسول الله ﷺ طوته دونه، فقال يا بنية: أرغبت بهذا الفراش
 عني، أم بي عنه؟ قالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وأنت مشرك، فقال لقد أصابك بعدى شر، فقالت: بل خير، وقد
 أسلم رضى الله عنه في غزوة الفتح سنة ثمان للهجرة وهو أبو معاوية
 رضى الله عنه، وتوفيت رضى الله عنها بالمدينة سنة أربع وأربعين في
 خلافة أخيها معاوية ولها أربع وسبعون سنة، وقد أرسلت قبل وفاتها
 إلى السيدة عائشة، والسيدة أم سلمة تقول: قد يكون بيننا ما يكون
 من الضرائر، فلمصفا عما كان، فلتستغفرتا لها وسرها ذلك، وقد روت

أم حبيبة عنه صلى الله عليه وسلم أحاديث في الكتب الستة ، وروث
عن زينب بنت جحش رضى الله عنها وعن غيرها من الصحابة رضى
الله عنهم : فترى من هذا أنه صلى الله عليه وسلم دخل بها وسنة ستون
سنة ، وسنها سبع وثلاثون سنة وهى ثيب ولم تلد له شيئاً ، وتزوجها
وهى فى دار الهجرة فى شدة شديدة ، وكرب عظيم ، قد فقدت الناصر
والمعين ، وتنصر زوجها وتركها وابنتها فى المهاجرين المظلومين ، فسرّها
وشرح صدرها ، وآواها ونصرها ، وكافأها وأعزها ، لئلاّ يها على
الاسلام وتهدى الدين على الدنيا وليبعث هذا الزواج أباهما أباسفيان
وقومها بنى أمية على مناصرته صلى الله عليه وسلم والوقوف فى صفه
فكلن تزوجه بها رغبة فى الدين ، وتقرباً لله رب العالمين ، وهو صلى
الله عليه وسلم الرؤوف بالؤمنات والمؤمنين .

٧ - السيلة زينب بنت خزيمة

أم المساكين رضى الله عنها

هى الأولى من السيدات الأربع العربيات من غير قريش ،
وهى السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عمرو بن عبد مناف بن
هلال بن صعصعة بن بكر بن هوازن الهلالية ، وأما هند بنت عوف
وكانت زينب رضى الله عنها فى الجاهلية تدعى أم المساكين لكثرة إطعامها
إياهم ، ورقها عليهم ، واستمرت على ذلك ، وزادت بالاسلام شفقة ورحمة
وبراً وصدقة ، وكانت متزوجة عبد الله بن جحش رضى الله عنه قتل

عنها يوم أحد ، فتزوجها رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثلاث للهجرة بعد انقضاء عنتها بوضع الحل ، وكان زواجها به صلى الله عليه وسلم بعد حفصة رضي الله عنها ، فأقامت عنده ثمانية أشهر ، وتوفيت في ربيع الآخر من السنة الرابعة وسنها ثلاثون سنة ، وصلى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنها بالقيع ولم يمت عنده إلا أهلها مساكين وخديجة رضي الله عنهما : فترى من ذلك أنه تزوجها ولم تك عنده إلا ثمانية أشهر فأقل ، وأنه تزوجها ثيبا ، وأن غرضه إيواءها عنده بعد موت زوجها شهيدا وهو يدافع عن الاسلام يوم أحد ، فقصده ﷺ الدين ، ووجهته لله رب العالمين ، وهي مكافأة أم المساكين ، لقتل زوجها في النود عن المسلمين .

٨ - السيملا في يذب بذت جحش رضي الله عنها

هي ثمانية السيدات الطاهرات العرييات من غير قریش ، وهي السيدة زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبر بن مرة بن كثير ابن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمية الأسدية ، وأما أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ممتة ﷺ ، وكانت السيدة زينب زوجة يزيد ابن حارثة مولى النبي ﷺ ، وهو ﷺ الذي تولى تزويجها من زيد فقد خطبها عليه الصلاة والسلام لزيد فظننت أنه صلى الله عليه وسلم يريد لها لنفسه ، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبته واستنكفت ، وقالت أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا

مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ
 مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا)
 فرضيت وسلمت ولما تزوجها زيد مكنت عنده مدة، وهي تعالظ
 عليه، وقتتخر بشرنها، فرغب عنها زيد، وجاء يشكوها إلى النبي
 صلى الله عليه وسلم، فقال له (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ) واصر
 عليها، وأحسن إليها، وكان الله تعالى أطلع نبيه أنها ستكون زوجا له
 فنزل قوله تعالى (وَنُنِیْ فِي قَلْبِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ) من أن زيدا سيطلقها
 وأنتك تزوجها، وكان صلى الله عليه وسلم يخشى أن يقع الناس في الائم
 والمعصية بسببه ويقولون تزوج زوجة من تبناه، لأن ذلك لم يكن
 مباحا عندهم فنزل قوله تعالى (وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)
 كما هو شأنك ودأبك وشيئتك وما أنت عليه، ثم طلقها زيد رغبة
 عنها، وكرامة لها بلقاء منها، من تعظما عليه، ونفراها بشرفها
 وحسبها، ولم يطلقها لرغبة رآها من النبي صلى الله عليه وسلم ولا لأي كلمة
 أو إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما اقتضت عدتها من
 زيد قال له النبي صلى الله عليه وسلم، تنفيذا لأمر ربه وما أوحاه إليه
 من أنها ستكون زوجته، اذهب الي زينب فاذا كرني لها، فصدمع زيد
 بالأمر ولم يبد عليه إلا السرور بما تشرفت به، قال زيد رضى الله عنه،
 فذهبت إليها، فجعلت تظهرى إلى الباب (فعل ذلك تورعا لأنه كان
 قبل نزول الحجاب) فقلت يا زينب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

يذكرُك ، فقالت ما كنت لأحدث شيئاً حتى أواز دني عز وجل ،
 فقامت إلى مسجد لها ، فأنزل الله تعالى (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوَّجْنَاكَهَا) فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن
 وسجدت لله شكراً على هذا الشرف العظيم ، وعلى أنها تزوجت بوحي
 نزل من الله على رسوله ، وكان للتشريع ، كما قال تعالى (لِكَيْلَا
 يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا
 مِنْهُنَّ وَطَرًا) فكانوا لا يتزوجون زوجة النفي فنزلت الآية بحل ذلك
 وأول من بدأ بنسخ هذه العادة هو النبي صلى الله عليه وسلم ليكون
 لهم قنوة حسنة في ذلك ، وقد سبق الكلام مستوفى في هذه الحادثة في
 تفسير قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ) إلخ . وكانت
 رضي الله عنها تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بقولها :
 زوجكن أبأؤكن وزوجني الله من فوق سبع سموات ، وقد أولم لها
 النبي صلى الله عليه وسلم ، فأشبع المسلمين خبزاً ولحمًا ، وكان تزويجها منه
 صلى الله عليه وسلم سنة خمس للهجرة وكان منها خمساً وثلاثين سنة ،
 وكانت رضي الله عنها مؤمنة صالحة قاتنة صوامع قوامه ، صناع اليد ،
 تعمل بينها فتكسب وتصدق به على المساكين ، ولما كانت حادثة
 الاقنك سألها النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها ماذا علمت أو رأيت
 « عن عائشة » فقالت يا رسول الله أحى سمعى وبصرى ، والله ما علمت
 إلا خيراً ، وقد وضعت السيدة عائشة السيدة زينب بالوصف الجليل في

فصة الافك ، وأن الله عصمها بالورع ، وقالت عنها هي التي كانت
تسامني من أزواج النبي صلى الله عليه ، ولم تكن امرأة خيراً منها في
الدين ، وأتقى الله ، وأصدق حديثاً وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ،
وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به ويقرب إلى الله تعالى
وهي أول نسائه صلى الله عليه وسلم لحوقاً به ، فصدق فيها قوله صلى
الله عليه وسلم أولكن لحوقاً بي أطول لكن يداً ، فكانت أولهن لحوقاً
به وأطولهن يداً بالمروف والصدقة والبر ، قالت رضي الله عنها حين
حضرتها الوفاة ، إني قد أعددت بكفي وإن عمر سيبعث إلى بكفن
فتصدقوا بأحدها ، وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوى فافعلوا ، فذهبت
كما قالت السيدة عائشة : حميدة متعبدة مفرجة اليتامى والأرامل ، بعث
إليها عمر باني عشر ألفاً عطاء لما فعلت تقول : اللهم لا يدركني هذا
للئ من قابل فإنه فتنة ثم قسمته في أهل رحمها وفي أهل الحاجة ، فأجاب
الله دعاءها ولم تأخذ العطاء إلا عاماً واحداً ، وماتت رضي الله عنها
بالمدينة سنة عشرين للهجرة ، وهي بنت خمسين سنة وصلي عليها عمر
رضي الله عنه ، وقد روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث في
الكتب الستة ، وروى عنها كثير من الصحابة رضي الله عنهم
فترى من هذا أنه تزوجها بأمر ربه للتشريح الذي هو مرسله ، فكان
لزاماً عليه تنفيذ أمر ربه ، ولم يكن لغرض قسى ، بل بوجي من
ربه ، والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل .

٩- السيدة جويرية رضى الله عنها

هى ثالثة السيدات العربيات من غير قریش ، وهى السيدة جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبیب بن أبى عائذ بن مالك بن خزيمه ، وهو المصطلق بن سعد بن كعب بن عمرو ، وهو خزاعه ، وكانت متزوجه مسافم ابن صفوان المصطلقى المقتول كافراً يوم اليرسيه « وغزوه اليرسيه كانت فى شعبان سنة خمس » وكانت جويرية قد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى الخزرجى خطيب الأنصار ومن كبار الصحابة بشره النبي ﷺ بالجنة فقتل شهيداً باليمامة ولما وقعت فى سهمه كاتبته على نفسها بتسع أواق من ذهب ، وكانت بنت سيد المصطلق ، وكانت ذات بهجة وحسن منظر ، فجاءت رسول الله ﷺ ، وقالت يا رسول الله : إني امرأة مسلمة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، وأنا جويرية بنت الحارث سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، ووقعت فى سهم ثابت بن قيس ابن شماس ، وإني كاتبته على نفسي فكاتبني على مالا طاقة لى به ، ولا قدرة لى عليه ، وهو تسع أواق من الذهب ، وجئت أسألك فى كتابتي فقال ﷺ : فهل لك إلى ما هو خير ؟ فقالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال أؤدى عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت نعم يا رسول الله قد فعلت ، فأرسل إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال ثابت : هى لك يا رسول الله ، بأبي وأمي ، فأدى ﷺ ما كل من كتابتها وأعتقها وتزوجها

فتسامع الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جوربة فاعتقوا ما بأيديهم من السبي الباقي بلا فداء ، وقالوا هم أصهار رسول الله ﷺ فاجتدت امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها ، أعتق بسببها أهل مائة بيت من بني المصطلق ، وجاء أبوها لفتاها بابل معه ، فرغب في بعيرين منها ، فقبضهما بالعقيق ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فقال يا محمد هذا فداء ابنتي ، فقال ﷺ فأين البعيران اللذان غيبتهما في المقيق ، فقال الحارث : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنتك رسول الله ، فوافقه ما اطلع على ذلك إلا الله ، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له ، وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين ، فجاء بهما ودفع الابل إلى النبي ﷺ ، ويروى أنه لما قدم أبوها ليأخذها ، قال له النبي ﷺ ، أرأيت إن خيرتها ، أليس قد أحسنت ، قال بلى ، فأناها أبوها ، فقال : إن هذا الرجل قد خيرك فلا تضحينا ، قالت : فاني أختار الله ورسوله ، وأسلم بسببها بنو المصطلق وحسن إسلامهم ، وكان زواجها سنة خمس ، وسنها عشرون سنة ، فأكرمها الله بالإسلام ، وزواجها بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فلا الله قلبها نورا وإيماناً ، وزادها رفة وعلواً ، وشرفاً وفضلاً ، وأصبحت من المؤمنات العابدات ، والقاتات الصالحات ، روى أن النبي ﷺ مر بها ، وهي في مسجدتها أول النهار ، ثم مر عليها قريباً من الزوال « وهي في مسجدتها تميد الله لم تهرجه ، فقال لها : ما زلت على حالك قالت نعم ، قال ألا أعطيك كلمات تقولينهن : سبحان الله عدد خلقه ثلاث مرات ، سبحان الله رضاه نفسه ثلاث مرات ، سبحان الله زنة عرشه ثلاث

مرات ، سبخان الله مداد كلماته ثلاث مرات ، وكان زواجها بعد زواج
السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنهما ، وقد حجبتها النبي ﷺ وقسم
لها نهم زوجاته ، وتوفيت بالمدينة في ربيع الأول سنة خمسين وصلى
عليها مروان بن الحكم وهو أمير المدينة في خلافة معاوية ، وقد
روى عن النبي ﷺ أحاديث ، وروى عنها ابن عباس وجابر وابن عمر
وغيرهم رضي الله عنها وعنهم أجمعين : فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها
فأعتقها من السبي والأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من النل ،
وأكرمها من الإهانة ، وكان هذا الزواج سبباً في عتق قومها وإسلامهم
وإعزازهم بالإسلام ، وإكرامهم بصحبة النبي عليه الصلاة والسلام ،
فكان القصد من هذا الزواج هو إكرام الضيف ، وإفانة الملوف ،
وقل الرقاب من الرق ، والاكثر من عدد المسلمين : والترغيب في
اعتناق هذا الدين ، وقد كان ما قصده السيد الأمين ، رسول رب
العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

١٠ - السيدة ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها

هي رابعة السيدات العربيات من غير قریش ، وهي ميمونة بنت
الحارث بن حزن بن بجير بن هزم بن دويبة بن عبد الله بن هلال بن
طامر بن صعصعة الهلالية ؛ وأما هند بنت عوف بن زهير بن الحارث
ابن سحابة بن حمير الحميرية ، وقد عقد عليها ﷺ في شوال سنة سبع
ومنهن أزواجه خمسين سنة وسنة إحدى وستون سنة وظهر أمر زواجها

وهو ﷺ محرم في ذى القعدة في عمرة القضاء ودخل بها بعد أن أُجِّل من هذه العمرة بسرف بطريق مكة على عشرة أميال منها ، وذلك أنه ﷺ أقام بمكة ثلاثاً في عمرة القضاء ، فأتاه حويطب بن عبد العزى ، وسهيل بن عمرو (وقد أسلما بعد) أتيا في قمر من قريش في اليوم الثالث ، فقالوا له قد اقضى الأجل فاخرج عنا وكان شرط في الحديبية أن يعتن من قابل وقيم بمكة ثلاثاً ، فقال وما عليكم لو تركتموني فأعرسنا بين أظهركم ، وصنعت لكم طعاماً فخرتموه ، فقالوا لا حاجة لنا بك ولا بطعامك ، فغضب سعد بن عبادَةَ وقال لسهيل كذبت لأمك ، ليست بأرضك ولا أرض أيسك ، والله لا يرح إلا طائفاً راضياً ، فتبسم النبي ﷺ ، وقال يا سعد لا تؤذ قوماً زارونا في رحابنا ، فخرج ﷺ وخلف أبا رافع على ميمونة فأقام حتى أمسى ، فخرج بها فلقيت من سفهاء مكة عناء ، فأتاه بها بسرف ، فبنى بها في قبة لها ، قالت رضي الله عنها تزوجني رسول الله ﷺ ونحن حلالان بسرف ، وكان صداقها خمسمائة درهم ، وولّى زواجها العباس بن عبد المطلب ، وهي خالة بن عباس وخالد بن الوليد رضي الله عنهما ، وأخواتها أم الفضل لبابة الكبرى زوج العباس رضي الله عنها ، ولبابة الصغرى أم خالد ابن الوليد رضي الله عنهما ، وعزة وهزيمة وأسماء وسلمى وكاهن صحابيات منجيات رضي الله عنهن ، ولذلك كان يقال أكرم عبوز في الأرض أصهاراً هند بنت عوف أصهارها رسول الله ﷺ وحمزة والعباس وعلي وجعفر وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم ، وكانت ميمونة قبل النبي

ﷺ عند أبي رهم بن عبد العزى ، وتوفيت سنة إحدى وخمسين بسرف وهو للسكن التي نبى بها رسول الله ﷺ فيه ، وصلى عليها ابن عباس رضى الله عنها ودخل قبرها هو ويزيد بن الأصم وعبد الله بن شداد ، وم أولاد أخواتها ، ودفنت فى موضع قبتها بسرف ، وروى عنها ابن عباس أحاديث ، وقد عمرت حتى نيفت على التسعين رضى الله عنها ، فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها كبيرة السن ثيبا ، وتزوجها لايواتها وحفظها بعد وفاة زوجها ، وكانت لها أخوات متزوجات برجال أفذاذ كرام ، فتزوجها لاحكام الصلاة بهم ، وبسبب هذا الزواج أسلم خالد بن الوليد سيف الاسلام ، وغيظ الأعداء ، فكان قصده ﷺ الدين لا الدنيا وغرضه الآخرة لا الأولى . وإلا لم يتزوج بنت خمسين وتزوج بكرا بنت عشرين فأقل ، ولكنه النبي المعصوم الذى يريد وجه الله والدار الآخرة فى كل أموره عليه الصلاة والسلام .

١١ - السيرة صفية رضى الله عنها

هى السيدة غير العربية من نسائه ﷺ كانت من بني اسرائيل وهى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب من بني النضير من سبط لاوى ابن يعقوب ثم من ولد هرون بن عمران أخى موسى عليها السلام ، قال الجاحظ ولد صفية مائة نبى ومائة ملك ، ثم صيرها الله أمة لنبيه ﷺ فأعتقها ، وكان أبوها سيد بني النضير قتل مع بنى قريظة ، وكانت صفية زوجة لسلام بن مشكم القرظى ثم فارقها فخلف عليها كنانة بن أبي الحقيق

فقتل عنها يوم خير في المحرم سنة سبع للهجرة ، فأخذت رضى الله عنها في السبي ، ولما جمع السبي أتى دحية بن خليفة فقال يا رسول الله أعطني جارية من السبي ، قال اذهب فخذ جارية ، فأخذ السيدة صفية ، فقيل له : يا رسول الله أخذ دحية صفية بنت حيي سيد قريظة وسيد النضير ، ما تصلح إلا لك ، لأنها من بيت رياسة وبيت نبوة ، قال ادعوه بها فجاء بها ، فقال له خذ جارية غيرها ، وذلك لثلاث امتياز بها دحية عن سائر الجيش وفي الجيش من هو أفضل منه ، ولثلاث قلل عنده وهي من بيت الملك والنبوة . قالت رضى الله عنها : أعتقني ﷺ وجعل عتقي صدقي ، فلما كان بالصهباء على عشرة أميال من خير طهرت واغتضت عذتها فدخل بها النبي ﷺ في فسطاط له ، ولما أصبح قال : من كان عنده شيء فليجيء به وبسط نطعا وجاء كل مما عنده من الطعام وجمعوا ذلك وخلطوه فكانت هذه ولیمها ، ومد الحجاب بينها وبين الناس ، فهي من أمهات المؤمنين ، ولما ارتحلوا وضع ﷺ لها فخذها لتركب الراحة ، فأجلته أن تضع رجلها على فخذها ، فوضعت ركبها على فخذها وركبت وسار الركب حتى دخلوا المدينة ، وأنزلت في بيت لخارثة بن النعمان ، فجاء نساء الأنصار وجاءت عائشة يستقبلنها ويرين جمالها . فسأل النبي ﷺ عائشة رضى الله عنها فقال : كيف رأيت بعائشة . ؟ قالت رأيت يهودية ، قال : لا أقول ذلك فلما أسلمت وحسن إسلامها وعن صفية رضى الله عنها قالت دخل على رسول الله ﷺ وأنا أبكي وقد بلغني أن عائشة وحفصة رضى الله عنهما قالتا نحن أكرم على رسول الله ﷺ

منها ، نحن أزواجه وبنات أعماله ، فقال ما يبكيك ؟ فذكرت له ذلك فقال : ألا قلت كيف تكونان خيراً مني وزوجي محمد وأبي هرون وعمي موسى عليهم الصلاة والسلام ، وكانت رضى الله عنها عاقلة حليلة فاضلة ، ولما كان ﷺ في مرضه الذى توفى فيه اجتمع عنده نساؤه رضى الله عنهن ، فقالت صفية : إني والله يا نبي الله لوددت أن الذى بك بي ؛ فتنامرن بها فقال ﷺ : والله إنها لصادقة ، وقدرت عنه ﷺ أحاديث وروى عنها غيرها ، وتوفيت في رمضان سنة خمسين في زمن معاوية ودفنت بالبقيع ومنها ستون سنة ، روى عنها أنها قالت : ما بلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ فمضى على ذلك ولدت بعد البعثة بثلاث سنين رضى الله عنها . فترى من ذلك أن زواجها كان لصيانتها وحفظها وفكها من الرق والعبودية ، وقد خيرها النبي ﷺ بينه وبين أهلها فاختارته عليه الصلاة والسلام ، فأكرمها كل الأكرام وقصد ﷺ بهذا الزواج فوق ذلك أن يرغب الاسرائيليين في الاسلام فهو لاء السيدات الكلمات أزواجه الطاهرات اللاتي دخل بهن بلا خلاف ، وهن زوجاته في الدنيا والآخرة ، وقد علمت أنه ماتزوج بواحدة منهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية ، وأغراض شريفة سامية ، وهو عليه الصلاة والسلام مرسل للتبليغ وأم وأعظم ما يبلغه متعلق بالأسرة وأحوالها وأحوال الرجل مع المرأة وأحوال المرأة مع الرجل ، وأحوال المرأة الخاصة ، وهذه الأحوال عليها قوام الأسرة ، وحياة الامة ، وهى معقد نظامها ، وأساس بقائها — لذلك تعددت

زوجاته السكريات لينقلن عنه تلك الأحوال البيتية الدقيقة المتعلقة
 بالمرأة والرجل من طهارة وغسل وحيض وقلم وولادة ورضاع وما
 إلى ذلك من أمور البيت السرية التي يتعلمها النساء بعضهم من بعض
 من غير استحياء ولا خجل فيعرفن حكم الدين على وجه الصحيح
 وقد روى الأحاديث البيتية عن النبي ﷺ أزواجه الطاهرات، والسيدة
 عائشة من ذلك النصيب الأوفر، بطول عشرتها معه ﷺ وتربيتها
 في كفالته وهي بنت تسع سنين مع ما وهبها الله تعالى من ذكاء وفطنة
 وعلم وفهم رضى الله عنها، والنبي ﷺ ليس كسائر الناس تكون
 مفارقتهم سهلة على النفس، حتى كان يفارقه من زدن على الأربع، فإن
 أبابكر رضي الله عنه كان لا يهدأ له مقام بعيدا عن النبي ﷺ، فكان
 لا يفارقه إلا عند الضرورة، ومتى كان معه لا يفعل عن النظر إليه، وكان
 هو والصحابة رضى الله عنهم لا يمدون من عمرهم الأوقات التي تغضى
 عليهم في غير حضرة النبي ﷺ، فابالك بالنساء اللاتي يقول فيهن الله
 تعالى (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) إيهن رضى الله عنهن قد
 رأين وشاهدن وعلمن عنه ﷺ ما جعلهن يفضلن الموت على مفارقتهم،
 وجعل حفصة رضى الله عنها تبكي بكاء التكل حين علمت أنه طلقها
 ولم نهدأ حتى راجعها، وجعل سودة رضى الله عنها تصرح بأنها لا تبغى
 إلا التشرف بأن تكون من أزواجه في الدنيا والآخرة، وجعلن جميعا
 يحشين غضبه، ويخفن فراقه، ويحترن الله ورسوله والدار الآخرة على
 الدنيا ومتاعها، وهو ﷺ الرموف الرحيم بالمؤمنات والمؤمنين، وقد

أباح الله له الطلاق في قوله (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) ولكنه لم يفعل شفقة منه ورحمة ، وأباح الله له الجمع بين أكثر من أربع لأنه لا يأخذ ويطلق كغيره ، بل يأخذ ويرى ويهذب ويعلم ويزكى ويطهر كما قال جل شأنه (وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) ولم يجمع بين أكثر من تسع ، وقد قصره الله على هؤلاء التسع اللاتي توفى عنهن بقوله (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) فكان غيره من المسلمين يأخذ أربعاً وله أن يطلق ويأخذ غيرهن وهكذا في حدود الشرع والمعدل ، أما هو ﷺ فكان له أن يطلق ، ولكن ليس له أن يأخذ غير من يطلق ، فكانه مقيد بما لم يتقيد به غيره وذلك أظهر دليل على أنه لا يعمل إلا عن وحى ، ولا يصدر إلا عن أمر ولم يطلق واحدة منهن ، لأن الله حرمهن على غيره من بعده مع إباحة الطلاق له ؛ قال تعالى (وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا) فمع إباحة الطلاق له لم يفعله رحمة ورفقة بمن يطلقها أن تبقى بلا عائل ، فكانه كان مقيداً عن الطلاق والزواج ، في حين أن غيره من أتباعه يباح له الطلاق والزواج فكيف يقول الجاهلون إنه خص نفسه بما لم يبيحه لغيره ، وغيره ﷺ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمع بين الزوجات أكثر منه كثيراً ، فلم يأت ﷺ بمالم يأت به غيره من الأنبياء ، ولم يكن بدطامن الرسل ، ولم يفعل ما فعله ﷺ إلا عن وحى قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ

أَزْوَاجَكَ) وقال (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) ولما اجتمع عنده التسع قال له (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ)

أما بعد فقد كان لزوجها ﷺ بأكثر من أربع وجمعه بينهم أكبر هاد للمسلمين في دينهم ومعاملتهم لأزواجهم وإقامة العدل ، وإكرام العشير ، وقرير الأحكام والنظر إلى الصالح العام ، وبهذا الزواج أوثق روابط الصلة بين القبائل من قريش وغيرها ويسر السبيل لدخول كثير منهم في الاسلام ، وأوى كثيرا ممن فقدن أزواجهن ، ولو كان يريد بالتعدد ما يريد الملوكة والامراء من التمتع واللذة ليس غير لاتتعب الحسان الأتكل ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات للكهلات الكبيرات ، ولكنه النبي المعصوم الذي وهب نفسه وقوته وحياته لرفعة الدين ، وهداية المسلمين ، والرحمة بالمؤمنين ، (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ

بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبَاتٍ فِيهِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَبِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ الْحَدِيثُ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُوْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاقْتُلُوا لَيْسَتْحِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَلْسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ

لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ
تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَيْنِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كُنَ عِنْدَ اللَّهِ
عَظِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

أنهيت الكلام على السيدات الطاهرات بذكر نبذة عن حياة كل
واحدة منهن رضي الله عنهن وأستعين بالله في المضي في تفسير بقية
السورة حتى أتمها بفضل الله ونعمته فأقول وعلى الله أتوكل : -

مناسبة هذه الآيات لما سبقها أن كلا منهما في أحكام وأخبار تتعلق
بالسيدات الطاهرات ، فإن الله تعالى لما خبرهن بين الله ورسوله والدار
الآخرة وبين الدنيا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكأنهن على ذلك
بقصره ﷺ عليهن في قوله : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ) وكأنهن
بالصيانة والحفظ والحجاب في قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا
بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلخ وفي الآيات السابقة بين ما يجب رعايته من حقوقهن
على النبي ﷺ وفي هذه الآيات بين ما يجب مراعاته من حقوقهن على
الناس ، والسبب في نزول هذه الآيات ما عليه أكثر المفسرين من أنها
نزلت في شأن ولية زينب بنت جحش حين نبي بها رسول الله ﷺ .
روى الشيخان عن أنس بن مالك قال كنت أعلم الناس بشأن الحجاب
حين أنزل ، وكان أول ما أنزل في بناء رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش
حين أصبح النبي ﷺ بها عروساً . فعما القوم فأصابوا من الطعام ، ثم

خرجوا ويقرهم عند النبي ﷺ ، فأطالوا المكث ، فقام رسول الله ﷺ فخرج وخرجت معه ، لكي يخرجوا ففتى النبي ﷺ ومشيت حتى جاء عتبة حجرة عائشة ، ثم ظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه حتى إذا دخل علي زينب فاذا هم جلوس لم يقوموا ، فراجع النبي ﷺ ورجعت ، حتى إذا بلغ حجرة عائشة فظن أنهم قد خرجوا فرجع ورجعت معه فاذا هم قد خرجوا ، فضرب النبي ﷺ بيني وبينه الستر ، وأنزل الحجاب ، وزاد في رواية قال دخل : يعني النبي ﷺ البيت وأرخصي الستر . وإني لفي الحجرة وهو يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) إلى قوله (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المواضع الخالية لقضاء الحاجة من البول والغائط ، وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء ، وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر : ألا قد عرفناك يسودة ، حرمناكم أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلخ ، أنزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون قبل الطعام ، ويجلسون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم ، فنزلت الآية ، وروى
عن أنس بن مالك قال قال عمر بن الخطاب يا رسول الله يدخل عليك البر
والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب .
وعن عائشة رضي الله عنها قالت كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم
طعاما في قعب ، فر عمر فدعاه فأكل فأصابته أصبعه أصبعي ، فقال عمر
أوه ، لو أطلع فيمكن مارأتكن عين ، فنزلت آية الحجاب ، وعن قتادة
رضي الله عنه في قوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلى
قوله : (غَيْرَ نَازِلِينَ إِلَّا نَاهُ) قال غير متحيين طعامه (وَلَكِنْ إِذَا
دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا) قال كن هذا في بيت أم سلمة
رضي الله عنها : أكلوا ثم أطلوا الحديث ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم
يخرج ويدخل ويستحيي منهم والله لا يستحيي من الحق (وَإِذَا
سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَلَسَّأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) قال بلغنا أنهم أمروا
بالحجاب عند ذلك (لِاجْتَنَاحِ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ) قال فرخص لمن ألا
يحتجب من هؤلاء . وروى عن أنس رضي الله عنه قال : لما تزوج النبي
ﷺ زينب أهدت إليه أم سليم حيسا في قدر من حجارة ، فقال النبي
ﷺ اذهب فادع من لقيت من المسلمين ، فدعوت له من لقيت فجعلوا
يدخلون فيأكلون ويخرجون ، فوضع النبي ﷺ يده على الطعام فدعا
فيه ، وقال فيه ما شاء الله أن يقول ، ولم أدع أحدا لقيته إلا دعوته ،
فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا ، وبقيت طائفة منهم فأطلوا عليه الحديث

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ) إِلَى قَوْلِهِ (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) وَهَذَا أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : نَزَلَ الْحِجَابُ مِنْ بَيْتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَذَلِكَ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَحُجِبَ نَسَاؤُهُ مِنْ يَوْمِئِذٍ ، وَأَنَا ابْنُ خَمْسٍ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَعَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ قَالَ نَزَلَ حِجَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا ذَكَرَ جَمِيعَهُ مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَقَدْ وَافَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رَأْيَ صَاحِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ

وَبِهَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ أَذْكَرُ الْحَوَادِثِ الَّتِي وَافَقَ فِيهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ رَأْيَ صَاحِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١ - هَذِهِ الْحَادِثَةُ حَادِثَةُ الْحِجَابِ . قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَارَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَلَوْ أَمَرْتُ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةَ الْحِجَابِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ) إلخ
٢ - اتَّخَذَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُصَلًى ، قَالَ صَاحِبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَارَسُولَ اللَّهِ : لَوْ اتَّخَذْتُ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًى) وَالْمَعْنَى (اتَّخِذُوا) أَيُّهَا النَّاسُ (مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ) عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَهَذَا الْمَقَامُ هُوَ الْحِجْرَةُ الَّتِي قَامَ

عليه عند بناء البيت الحرام، وهذا الحجر غير الحجر الأسود، وطوله ذراع وعرضه ذراع، ومن بمعنى عند والمعنى اتخذوا عند مقام إبراهيم عليه السلام (مُصَلًّى) مكاناً للصلاة، بأن تصلوا عنده ركعتي الطواف.

٣ - حادثة أسرى بدر، فقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضى الله عنهم في أمر أسارى بدر فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله هؤلاء أئمة الكفر فاضرب أعناقهم، وقال أبو بكر رضى الله عنه تأخذ الفداء ونطلقهم، عسى أن يسلموا، فكانت أغلبية الصحابة على رأى أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين، فعمل الرسول بهذا رأى وأطلقهم، وأخذ الفداء منهم، ومن لم يستطع أن يفدى نفسه كان فداؤه تعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، فنزل القرآن الكريم بموافقة عمر رضى الله عنه، في قوله تعالى (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْتَغَى فِي الْأَرْضِ) ويبالغ في قتال الكافرين للمعاندین المحاربين (تُرِيدُونَ) أيها المؤمنون الذين رأوا أخذ الفداء (عَرَضَ) حطام (الدُّنْيَا) بأخذ الفداء (وَأَقْبَهُ) عز وجل (يَرِيدُ) لكم (الْآخِرَةَ) ثواب الآخرة بقتلهم والاتصاف عليهم حتى يرتدع بهم غيرهم من أشغالهم الواقفين عقبه كثودا في سبيل الدين ونصرة المسلمين (لَوْلَا كِتَابٌ) لولا حكم (مِنْ اللَّهِ) العزيز العليم (سَبَقَ) في اللوح المحفوظ باحلال الغنائم والأسرى لكم (لِمَسَّكُمْ) لآصه ابكم (فِيمَا) بسبب ما (أَخَذْتُمْ) من الفداء (عَذَابٌ عَظِيمٌ) شديد لا ينار

العاجلة على الآجلة ، ولما نزلت هذه الآية بكوا وكفوا أيديهم عن
 القداء فنزل قوله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) فصار الحكم بعد
 ذلك في الأسرى الاثنان في القتل ثم اخیار في الأسرى ، بالقتل أو العتق ،
 أو القداء بالمال أو بنظيرهم من المسلمين للأسودين ، كما قال تعالى (فَأَمَّا
 مَنْ بَعْدَ) أي بعد القتل والأسر ، ولما أطلقهم عتق (وَإِمَّا فِدَاءً)
 بالمال أو بنظيرهم من المسلمين للأسودين ، وإما أن يبقوا أرقاء ، ورضى النبي
 ﷺ رأى الأغلبية أخذوا عبد الشورى من العمل برأى الأغلبية ، ولأن
 فيه حقنا للدماء ، وتألفوا للأسرى وأهلهم عسى أن يسلموا ، وتألفوا لمن أسلموا
 ولهم في الأسرى قرابة ، ولم يكن قد نزل حكم يمنع أخذ القداء فليس
 عليه ﷺ أي مأخذ في ذلك ، لأنه قصد هذه المقاصد الشريفة ، ولم
 يبد رأيه في القداء بل صار مع الأكثرية التي أقر الله رأيها بعد ،
 فنزل قوله تعالى : (فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا) ومما غنموا
 الأسرى ، وقوله تعالى في الأسرى : (فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً)

٤ — حادثة مارية القبطية رضي الله عنها . وذلك أن حفصة زوج
 النبي ﷺ استأذنته في يومها أن تزور أبويها ، فأذن لها ، وأرسل إلى
 مارية فجاءت إليه في بيت حفصة ، فلما رجعت حفصة ورأت مارية في بيتها ،
 غضبت فأمر إليها النبي ﷺ أنه لا يقرب مارية وحلف لها على ذلك ، وأمر
 إليها أن الخلافة بعده لأبي بكر ثم عمر ، فأفشت سره إلى عائشة ،
 وكانت تحبها ، ففرحتا ، وكان ذلك الإفشاء والفرح تظاهرا بمنعها عليه ﷺ

فأسف الرسول من تظاهرها ، وإفشاء حفصة سره إلى عائشة ، خلف
ألا يدخل على نسائه شهراً مؤاخذه لمن ، ومكث الشهر في بيت مارية
بعد أن كفر عن عيمين تحرهما بعثت رقية ، وعلم بذلك عمر رضي الله عنه ،
وشاع في الناس أنه ﷺ طلق نساء لما اعترلن ، فقال عمر : يا رسول الله :
لا يشق عليك أمر النساء ، فإن كنت طالقتهن ، فإن الله معك وملائكته
وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، قال عمر : وقاماً
تكلمت بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولي الذي أقوله ، فأنزل الله
تعالى : (وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ) وقال عمر رضي الله عنه
لأهات المؤمنين حين اجتمعن رضي الله عنهن على الرسول يطالبنه
بنفقة كثيرة : تكففن عن رسول الله ﷺ أو يبده الله أزواجاً خيراً
منكن ، فأنزل الله تعالى : (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ
أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ) . ولما انتهى الشهر تسعاً وعشرين حاد ﷺ
إلى نسائه ، وبدأ بعائشة رضي الله عنها ، فاستأذنه عمر رضي الله عنه
أن يحبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له ، فقام على باب المسجد ، ونادى
بأعلى صوته : لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ، واعلم أنه لا شيء في
تحريم مارية رضي الله عنها لأنه ليس تحرماً مؤبداً ، بل له أن يرجع
فيه متى شاء ، وقد حصل ورجع وكفر عن عيمينه بعثت رقية ، وكان

هذا التحريم لمنع ما كان سيقع من الخصام بين أزواجه رضى الله عنهن
وليكون هذا التحريم والرجوع فيه بالعتق تشريفاً للمسلمين .

٥ - حادثة عبد الله بن أبي بن سلول الذى كلن رأس للناهقين ،

وهو الذى تولى كبر حديث الافك ، وإشاعته فى الجيش وهم راجعون

من غزوة بنى المصطلق ، وهو المقصود بقوله تعالى : (وَالَّذِي تَوَلَّى

كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) وذلك أنه لما توفى عبد الله بن أبي

ابن سلول جاء ابنه عبد الله رضى الله عنه فدعا النبي ﷺ ليصلى على أبيه

رجاه أن يغفر الله لأبيه فأجابته النبي ﷺ إلى مادعا تسلياً له ومراعاة

لجانبه ، وكان عبد الله طلب إلى النبي ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه

فيه أباه لعله أن يخفف الله عنه بسببه ، فأعطاه النبي ﷺ قميصه وصلى على

أبيه تطيباً لقلبه رضى الله عنه ، فانه كلن من خيار الصحابة ، وكلن

من أصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة ، وأشرحهم بالآيمان صدره ، فلما

قام النبي ﷺ يصلى على عبد الله بن أبي بن سلول ، حال عمر رضى الله

عنه دون ذلك ، فأخذ بثوب النبي ﷺ ومنعه من الصلاة عليه ،

ولكن الرسول لم يمتنع وصلى عليه فنزل قوله تعالى : (وَلَا تَصَلُّ عَلَى

أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

وِرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) فلما نزلت هذه الآية لم يضل

بعدهما رسول الله ﷺ على منافق ولم يقم على قبره ، وهذه الحادثة

تدبنا على كمال خلقه صلى الله عليه وسلم ، وعظيم عفوه ، وكبير صفحه ،
وحسن عطفه على أصحابه رضى الله عنهم .

٦ - حادثة الاستغفار للمنافقين . لما فضح الله المنافقين بما أنزل
فيهم من القرآن ، وعلموا أنهم كاذبون ، سألوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن يستغفر لهم ، فاستغفر لهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى
أن يهديهم إلى الصواب ، فنزل قوله تعالى (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ
لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) فقال صلى
الله عليه وسلم : « لا زيدن على السبعين » زيادة في الرحمة وحبا في الخير
وأخذ في الاستغفار لهم ، فقال مريار رسول الله ؛ والله لا يغفر الله لهم أبداً
استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لأنه رضى الله عنه شاهد وعلم ما فعلوه
وأثوه من الاضرار بالرسول وأصحابه والكر والكيدهم ، وضروب
النفاق التي أوقعت به ﷺ وأصحابه أذى شديداً مما جعلهم من أهل
النار وأصحاب جهنم لعنهم الله فأنزل الله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ
لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) فلمتنع عن الاستغفار لهم .

٧ - لما نزل قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ
مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُوتَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُوتَةَ
عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا
الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) قال عمر : تبارك الله أحسن
الخالقين ، فنزل قوله تعالى : (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

٨ - لما قال أهل الافك في السيدة عائشة ما قالوا استشار النبي صلى الله عليه وسلم عمر رضى الله عنه فيها ، فقال عمر يا رسول الله من زوجكها ؟ قال الله تعالى : قال أفيظن عن اختارها الله رسوله ، سبحانه هذا بهتان عظيم ، فأنزل الله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ، سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) .

٩ - كان عمر رضى الله عنه حريصاً على تحريم الخمر ، لما رآه من مضارها ، وكان يقول : اللهم بين لنا في الخمر فأنها تذهب المال والعقل . فأنزل الله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) فتلاها عليه النبي صلى الله عليه وسلم فلم ير فيها يائناً شافياً ، فأنزل الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) فتلاها عليه النبي صلى الله عليه وسلم فلم ير فيها يائناً شافياً ، فقال اللهم بين لنا في الخمر يائناً شافياً فنزل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ) فتلاها عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال رضى الله عنه عند ذلك : انتهينا يا رب انتهينا

١٠ — أرسل رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار إلى عمر رضي الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل بيت عمر من غير استئذان ، فزأى عمر على حالة كره عمر رؤيته عليها ، فقال عمر : يا رسول الله ، وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان ، فأنزل الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْإِجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ ، طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

١١ — لما نزل قوله تعالى : (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) ينكى عمر وقال يا رسول الله ، وقليل من الآخرين ، آمنا برسول الله ﷺ ، وصدقناه ، ومن ينجو منا قليل ، فأنزل الله تعالى : (ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ) فدعا رسول الله ﷺ وقال له قد أنزل الله فيما قلت ، فهلل وجهه بشراً وسروراً ، وتلك المواقفات مما تدل على مكانة عمر رضي الله عنه وبعد نظره مما جملة ثلثي الخلفاء الراشدين والائمة المعادين رضي الله عنهم أجمعين ، وأعود للتفسير فأقول : قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله ، وبما أنزل عليه من ربه

(لَا تَدْخُلُوا) في أى حال من الأحوال ولا في أى وقت من الأوقات
 (يُوتَ النَّبِيُّ) محمد ﷺ وهنا شروع في بيان بعض الحقوق الواجبة
 على الناس للنبي ﷺ وهو عند نسائه الطاهرات رضي الله عنهن بعد
 ما بين الحقوق الواجبة لمن على رسوله ﷺ ، وفيه بيان لبعض
 حقوقهن الواجبة على الناس ، والنهي في قوله (لَا تَدْخُلُوا) للتحريم ،
 وأصناف البيوت إلى النبي ﷺ لأنها ملكه ، وأما قوله : (وَأَذْكُرَنَّ
 مَا يُتْلَى فِي يَوْمِكُنَّ) فالإضافة إليهن لأنها منازلهن لا ملكهن ،
 ولذلك تورث عنهن بعد وفاتهن ، بل جعلت زيادة في المسجد النبوي الذي يعم
 المسلمين قومه ، ولأن الله تعالى جعل الاذن في الدخول فيها إلى النبي ﷺ
 في قوله : (إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) في دخولها منه ﷺ لأنه رب
 هذه البيوت ، والاستثناء من عموم الأحوال أو الأوقات ، والمعنى
 لا تدخلوا في حال من الأحوال إلا حال الاذن لكم ، أو لا تدخلوا في
 وقت من الاوقات إلا وقت الاذن لكم ، فالصدر المؤول من أن والفعل
 مضاف أو منصوب على الحال ، والمعنى لا تدخلوا إلا وقت الاذن لكم أو إلا
 مأذونين ، أو متعلق بالحال والتقدير إلامصحوبين بالاذن ، وعلى ذلك يحرم
 الدخول بغير إذن مطلقاً ، وقوله : (إِلَى طَعَامٍ) متعلق بقوله (يُؤْذَنُ) مضمناً
 معنى تدمي ، فالمعنى لا تدخلوا إلا أن تدعوا إلى طعام ، وقيد الدخول
 بقوله إلى طعام لأنه التالاب في الدعوة ، ولأن الحادث كانت في الدعوة
 إلى الطعام ، وهو طعام السيدة زينب زوج النبي ﷺ ، وللمراد إلى

طعام أو غيره، ثم قيد الدخول بقيد آخر وهو قوله: (غَيْرَ نَاطِرِينَ) غير منتظرين (إِنَاهُ) نضجه واستواءه وإدراكه، فالمعنى لا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم ولا تدخلوا غير منتظرين إناؤه، وإني كرمنا مصدر سماحي، لأنه من أنى يأتي كرمى برى، فقياسه الأنى كالرمى. ولما كان هذا النهى قد يمنعهم من قصد بيوت النبي صلى الله عليه وسلم استدرك على هذا النهى فقال: (وَلَكِنْ) لا يمنعكم هذا النهى عن قصد بيوته صلى الله عليه وسلم للتشرف به، وأخذ الشرع والحكمة عنه، وأكل طعامه، وشرب شرابه (إِذَا دُعِيتُمْ) إلى شيء من ذلك، فإذا دعيتهم (فَادْخُلُوا) بيوته صلى الله عليه وسلم حيث دعاكم، فإن كانت الدعوة للطعام (فَإِذَا طَعِمْتُمْ) وأكلتم الطعام، أو شربتم الشراب، ورأيتم أن لا داعي للانتظار، ولم يطلب منكم الانتظار (فَاتَّشِرُوا) في الأرض إلى منازلكم أو إلى أى جهة تشاءون (وَلَا) تمكثوا بعد الأكل في هذا البيت الذى دعيتهم إلى الطعام فيه (مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ) فيأنس بعضهم لحديث بعض، أو لحديث أهل البيت مما يطيل مكثكم، ويجعل صاحب البيت وأهله يتأذون منكم، وقد قيل زرعياً ترددجاء، والضيف يتقل إذا طال مكثه، ولذلك قال تعالى (إِنَّ ذَلِكَكُمْ) إشارة إلى الدخول بغير إذن، والدخول مع انتظار نضج الطعام، والمكث الطويل الممل بعد الأكل كل ذلك (كَأَن يُؤْذَى النَّبِيُّ) صلى الله عليه وسلم

لما فيه من تضيق للنزل عليه وعلى أهله ، ولأنه يشغله عما ينهه ويعنيه من السعى خلى المسلمين ، والخلوص لرب العالمين ، فوقه أمن من أن يصرف إلا في طاعة الله عز وجل ، أو في خيركم وقمعكم في دينكم ودنياكم ، ثم بين هذا الأذى بقوله (فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ) أن يخرجكم من بيته ، فيكظم ذلك في نفسه تأديباً منه ﷺ ، وشفقة عليكم ، وتألقاً لكم (وَ اللَّهُ) سبحانه وتعالى الذي يعلم ما ينفعكم وما يضركم ، ويعلم أن مكثكم يؤذى نبيه ﷺ (لَا يَسْتَحْيِي) لائمه (مِنَ الْحَقِّ) أن يذكره أى مانع ، فهو تعالى يقول الحق ويأمر به ويرشد إليه ، وقال لا يستحي للمشاكلة ، كما في قوله (وَ مَكْرُوا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) . وهذه الآداب ليست خاصة بالنبي ﷺ وأصحابه ، بل هي تشريع لكل المسلمين ، يجب على كل مسلم مراعاتها ، والعمل بها ، ومثل من يتأخر بعد الأكل ، من يتأخر قبل الأكل ولا يمتدز ، أو يحضر متأخراً يقصد بذلك أن يحترمه الناس بالقيام له وقت حضوره وأن يتأخر تقديم الأكل بسببه ، وما شاكل ذلك ، من المقاصد التي يراد بها حب الذات وحمل الناس على فعل ما يكرهون ، وعلى أن يفتابوه ، وكثير من الناس يفعل ذلك ولا يبالى ، فيضر الحاضرين ، ويضر نفسه ، ويضر صاحب المنزل ، الذي قد يقدم الطعام للحاضرين ، ثم يجي هذا المتأخر فيكره صاحب المنزل على أن يعدله طعاماً جديداً ، وفي ذلك ما فيه من الارتباك لصاحب المنزل وأهل المنزل ، وفي هذا أذى

كثير: ثم شرع يذكر حقاً آخر له ﷺ ولا مهمات المؤمنين على المؤمنين فقال عز وجل (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ) وإذا سألتن أزواجهن ﷺ (مَتَاعاً) وهو كل ما ينتفع به من ماعون وغيره (فَأَسْأَلُوهُنَّ) رضى الله عنهن ما تريدونه من المتاع (مِنْ وَرَاءِ) من خلف (حِجَابٍ) ستر يكون بينكم وبينهن بحيث لا تروهن (ذَلِكُمْ) الذى تقدم بيانه وهو عدم الدخول بغير إذن، وترك انتظار نضيج الطعام، وترك الاستئناس للحديث بعد الانتهاء من الأكل، وسؤال المتاع من وراء حجاب، كل ذلك (أَطْهَرُ) أكثر تطهيراً (لِقُلُوبِكُمْ) مما يعرض لها عند الاجتماع بالسيدات ودروتهن (وَ) هو أكثر تطهيراً (لِقُلُوبِهِنَّ) مما يعرض لها عند هذا الاجتماع وتلك الروية قال القرطبي (ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) يريد من الخواطر التى تعرض للرجال فى أمر النساء، وللنساء فى أمر الرجال، أى ذلك أنقى للريسة، وأبعد للهمة، وأقوى فى الصيانة والحفظ، وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه فى الخلوة مع من لا تحل له، فإن مجانبته ذلك أحسن لحاله، وأحسن لنفسه، وأتم لمصمته، ثم أكد حرمة ما نهى عنه، وبين أن أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم لا تحل لأحد من بعده فقال عز وجل (وَمَا كَانَ) وما صحح ولا استقام وما أيسح (لَكُمْ) أيها المؤمنون (أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بأى

نوع من أنواع الأذى التي سبق بيانها، من دخول بيوته بغير إذنه، أو دخولها، منتظرين نضج الطعام، أو دخولها مستأنسين لحديث بعد أن قطعوا عنده أو أن تسألوا أزواجه بلا حجاب، أو غير ذلك من أنواع الأذى، ومن هذا ومما سبق يعلم أن صاحب الاذن في دخول البيوت هو الرجل، فليس لمسلم أن يدخل بيت أخيه المسلم في غيبته متى كان أجنبياً منه وقد أنزل الله آيات الاستئذان في سورة النور شارحة آداباً عالية لو اتبعناها وعملنا بها ما وقع شيء من تلك الحوادث الدامية الذاهبة بالشرف والاعراض مما تقرأه في الصحف من وقت لآخر، وسببها التفريط في تلك الآداب السامية، لا يحل لكم أن تؤذوا رسول الله ﷺ (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوا) تزوجوا (أَزْوَاجَهُ) رضى الله عنهن (مَنْ بَعْدَهُ) من بعده وفاته ﷺ (أَبْدًا) تحريمًا مؤبدًا لا طريق لجوازه مطلقاً، روى أن طلحة بن عبيد الله قال: إذا قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة رضى الله عنها، فنزل قوله تعالى (وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مَنْ بَعْدَهُ أَبْدًا) فندم طلحة رضى الله عنه وشى إلى مكة على رجله من المدينة، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله، وأعتق رقيقاً، فكفر الله عنه، ثم أكد حرمة ذلك بقوله تعالى (إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا أُلْهِمُوا) ونكاح أزواجه من بعده (كَانَ عِنْدَ اللَّهِ) تعالى في حكمه وشرعه ذنباً (عظيماً) وإثمًا كبيراً يعاقب عليه في الدنيا والآخرة، وفي هذا إشارة إلى علو مقامه ﷺ عند ربه عز

وجل ، فقد شدد في مراعاة ذلك تشديداً كبيراً ، ثم شرع يأمر بأمر مراعاة ذلك في السر والجهر والخفية والعلن ، وألا تعمل مع رسول الله ﷺ ولا مع غيره إلا الذي يرضاه الله تعالى ويحبه فقال عز وجل : (إِنْ تُبْذُلُوا شَيْئًا) مما يؤذيه ﷺ أو يؤذى غيره من المؤمنين مما سبق بيانه لنكم ، أو غيره من أنواع الأذى (أَوْ تَخَفُوهُ) في صدوركم أو تعملوه في الخفاء (فَإِنَّ اللَّهَ) تعالى (كَانَ) ولا يزال (بِكُلِّ شَيْءٍ) ظاهر أو خفي (عَلِيمًا) لا يذب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فهو يعاقب من خاف ويجزى من أساء ، وكل ما ورد في هذه الآيات من الأحكام واجب اتباعها في معاملة المسلمين بعضهم بعضاً فهي أحكام عامة وإن وردت في رسول الله ﷺ ما عدا زواج من يموت عنها زوجها فإن الله أحله في غير أزواجه ﷺ ، وعلى هذا فالحجاب واجب على غير نسائه صلى الله عليه وسلم كما وجب عليهن لقوله تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ومن يقول بغير ذلك فهو خارج على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، والحكمة في أن أمهات المؤمنين لا يتزوجن غيره صلى الله عليه وسلم أنهن سيكن زوجاته في الجنة ، وأنهن كالأمهات في الاحترام والحرمه ما عدا الارث وسماهن الله تعالى أمهات المؤمنين في قوله وأزواجه أمهاتهم ، وفي أزواجهن بغيره صلى الله عليه وسلم ضياع لذلك كله ، قال حذيفة رضى الله عنه لا يرأته : إن سرك أن تسكوني زوجتي في الجنة - إن جمع الله

بيننا فيها - فلا تزوجى بعدى ، فان المرأة لآخر أزواجها ، ولذلك
 حرم الله على أزواج النبي ﷺ أن يزوجن بعده ، وعن أنس رضى
 الله عنه قال : سألت أم حبيبة رضى الله عنها رسول الله ﷺ قالت :
 للمرأة منا يكون لها زوجان فتدخلى الجنة هى وزوجها ، لا يها
 تكون ؟ قال : يا أم حبيبة لأحسنهما خلقاً كان معها فى الدنيا فتكون
 زوجته ، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة يعنى أن
 صاحب الخلق الحسن ينال خيرى الدنيا والآخرة ، نسأله سبحانه
 وتعالى أن يهبنا من فضله حسن الخلق فى كل الأمور والأحوال وفى
 الحديث إن أحبكم إلى أحسنكم أخلاقاً ، (وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً مِنْ
 دَعَا إِلَى اللَّهِ وَحَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تَسْتَوِى
 الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ
 وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
 وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو جَنِّ عَظِيمٍ)

لأَجْنَحَ عَلَيْهِنَ فِى آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ
 وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا
 مَمْلُوكَاتٍ أَيْحَنَنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا
 إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا
 عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

مناسبة هذه الآية لما سبقها أن الآية السابقة كانت في وجوب احتجاب نساء النبي ﷺ عن الرجال ولم تستثن الآية أحداً من الرجال بل قالت (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) فهذه الآية (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ) إلخ استثنت ممن يحتجبن عنهم من يئتنهم، وم الآباء والأبناء والاختوان وم: الاختوة، وأبناء الاختوة وأبناء الأخوات، ونساؤهن المتصلات بهن من المسلمات خادمة أو غيرها أو ماملسكت أيمانهن من الاماء والعبيد، والسبب في نزول هذه الآية ما روى أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء والأقارب: أو نحن يارسول الله نكلمن أيضاً من وراء حجاب فنزلت (لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ) الآية والمعنى: لا إثم ولا حرج ولا حرمة على أزواج النبي ﷺ ومثلهن جميع المؤمنات اللاتي رأين الحيض، أو كن في سن يشتهن فيها: من تسع فما فوق (فِي) رؤية (آبَائِهِنَّ) وعدم الاحتجاب عنهم والتكلم معهم من غير ستر بينهم وبينهن ومثل الأب الجد لأب أو لأم (وَلَا) جناح عليهن في (أَبْنَائِهِنَّ) ولا أبناء أبناهن ولا أبناء بناتهن (وَلَا) في (إِخْوَانِهِنَّ) جمع أخ كالاختوة جمع أخ (وَلَا) في (أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ) (وَلَا) في (أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ) ولا في أبناء أبنائه الاختوة والأخوات ولا فرق في الاختوة والأخوات بين الاشقاء أو لأب أو لأم، لكثرة

المخالطة الضرورية، وقلّة توقع الفتنة عند علم الاحتجاب، والأعمال والأحوال كالأباء لا جناح عليهن في علم الاحتجاب منهم، ولم يذكرهم لأن الأحوط التستر منهم حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم؛ قلن ابني العم والخال ليسا من المحارم، بل يباح لهما زواج بنتي العم والخال، وفي حكم المذكورين الذين لا إثم عليهن فيهم كل ذى رحم محرم من نسب أو رضاع، فلا يحتجبن مثلاً عن آباء أزواجهن، ولا أبناء أزواجهن، ولا يحتجبن عن آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن من الرضاع (ولاً) جناح عليهن في (نِسَائِهِنَّ) المختصات بهن بخدمة أو غيرها، والراد بهن النساء المسلمات الحرّات من الأمهات والاختوات وسائر القربات، ومن يتصلن بهن من المتصرفات لهن والقائمات بخدماتهن وشئونهن، وقيل يباح ألا يحتجبن عن كل النساء فيما يبدو عند الخدمة من الوجه والرأس والذراعيين والقدمين إلى الساقين أما ماعداً ذلك فحرام أن يراه منهن إلا الأزواج (ولاً) جناح عليهن في (مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ) من الاماء والعبيد، وقيل من الاماء فقط، ويحتجبن عن العبيد، ثم أمرهن بتقوى الله تعالى في كل أحوالهن ومنها ألا يظهرن لغير من أجل الله لهن رؤيتهن فقال جل شأنه (وَاتَّقِينَ اللَّهَ) تعالى فيما بين الله لكن من الاحكام فلا يراكن غير هؤلاء (إِنَّ اللَّهَ) تعالى (كَانَ) ولا يزال ولن يزال (عَلَى كُلِّ شَيْءٍ) كبير أو صغير ظاهر أو خفي في الصدور

أَوْ خَارِجَهَا (شَهِيداً) أَعْلَمَا خَيْراً لَا يَغِيبُ عَنْهُ أَمْرٌ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وَالْحِجَابُ فِي غَيْرِ أُمَهَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَكُونُ بَسْتَرٌ جَمِيعِ الْجِسْمِ أَوْ سِتْرٌ مَاعِدَا الْوَجْهِ وَالْكَفَيْنِ ، وَأَمَّا الْحِجَابُ فِي أُمَهَاتٍ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَيَكُونُ بَسْتَرَهُنَّ . كُلُّهُنَّ مَعَ جَوَازِ ظُهُورِ أَشْخَاصِهِنَّ بِمَسْتَرَاتٍ ، أَوْ سِتْرَهُنَّ وَسِتْرَ أَشْخَاصِهِنَّ ، فَإِنَّ حَقِصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا تَوَفَّى أَبُوهَا عَمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سِتْرَتَهَا النِّسَاءُ عَنْ أَنْ يَرَى شَخْصَهَا ، وَأَنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ جَعْفَرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَّا تَوَفَّيْتُ جَعَلُوا لَهَا قَبَّةً فَوْقَ نَعْشِهَا لِتَسْتَرِ شَخْصَهَا ، وَصَنَعَ ذَلِكَ فِي جَنَازَةِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ . وَمِمَّا يَشْهَدُ لِلأَوَّلِ وَهُوَ سِتْرُ أَبْدَانِهِمْ دُونَ أَشْخَاصِهِمْ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الْحَدِيثَ وَهِيَ مَسْتَرَاتٌ الْأَبْدَانِ لَا الْأَشْخَاصَ ، ثُمَّ شَرَعَ يَذْكُرُ حَقّاً خَاصّاً بِهِ ﷺ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدُوفَانِهِ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) هَذِهِ الْآيَةُ يَبْنِي مِنْهَا مَقَامَهُ الْمَحْمُودَ ، وَذَرَجَتَهُ الرَّفِيعَةَ وَعِزَّهُ الْمُدُودَ ، وَمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمٍ وَجُودٍ ، لَا يَعْلَمُ قَدْرَ ذَلِكَ غَيْرٌ مِنْ خَلْقِهِ وَصُورِهِ ، وَكَلَمِهِ وَأَرْسَلَهُ ، وَجَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَهَدَى الْمُتَّقِينَ ، وَإِمَاماً لِلْمُرْسَلِينَ ، وَقَدْ ذَكَرَهَا بَعْدَ تِلْكَ الْأَحْكَامِ ، وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ ، لِئَلَّا يَنْظُنَّ ظَانٌّ أَنَّهُ ﷺ اخْتَصَّ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ ، أَوْ

استأثر لشخصه بأمره، فكل ما تقدم خاصاً به من الأحكام، في الزواج
وفي النحول، وفي احتجاب أزواجه الطاهرات، وفي الاحتجاب الشديد
من فعل ما يؤذيه إنما هو لما ومقامه، وارتقاء درجته، وأنه ليس كسائر
الناس كما بين الله تعالى ذلك بقوله: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَيْكَ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) المصطفى المختار سيدنا محمد ﷺ نور الأنوار ومنير
الأسرار وأصل كل خير، ومصدر كل نعمة، كرامة له من ربه، وتشرقها
له من مولاه، الذي أعلى قدره، ورفع ذكره في قوله: (وَرَفَعْنَا لَكَ
ذِكْرَكَ) فما رفع به ذكره أنه تعالى وملائكته والمؤمنون يصلون
عليه ﷺ، وبالتيمير بالجملة الاسمية في الصدر. وبالجملة الفعلية في المعجز
إشارة إلى الاستمرار التجدي، فهي تفيد استمرار الصلاة عليه
وتجديها وقتاً فوقتاً فلا يمر وقت إلا ويلحقه ﷺ كرامة من ربه
ودعاء من ملائكته، وهذا ما لم ينله سواه عليه الصلاة والسلام،
ويتبين لك مقدار عظمة هذه الصلاة إذا عرفت مقام الأتوية الأعلى،
وعرفت أن الملائكة لا يحصيهم كثرة ولا عدداً إلا الله تعالى، فهم
الملائكة المقربون وحلة العرش، وسكان سبع سموات وخزنة الجنة
والنار، والحفظة على الأعمال، وحفظة نبي آدم، واللوكون بالبحار
والجبال والسحاب والأمطار والأرحام والنطف والتنوير، وفتح
الأرواح في الأجسام، وخلق النبات، وتصريف الرياح، وفتح

الأفلاك والنجوم والموكاون بإبلاغ صلاتنا على رسول الله ﷺ والذين يحضرون مجالس الذكر والقرآن. والذين يكتبون الناس يوم الجمعة الأول فالأول، والمؤمنين على تأمين المصلين، والمحييون لقول القائلين ربنا ولك الحمد، والداعون لانتظار الصلاة، واللاعنون لمن هجرت فراش زوجها، إلى غير ذلك مما وردت به الأحاديث الصحيحة، روى أن سيدنا عثمان سأل النبي ﷺ عن عدد الملائكة الموكلين بالآدمي، فقال لكل آدمي عشرة ملائكة بالليل، وعشرة بالنهار، وواحد عن يمينه وآخر عن شماله. واثنان من يمين يديه ومن خلفه واثنان على شفتيه، ليس يحفظان عليه إلا الصلاة على محمد. واثنان على جنبه. وآخر قابض على ناصيته، فإن تواضع رفعه. وإن تكبر وضعه والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه: يعني إذا نام اه وليس في العالم العلوي. ولا في العالم السفلي مكان إلا وهو معمور بالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وقد ثبت أن الله جزء الخلق عشرة أجزاء، فجعل الملائكة تسعة أجزاء، وجزء سائر الخلق. وفي حديث المراج المتفق على صحته أن البيت المعمور يصلّي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا. وفي الحديث أطت السماء وحق لها أن تظط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك واضع جبهته ساجد، وهؤلاء جميعاً يصلون على سيدنا محمد رسول الله ﷺ بنص القرآن حيث كانوا وأين كانوا، فأعظم به من فضل، ومن درجة رفيعة عالية، لم يتلها سواه ﷺ.

وعن كعب أنه دخل على عائشة رضي الله عنها فذكر رسول الله ﷺ فقال كعب ما من فجر إلا ينزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا خرجوا وهبط سبعون ألفاً حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ : سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه ، وفي لفظ يوقرونه ، رواه إسماعيل القاضي ، وابن بشكوال ، والبيهقي في الشعب والداري في باب ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ من جامعه ، وابن المبارك في الرقاق له ، ولا يعلم مبلغ عدد الملائكة إلا علام الغيوب قال تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) فإذا عرفت ذلك وعرفت مقدار العدد الذي صلى على النبي ﷺ من بني آدم من عهد النبي ﷺ إلى يوم القيامة عرفت أن هذا هو المقام الذي لا يداني ، والشرف الذي لا يساوي ، والفضل العظيم الذي لم يكن لأحد غيره ﷺ من الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام . والصلاة من الله تعالى معناها الرحمة ولهذا الرحمة آثار تختلف باختلاف من يصلي عليه الله عز وجل ، فإن الله كما يصلي على نبيه ﷺ يصلي على المؤمنين قال تعالى : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) وقال تعالى : (أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) فهذه الرحمة تختلف باختلاف من يصلي عليهم ربهم ، فهي بالنسبة له ﷺ ثناء الله

تعالى عليه ، وتمظيمه عند الملائكة والعباد بإعلاء ذكره ، ورفع قدره ، وإظهار شرفه ، وإعلان دينه ، وإبقاء العمل بشريعته ، وتكريم أمته ، وحفظ كتابه المنزل عليه من ربه إلى غير ذلك مما أكرم به في الدنيا ، وفي الآخرة تظهر عليه رحمة ربه بتشفيعه في أمته وفي كل الأمم ، وتمظيم أجره ، وإبداء فضله للأولين والآخرين ، بالقام المحمود ، والجووس الورود ، وتقديسه على جميع المقربين بالشهود ، وروية الملك المعبود ، وإلى غير ذلك مما لا يعلم علمه إلا الله ، الذي اختاره واصطفاه ، وأحبه واجتباها ، وفضله وقربه ، وأكرمه وعظمه ، وإذا اشترك معه في الصلاة عليه أعد فالجنة لكل على حساب مقامه وقدره عند ربه جل جلاله ، والصلاة من الملائكة معناها الدعاء بالاستغفار أو غيره ، وفي الاستغفار وغيره رفع درجات وعلومنازل ولا يلزم من الاستغفار أن يكون هناك ذنب يستغفر له ، فقد يكون النرض منه مجرد التذكر ، والاقرار لله تعالى بأنه صاحب المغفرة قال تعالى : (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّلَاحَ وَمِنْ حَوْلِهِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا) فلم يقل للذين أذنبوا ، وفي استغفار الملائكة للمؤمنين زيادة في ثوابهم وعلو درجاتهم عند ربهم ، لأنهم فعلوا ما يستحقون من أجله هذا الاستغفار ، وهو اتباع خير الأنام عليه الصلاة والسلام ، وقيامهم بالأعمال الصالحة التي استحقوا لها أن تصفوا بالإنجاء ، ثم أمرهم بنبطله وتعالى بالاعتدائه : نفق وجلى

وملائكته عليهم السلام في الصلاة على نبيه ﷺ فقال وهو أصدق
 اقاتلين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله ورسوله وما نزل عليه من ربه
 (صَلُّوا عَلَيْهِ) ﷺ اقتداءً بالله وملائكته (وَسَامُّوا) عليه ﷺ
 (تَسْلِيًّا) بقلوب غلوها الاخلاص ويمررها الايمان، وألسنة رطبة
 بذكر الله والصلاة على رسول الله فأنتم أولى بذلك، وهو خير لكم؛
 فقد علمتم أن الله تعالى وملائكته يصلون عليه، والله الغني، وملائكته
 معصومون، وأنتم في حاجة وغير معصومين؛ فأولى لكم أن تصلوا
 عليه، ففي ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون وإذا قيل أى حاجة إلى
 صلاة المؤمنين عليه بمد صلاة الله تعالى وملائكته عليهم السلام
 فالجواب أن الصلاة ليست لحاجة إليها، وإلا فلا حاجة لصلاة الملائكة
 عليه مع صلاة الله تعالى عليه، وإنما الصلاة عليه من الملائكة ومن
 المؤمنين لإظهار تعظيمه ﷺ، فإن الله تعالى أوجب علينا أن نذكر مسبحاته
 وتعالى ولا حاجة له إليه من هذا الذكر، وإنما هو لإظهار تعظيمه عز وجل،
 لنتاب على ذلك، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام من صلى على مرة صلى
 الله عليه بها عشرًا، وعلى ذلك فصلاتنا عليه ﷺ فوائد (١) إظهار
 تعظيمه ﷺ (٢) أن يكون جميع من يعبدون الله تعالى في الأرض
 وفي السماء يقومون بتعظيم خير الانبياء، عليه الصلاة والسلام، والله
 تعالى من فوقهم يهب لنبيه ﷺ ما يشاء من كمال وإكرام (٣) النبي
 ﷺ أصل هدايتنا وولى نعمتنا فوجب علينا الشكر له بالصلاة والسلام
 عليه ﷺ (٤) في الصلاة والسلام عليه إجابة لأمر الله تعالى في قوله

(صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (٥) فصلى عليه ففتدكره وتذكر ما قام به من جلائل الأعمال ففتدلى به ﷺ (٦) في الصلاة والسلام عليه تقرب إليه وفتح باب محبته ومن أحب الرسول أحبه الله (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) (٧) في الصلاة والسلام عليه ثواب لنا، وثوابنا يكتب في صحائفه ﷺ من غير أن ينقص منه شيء منا، فإن العطايا الالهية لا تنتهي ولا حد لها ولا قبل التقص والقالة، فامن عمل صالح يعلمه أحد من أمته ﷺ إلا والنبي ﷺ أصل فيه وله مثل أجره مصداقاً لقوله ﷺ من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فجميع أعمال أمته الطيبة مكتوبة في صحائفه ﷺ زيادة على ماله من الأجر على أعماله الذاتية، من غير أن ينقص ذلك من ثواب أعمال أمته شيئاً، فأى عبد من عباد الله نال هذه المزية، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)، وصدق الله تعالى إذ يقول: (وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا). والصلاة من المؤمنين طلب الرحمة، وزاد السلام مع المؤمنين، لأن الله من أسمائه السلام والملائكة أهل السلام، أما المؤمنون فقد يتصور منهم الأذى والمعصية فطلب إليهم زيادة السلام ولأن هذه الآية ذكرت بعد قوله تعالى (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) وذكر بعدها (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) والأذى لا يكون إلا من الناس، لذلك زاد السلام، حتى

يتنبه المؤمنون إلى الابتعاد عن كل ما يؤذى رسول الله ﷺ ، فانه لا يجتمع الأذى وطلب السلام ، وعلى ذلك فليس المراد من الصلاة والسلام صيغتهما فقط بل المراد معناها التي يقتضى أن يفعل المؤمن كل ما أمر به ، ويترك كل ما نهى عنه ، والابتهاال إلى الله أن يعطى رسوله ﷺ الفضل والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود فى الجنة ، وأن يظهر دينه ، ويحفظ أمته ، والمراد بالسلام السلامة فعنى السلام عليك السلامة لك ومعك من القائل والآفات ، ومعنى اللهم سلم على النبي ، اللهم حقق السلامة له ، وفى الآية توجيه القلوب إلى الاكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ ، فقد أخبر الله تعالى أنه بجلاله وعظمته وعلو شأنه وارتفاعه وغناه عن خلقه يصلى على نبيه ﷺ وأن الملائكة مع عصمتهم واشتغالهم بذكر الله تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) ومع مكانتهم عند ربهم يصلون على النبي ﷺ ، فالؤمنون أحق بذلك ، لأنهم محتاجون إلى الصلاة على نبيهم إذ هدام إلى الله ، ودلهم على الجنة ، وهو الذى سيشفع لهم يوم القيامة ، وهو الذى لأجله جعل الله أمته خير أمة أخرجت للناس فى الدنيا والآخرة جزى الله نبينا عنا أحسن الجزاء ، وإذا صلى المؤمن على النبي ﷺ نال الثواب المضاعف ، وأى ترغيب أكثر من هذا فى الاكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ ، فصلاة الله تعالى على نبيه وعلى المصلين عليه والمؤمنين به معناها إفاضة أنواع الكرامات ولطائف النعم عليهم ،

وأما صلاتنا عليه وصلاة الملائكة فهي سؤال وإنبال في طلب تلك
 الكرامة ، ورغبة تامة في انقضائها عليه صلوات الله وسلامه عليه .
 وما ورد في الصلاة عليه جاء بصيغة اللهم صل الخ ولم يرد بلفظ أصلي
 وأسلم ، لأنه ﷺ طاهر مطهر ، نقي مقرب ، لا عيب فيه ، ولا يجد
 العيب إليه سيلا ، ونحن فينا المعاييب ، وتنتابنا النقائص في كل صبح
 ومساء وحركة وسكون إلا من عصمهم الله : فكيف يثني من فيه
 المعاييب على الطاهر المعصوم ، فنسأل الله تعالى أن يصلي عليه لتكون
 الصلاة من رب طاهر على نبي طاهر ، قال النيسابوري : لا يكتفى العبد
 أن يقول في الصلاة صليت على محمد ، لأن مرتبة العبد تقصر عن ذلك ،
 بل يسأل ربه أن يصلي عليه لتكون الصلاة من ربه ، وحينئذ فالصلي
 في الحقيقة هو الله ، ونسبة الصلاة للعبد مجازية بمعنى السؤال اه .
 وسألنا الله تعالى لأنه أعلم بما يليق بمقامه الكريم منا . وقد ورد في
 صيغة الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة
 منها ما أخرجه عبد الرزاق وابن أبي شيبة والامام أحمد وعبد بن حميد
 والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن مردويه
 عن كعب بن عجرة رضى الله عنه ، قال قال رجل يا رسول الله ، أما
 السلام عليك فقد علمناه ، فكيف الصلاة عليك قال قل : اللهم صل على
 محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك
 على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وأخرج
 الامام مالك والامام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن

ماجه وغيره عن أبي حميد الساعدي أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ، قال رسول الله ﷺ : قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : من سره أن يكتال بالكيل الأولي إذا صلى علينا أهل البيت فليقل : اللهم صل على محمد النبي وأزواجه وذريته وأهل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : كنت عند النبي ﷺ فجاء رجل فسلم فرد النبي ﷺ وأطلق وجهه وأجلسه إلى جنبه فلما قضى الرجل حاجته نهض فقال النبي ﷺ يا أبا بكر هذا رجل يرفع له كل يوم كمثل أهل الأرض ، قلت ولم ذاك ؟ قال إنه كلما أصبح صلى على عشر مرات كصلاة الخلق أجمع ، قلت وما ذاك ؟ قال يقول : اللهم صل على محمد النبي عدد من صلى عليه من خلقك ، وصلي على محمد كما ينبغي لنا أن نصلي عليه ، وصل على محمد النبي كما أمرتنا أن نصلي عليه . وصيغ الصلاة والسلام عليه كثيرة جداً . وأى صيغة تجمع الصلاة والسلام تجزئ ، والصلاة والسلام عليه ﷺ فرض مؤقت فتي جاء بهما للؤمن في أى وقت سقط عنه ، وهما واجبان في التشهد الأخير عند الامام الشافعي والامام أحمد رضي الله عنهما . ويكرهان على غير الرسل والملائكة إلا تبعاً نحو اللهم صل وسلم على محمد وعلى آل محمد ، بخلاف اللهم صل وسلم على آل محمد فإنه منكره ، وكذلك الافراد بالسلام كان يقال على عليه السلام .

مكرهه ، بل يقال على رضى الله عنه ، والافضل تكرار الصلاة والسلام على النبي ﷺ كلما ذكر اسمه الشريف ، وفي كل يوم ولومرة ، والاكثر منها يوم الجمعة وليلتها ، وعقب النعاء ، أخرج البخارى فى الأدب عن أنس ومالك بن أوس بن الحدثان ، أن النبي ﷺ قال : إن جبريل عليه السلام جاءنى فقال : من صلى عليك واحدة صلى عليه عشرآ ، ورفع له عشر درجات ، وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : قالوا يا رسول الله أرايت قول الله (إِنْ أَلَّهِ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) قال : إن هذا من المكتوم ، ولولا أنكم سألتونى عنه ما أخبرتكم ، إن الله وكل بى ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلى على إلا قال ذلك للملكان غفر الله لك ، وقال الله وملائكته جوابا لدينك الملكين آمين ، ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى على إلا قال ذلك للملكان لاغفر الله لك وقال الله وملائكته لدينك الملكين آمين ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا الصلاة على يوم الجمعة فانها معروضة على . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أنجباكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم على فى دار الدنيا صلاة ، إنه قد كان فى الله وملائكته كفاية ، ولكن خص المؤمنين ليثيبهم ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا

على فإن صلاتكم على زكاة لكم، وسلوا الله لي الوسيلة، قال : فإما حدثنا وإما سألتناه ؛ قال : الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل وأرجو أن أكون ذلك الرجل ، وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال إنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا سمعتم مؤذناً فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على فانه من صلى على صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة ، فانها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ، وعن أبي طلحة الأنصاري قال أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس يرى في وجهه البشر ، قالوا يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر قال أجل ! أتاني آت من ربي عز وجل فقال من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ومجا عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها ، والأحاديث الواردة في الحث على الصلاة عليه ﷺ كثيرة وفي هذا القدر كفاية ، وأفضل صيغ الصلاة ، ما كانت بالدعاء إلى الله تعالى : أن يصلي عليه عليه الصلاة والسلام ، كما جاء في الأحاديث السابقة وغيرها ، والأمر في قوله صلوا عليه وسلموا للوجوب في العمر مرة كما تقدم وللوجوب في التشهد الأخير في الصلاة عند الإمام الشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهما ، وللتدب والاستحباب بعد ذلك ، وما ورد عنه عليه الصلاة والسلام لباه فيها اسمه الشريف من غير لفظ سيدنا ، وهذا تواضع منه عليه الصلاة والسلام ، وقد صح عنه ﷺ أنه قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا

نفر ، وأنه قال في الحسن إن ابني هذا سيد . وأنه قال عند قدوم سعد قوموا إلى سيدكم ، وقد علمت أنه أعطى السيادة والفضل على جميع الخلق ، وأعطى الشفاعة والمقام المحمود فن الأدب في حقه العظيم الذي أولاه إياه مولاه الذي اختاره وفضله واصطفاه أن تقول اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وذلك مذهب الامام الشافعي فالتقديده وتأديب في حق نبيك عليه الصلاة والسلام :

وكلهم من رسول الله ملتصق غرقاً من البحر أو رشفاً من الديم وقال في الآية الشريفة « إن الله » ولم يقل إن الرب ، أو إن الرحيم إلخ من أسمائه الحسنى ، لأن اسم الجلالة هو الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات فإذا قلت الله فقد حققت أنه إله واحد فرد صمد بر كريم جواد عظيم رؤوف رحيم إلى غير ذلك من أسمائه عز وجل وقال في الآية يصلون فاسند لله الصلاة ، والصلاة للمعهودة تكون باللسان والقلب بالنسبة لنا ، أما بالنسبة لله تعالى فتكون بكلامه الذي ليس بصوت ولا حرف ولا تقطيع ولا تأليف ولا توضيح ، فقوله تعالى وكلامه من صفاته قديم كذاته ، وكذلك كل صفة من صفاته من علمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وحياته كلها أزلية سرمدية أبدية ، فهو المتكلم العليم الخبير المدبر القديم الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وقال في الآية « على النبي » ولم يذكر اسماً من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، لأن لفظ النبي جمع كل الأسماء والصفات الواردة فيه ﷺ وفي لفظ النبي تشریف وأى تشریف ، ولذلك لم يرد في

القرآن نداه له ﷺ إلا بلفظ النبي ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ) ، (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ) ، (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) وأما غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلم يجيء في القرآن نداه لهم إلا بأسمائهم يا آدم ، يانوح ، يا إبراهيم ، ياموسى ، ياعيسى ، يايحيى الخ وفي ذلك تشرىف له ﷺ ، فهذا أيها المسلمون نبيكم العظيم الذى كنتم به خير أمة أخرجت للناس ، وجعلكم الله به أمة وسطا شاهدة على الناس ، فاتقوا الله واقتدوا به واتبعوه وأعطوه حقه من التآدب والتكريم بالتخلق بأخلاقه وكثرة الصلاة والسلام عليه ، وأختم كلمتي بهذا الحديث الشريف عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً كالودع فقال أنا محمد النبي الأسمى : قاله ثلاث مرات . ولا نبى بعدى ، أوتيت فوائج الكلام وخواتمه وجوامعه ، وعلمت كم خزانة النار ، وجملة العرش ، ونجوزي ، وعوفيت ، وعوفيت أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم ، فإذا ذهب بي ، فعليكم بكتاب الله ، أحلوا حلاله وحرّموا حرامه اه نسأل الله تعالى أن يوفق كل مسلم ومسلمة للعمل بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا

مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ
لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ
ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * لَئِنْ لَمْ
يَنْتَهِ الْمُسْخِفُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحْيَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا
تُفِرُّوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

حذر الله تعالى أن يؤذى أحد رسول الله ﷺ فيما سبق في قوله:
(وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ) ﷺ بأى نوع من أنواع
الأذى التي سبق ياتها، ثم بين أنه ﷺ حقيق بكل إجلال واحترام
وتمظيم وتقضيل، لأنه تعالى وملائكته يصلون عليه ﷺ، وأمر
المؤمنين بذلك قياماً ببعض ما يجب له ﷺ من الشكر، ثم شرع يذكر
ذلك مرة أخرى زيادة في التأكيد، ويهدد بالوعيد الشديد، من تسول
له نفسه عمل أى شئ يؤذى رسوله ﷺ كأن يدخل بيته بغير إذنه،
أو يخاطب نساءه من غير حجاب، أو ينتظر في بيته بعد ما طعم
وأكل انتظاراً طويلاً، أو أن يفعل معه أى أذى غير ذلك، وأن هذا
الأيذاء إن وقع فهو إيذاء لله تعالى، ومن يؤذى الله ورسوله صلى الله
عليه وسلم ملعون مطرود من رحمة الله في الدنيا والآخرة، وله عذاب

مبين مؤلم شديد ، فقال جل شأنه : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُبِينًا) نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول وناس معه وهم الذين أشاعوا عن السيدة عائشة من الإفك ما أشنعوا ، وبرأها الله مما قالوا ، وقال الله فيهم (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) . عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) الآية . قال أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه فذفوا عائشة رضي الله عنها ، فخطب النبي ﷺ ، وقال من يعذرن في رجل يؤذيني فزلت : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ) تعالى ويفعلون ما يفضبه ، ولا يرضى به ، من إيذاء النبي ﷺ ، أو الإضرار به عز وجل ، أو نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى أو اتخاذ الصاحبة أو غير ذلك مما هو منزعه عنه ؛ أو نكذ كتابه الكريم ، وترك دينه القويم ، والخروج على رسله وأنبياؤه وأوليائه والأئمة المتقين ، إن هؤلاء الذين يعضبون بهم (وَ) يؤذون (رَسُولَهُ) ﷺ بعمل ما نهوا عنه فيما سبق ، أو بتكذيبه ، أو بالوقوف في سبيل دعوته ، وعصد الناس عن دينه ، والعمل بغير سنته ، أو هجر ما جاء به ، ونكذ تعاليمه ، والأيذاء مجازى بالنسبة لله تعالى ، ومعناه فعل ما لا يحبه ولا يرضاه ، وفي التعبير به تشنيع على مرتكبيه ، وحقيق في حق رسول الله ﷺ ، فقد وقع من قريش أن رموه بالسلي والحجارة

وهو يصلي ، وحفروا له الحفر يوم أحد ، فوقع فيها وكسرت رباعيته
 وشج وجهه ودخل المغفر في جبينه ، وتألبوا عليه يوم الخندق وخاصروه ،
 وكذبوه وقالوا ساحر ، وقالوا شاعر ، وقالوا كهين ، وجاربه وقاومه
 وأجموا على قتله ، وهو صابر على إيدائهم حتى نصره الله عليهم يوم
 الفتح نصرًا مؤزرًا ، وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا ، وإني إذنا الرسول
 إني إذنا الله ، كما أن من أحبه فقد أحب الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ،
 وروى أنه ﷺ قال : الله الله في أصحابي ، لا تتخونهم غرصًا بعدى ،
 فمن أحبهم فبحي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن أدام
 فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه ،
 رواه الترمذي ، وإذا كان الله تعالى يحارب من عادى وليه ، فهو يحارب
 من عادى نبيه فقد قال ﷺ إن الله قال : من عادى لي وليًا فقد آذنته
 بالحرب ، فما بالك بمن يعادى رسوله وجيده وصفته صلى الله عليه وسلم
 إن له النكال والوبال في الدنيا والآخرة ، كأبي جهل ومن ظني
 شاكته ، ممن كانوا ينتقصون الرسول ويميؤونه وهو المبرأ من كل
 عيب ، كما قيل فيه .

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
 فهو لاء ملعونون بنص القرآن إذ يقول : إن الذين يؤذون الله
 ورسوله (لعنهم) طردهم (الله) تعالى وأبعدهم من رحمته (في الدنيا
 والآخرة) في الدنيا بظهور أمرهم ، واقتضاح نيتهم ، وإحباط صلهم ،

وَأَنْزَلَ الْمَقَبَتِ وَالنَّضْبَ عَلَيْهِمْ ، فَمَنْ أَلْصَقَ بِنَيْكَمِ الْعَمَى الَّذِينَ لَا يَمْلِقُونَ ،
فَلَا يَنْتَدِرُونَ وَلَا يُنْجِدُونَ ، وَلَا يَمْلِقُونَ وَلَا يُعْتَبِرُونَ ، وَفِي طِينَانِهِمْ
يَمْمَهُونَ ، وَفِي الْآخِرَةِ بَعَثَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ نَارِ السَّمِيرِ ، وَبَشَّ الصَّابِرِينَ ،
كَأَنَّ قَالَ تَعَالَى (وَأَعَدَّ لَهُمْ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ (عَذَابًا) شَدِيدًا (مُهِينًا) فِيهِ
أَكْبَرُ الْإِهَانَةِ لَهُمْ وَلَوْ كَانُوا أَكْبَرَ النَّاسِ . وَمُلُوكِ النَّاسِ وَعِظَاهُ النَّاسِ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا (إِنَّا آتَيْنَا لَظَالِمِينَ نَارًا) أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ
يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِهَا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشَّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ
مُرْتَقًى (وَإِذْ قَالَ الرَّسُولُ كَيْفَ يَكُونُ فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، بِالصَّبْرِ
عَنِ دِينِهِ ، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَتَفَرَّقَ كَلِمَةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَعَادَاةُ مَنْ
يَقِيمُ مَنَاسِكَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَتَّبِعُ شَرِيعَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَالطَّعْنُ فِيهِ وَفِي آلِ بَيْتِهِ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالسَّلَامُ ، فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَأَذَى مِنْ أُمَّتِهِ بِالْعَمِيانِ ، كَمَا
يَرْضِيهِ مِنْهَا أَقْبَاعُ الرَّحْمَنِ يَتَأَذَى وَيَرْضَى وَهُوَ فِي قَبْرِهِ الشَّرِيفِ بِقُوَّةِ اللَّهِ ،
وَنُورِ اللَّهِ وَإِكْرَامِ اللَّهِ وَقَدْ نَطَقَ الْقُرْآنُ بِحَيَاةِ الشَّهَدَاءِ بَعْدَ قَتْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ
وَجَلَّ : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَالْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّهَدَاءِ ، وَنَبِيُّ اللَّهِ ﷺ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ
فَهُوَ نَحَى فِي قَبْرِهِ ، يَسُرُّهُ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ ، وَيُؤْذِيهِ مِنْهَا أَكْثَرُ وَقَدْ رَوَى
ابْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ مِنْ حَدِيثِ يَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُرَزِيِّ أَنَّهُ ﷺ قَالَ :
حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تَحْدَثُونَ وَتَحْدَثُ لَكُمْ ، فَذَا مَيِّتٌ كَانَتْ وَفَاتِي خَيْرًا
لَكُمْ ، تَعْرِضُ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، فَلَنْ وَجَدْتُ خَيْرًا مِمَّا هَدَيْتُ اللَّهُ ، وَإِنْ

وجدت شرا استغفرت لكم ، تلك حياة برزخية روحية علم تفصيلها إلى الله تعالى الذي يقول : (وَيَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) فاذا الرسول كما يكون في حياته يكون بعد وفاته ، فليتنق الله المسلمون ، وليفعلوا ما به يؤمرون ، وليجتنبوا ما لأجله يعذبون ، فان معصيتهم تغضب الله تعالى وتؤذي رسول الله ﷺ (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهِنًا) . ولما بين حال الذين يؤذون الله ورسوله ناسب أن بين حال الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ، فقال عز وجل (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) ويلحقون بهم الضر ، ويوقعون بهم الشر بغيًا وعدوانًا ، وزورا وبهتانا كما قال : (يَفِيرُ مَا اكْتَسَبُوا) بغير إثم أتوه ، وبلا ذنب ارتكبوه ، أو أذى فعلوه فينسبون إليهم مالم يرأمنه ، ويشيعون عنهم ما ليس فيهم ، أو يستهزئون بهم ويسخرون منهم ، أو يشتابونهم ويشمون عليهم ، أو يأتون معهم فسقا أو خيانة أو غدرا أو مظاهرة عدو أو غير ذلك من ضروب الأذى ، وأنواع الشر ، من فعلوا ذلك بلا حق (فَقَدْ احْتَمَلُوا) تمهلوا بفعلهم أو قولهم (بُهْتَنًا) كذبًا بينا ، واقراء ظاهرا ، وزورا واضحا إذا كان الإيذاء بالقول (وَإِغْيَا) وجر ما وذنبا (مُبِينًا) ظاهرا جليا لاختلاف في العقاب عليه ، ولا شك في الادانة به ، لا يفره الله لهم ، ويذيقهم بسببه سوء العذاب إذا كان الإيذاء بالفعل ولم يتوبوا ويرفعوا

أَذَامَ عَنِ النَّاسِ ، وَيَعْمَلُوا عَلَى إِرْضَانِهِمْ ، رَوَى عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ إِنِّي لَا أَبْغِضُ فُلَانًا قَبِيلَ الرَّجُلِ مَا شَأْنُ
عُمَرَ يَبْغِضُكَ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ الْقَوْمُ فِي ذَلِكَ كَرَّ (بَانَ عُمَرَ يَبْغِضُ فُلَانًا)
جَاءَ الرَّجُلُ فَقَالَ يَا عُمَرُ : أَفْتَقْتُ فِي الْإِسْلَامِ فَقَا ؟ قَالَ لَا ، قَالَ أَفْجَنْتِ
جَنَانِي ؟ قَالَ لَا ، قَالَ أَأَحْدَثْتَ حَدَثًا ؟ قَالَ لَا ، قَالَ فَمَلَامَ تَبْغِضُنِي ؟ وَقَدْ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا
مَّا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) فَقَدْ آذَيْتَنِي فَلَا غُفْرَانَ
لِلَّهِ لَكَ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، صَدَقَ وَاللَّهُ مَا تَقُولُ فَقَا ، وَلَا ، وَلَا ،
فَاغْفِرْهَا لِي ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى غُفِرَ لَهَا ، فَانْظُرْ هَذَا اللَّهُ هَذِهِ الْأَخْلَاقُ
الْمَالِيَّةُ ، وَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ ، أَمِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَخَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ . يَرَى الْحَقَّ
فَيَتَّبِعُهُ . وَيَسْتَعِطِفُ رِجْلًا مِنْ رِعْيَتِهِ أَنْ يَفْزَحَ لَهُ حَتَّى يَسْتَجِيبَ وَيَرْضَى
وَيَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ مَسْرُورًا مُطْمَئِنًّا . هَذِهِ هِيَ مَكَارِمُ الْإِسْلَامِ . وَمُقَاخَرَةُ
الْمُسْلِمِينَ . وَقَدْ أَصَابَ الْإِسْلَامَ بِكَثِيرٍ مِمَّنْ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الْوَعِيدِ
كَالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكَالْإِفْضَاءِ الدِّينِ يَنْتَقِصُونَ الصَّحَابَةَ وَيُؤْمِنُونَ بِهَمِ
يَمَاقِدِ بَرَاءَةِ اللَّهِ مِنْهُ ، وَيَصِفُونَهُمْ بِقِيُوضِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَقَدْ أَخْبَرَ
عَزَّ شَأْنُهُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى عَنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَدْحِهِمْ فِي قَوْلِهِ (وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وَمَنْ هَؤُلَاءِ عَلِيٌّ وَمَعَاوِيَةُ وَعُمَرُ بْنُ

العاص رضي الله عنهم؟ ومع ذلك ترى أولئك الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتقصونهم ويذكرون عنهم ما يؤذيهم في كرامتهم وشرفهم، ويدخل في الآية وفي هذا الوعيد الذين يؤذون غير الضعافة من المؤمنين والمؤمنات، فعن أبي هريرة أنه قيل لرسول الله ما النبية، قال يذكرك أذاك بما يكره، قيل أفرايت إن كان في أخي ما أقول، قال إن كان فيه ما أقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما أقول فقد بهته، رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ لا صحابه أرى أربي عند الله، قالوا الله ورسوله أعلم، قال أرى أربي عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ثم قال: (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإلحاداً مبيناً) وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ليس منا ذو حسد ولا نعمة ولا خيانة ولا إهانة، ثم تلا هذه الآية: (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإلحاداً مبيناً) فلعن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات باسم الدين، ويثألون من إخوانهم باسم النفاق عن الدين يقرءون ذلك ويعملون به، ويكفون أيديهم وألسنتهم وأقلامهم عن النيل من المؤمنين والمؤمنات، ويسيروا في الدعوة إلى الدين على ضوء قوله تعالى (ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنَّوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنَافِقِينَ).

وقوله (وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقوله (وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَسَنَةَ وَلَا الْبَيْتَةَ أَذْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) وقوله (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) فهذا رسول الله ﷺ لما جاء الأعرابي وبأل في المسجد وقرر منه الصحابة وقاموا إليه قال ﷺ دعوه وهرقوا على بوله سجلا من ماء، أو ذنوبا من ماء، فأما بمنهم ميسرين ولم يمشوا معسرين، وكان يتأذى من الناس ويستحي أن يصارحهم لئلا ينفرم حتى قال الله تعالى فيمن يدخلون بيوتهم وينتظرون طويلا بعد ما يكون (إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) وكانوا ينادونه من وراء الحجرات يا محمد فقال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثر معكم لَا يَتَعْقَلُونَ) وقال (لَا تَحْمِلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ يَنْتَكُمُ كُدُّهُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ) ولما قسم الغنائم قال أعرابي هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فغضب الرسول حتى بدا الغضب في وجهه وكظم غيظه وقال: من يريد وجه الله غيري؟ فما لاحي أحدا ولا خاصم أحدا ولا رمى أحدا بكلمة تؤذيه متبعاً قول ربه (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فغضب لثاخير الأئمة في البعد عن إيذاء المؤمنين ولو بحق لقوله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ) حتى قال تعالى (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَمْجَعُونَ مَعَ اللَّهِ

إِلَيْهَا آخِرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) وقال جل شأنه (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْحَدُونَ) وقد قال الناس في ربهم الذي خلقهم ورزقهم وهو الذي يمتهم ويحييهم ، قالوا فيه مالا يليق بمقام الألوهية ، جعلوا له البنات ونسبوا إليه الشريك والصاحبة والولد ، وأنكروا أنه يمشيهم ، فلم يقطع رزقه عنهم ، ولم يمنعه نعمه عليهم ، ولم يجعل لهم العذاب ، بل صبر عليهم ، وهو الصبور ، ومن أسمائه الخليم ، الغفور ، الرحيم ، وقال (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا) فوجب على كل مؤمن ومؤمنة نصب نفسه للدعوة وأعلها للارشاد ، وجبها للوعظ ؛ أن يتحاشى جهد طاقته أن يرى أخاه للسلم بما يكره ، أو يذكر عنه ما يسيئه ، وأن يسلك معه طريق الاقتناع ، وسبيل الحكمة ، ومنهاج المودة والألفة ، قرب كلمة أورثت قها ، وزرعت إحنا ، وأهابت قتنا ، وأوجبت غضب الله وعنايه ، ورُبَّ كلمة كانت سببا في خير ونعمة وثواب عظيم قال تعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْثَرًا كُلِّ حَيْثُ يَدْعُرُ رَبُّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَنْذِرُونَ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ
 الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ، يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُخِلُّ اللَّهُ لِلْعَالَمِينَ وَيَعْمَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ
 وَقَالَ ﷺ إِنَّ الْعَبْدَ لَيْتَكُمْ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لَا يَلْقَى لَهَا بِالَا
 يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيْتَكُمْ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ
 لَا يَلْقَى لَهَا بِالَا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ، فَلْيَتْرِكِ الْمُسْلِمُونَ الْخِصَامَ وَالْجِدَالَ،
 وَالتَّنَازُ بِالْأَقَابِ خَشْيَةٌ أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ (وَالَّذِينَ
 يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيًا مَا كَتَبْنَا لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مِنْهُمْ قَدْ احْتَمَلُوا
 بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا) وَقَدْ قَالَ ﷺ: إِنْ أَبْغَضَ الرَّجُلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
 الْأَلَدَ الْخَصَمَ، وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَسْوَدَ حَسَنَةٍ (وَالْمُؤْمِنُونَ
 وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

ولما كان من أشد ضروب الأذى التعرض للنساء المؤمنات
 بالسوء في سببهن، وأثناء مشيهن في الطريق، أو في بيوتهن أو في
 أى مكان آخر، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أَنْ يَأْمُرَ أَزْوَاجَهُ الطَّاهِرَاتِ،
 وبناته الكريمات، ونساء المؤمنين وبنات المؤمنين الكبيرات، أَنْ
 يَسْتَتِرْنَ وَيَتَّخِذْنَ زِيَا يَنْعَمْنَ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُنَّ، وَيَعْرِفْنَ بِهِ وَيَتَرَنَّ

لبلبسه فلا يؤذين من السفلة الساقطين المفسدين ، فقال عز وجل :
 (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ الْكَرِيمِ الْخُتَارَ (قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ) أَهْمَاتُ الْمُؤْمِنِينَ
 (وَبَنَاتُكَ) خَيْرَةُ الْمُسْلِمِينَ (وَنِسَاءُ) وَبَنَاتُ (الْمُؤْمِنِينَ) الْحَرَارُ ،
 قُلْ لهنَّ أَمْرٌ مِّنْ دِينٍ وَاجِبًا تحرم مخالفته (يُذْنِبِينَ) يرسلن ويرخين
 (عَلَيْنَهُنَّ) على أجسامهن وزينتهن (مِّنْ جَلَالِ يَدَيْهِ) فيستترن سترًا
 يخالف ستر الاماء وأولات البغاء (ذَلِكَ) الارسال وهذا الارشاء والستر
 (أَذْنَى) وأقرب إلى (أَنْ يُدْرِفْنَ) بهذا الستر بأهن حرار عفيفات
 مؤمنات (فَلَا يُؤْذِينَ) بالتعرض لهن ؛ ليخالفن الاماء ، وذوات البغاء
 فقد كن يظهرن في درع وخمار من غير ملاءة فوقهما ، والسبب في
 نزول هذه الآية ماروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كانت الحرّة
 تلبس لباس الأمة ، فأمر الله نساء المؤمنين أن يدين عليهن من
 جلايينهن ، وأدنى الجلباب أن تقنع وتشده على جبينها . وعن معاوية
 بن قرة أن ذعاراً من ذعار أهل المدينة كانوا يخرجون بالليل ، فينظرون
 النساء ويعمزونهن ، وكانوا لا يفعلون ذلك بالحرار ، إنما يفعلون ذلك
 بالاماء ، فأُنزل الله هذه الآية : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ وَبَنَاتِكَ
 وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ) إلى آخر الآية ، وعن قتادة رضي الله عنه في
 قوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُذْنِبْنَ
 عَلَيْنَهُنَّ مِّنْ جَلَالِ يَدَيْهِ) قال أخذ الله عليهن إذا خرجن أن يعقدن عليهن

الحواجب (ذَلِكَ أَذْنٌ أَنْ يُعْرَفَنَّ فَلَا يُوْذَنَنَّ) قال قد كانت الملوكة يتناولونها ، فهى الله الحرأثر أن يتشبهن بالاماء ، ثم نزل (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ) الاماء (عَلَى الْبَيْعَاءِ) خُرمت الأمة ، إلا بملك البين أو العقد ، غير أن الفساق والعصاة مازالوا يقصدون الاماء تبعاً للعادة التى كانوا عليها قبل الاسلام ، وقبل التحريم من اتخاذهن للبيعه ، فأمر الله الحرأثر أن يدين عليهن من جلايبهن ، حتى تعلم الحرة من الأمة ، فلا تؤذى الحرأثر ، وفتح الله باب التوبة لمن سبق منهم نظر أو تعرض للنساء ، وفتح باب التوبة كذلك للنساء اللاتي ظهروا للرجال فقال جل شأنه : (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) كثير المغفرة يغفر ما سلف منهن من ترك التستر فوق الدرع والحمار ، ويغفر لمن ترك التستر بعد هذا الأمر لسبب من الأسباب ، ثم تعود إلى التستر نائبة إلى ربها ، راجعة عن ذنبها ، ويغفر للذين تعرضوا للنساء قبل هذا الأمر أو بعده ثم تابوا وأنابوا وعزموا أو أكد العزم على ألا يعودوا لما فعلوا من ذلك (رَحِيمًا) بهن إذ سترهن ومنعهن من تعرض الفساق لهن ، وقبل توبة من تابت منهن وقبل توبة من تتوب ، والله رحيم بمن أتى ما يخالف هذا الأمر إذ قيل توبتهم ودلهم على ما فيه خيرهم وصلاح الأمة الاسلامية التى تحرص على تنفيذ أمر الله وتحشى أن تأتى ما بهى عنه ، وهذه الآية صريحة فى أن إظهار شيء من علمن المرأة غير وجهها وكفيها حرام وفيه الوبال والنكال ، وليس لنا بعد

قول الله تعالى أن نسلك سبيل السفور للمقوت الملوء بالأشواك ،
 للوصول إلى الدمار والهلاك ، هذا السفور الذى جعل المرأة المسلمة
 تكشف عن غير وجهها وكفيها ، وتخرج فى الطرقات سافرة أكثر مما
 تكون أمام زوجها ، فى حجرة نومها ، قرب نظرة زرعت شهوة ،
 ورب شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً ، وشرأ مستطيراً ، فلعن الله السفور
 ومن أشار به وندب إليه وحض عليه ، فقد أورث الأمة شرأ كبيراً ، وداء
 وبلاً ، بما يترتب عليه من الاختلاط ، والتدهور والانحطاط ، وهتك
 الأعراض ، والفتك بالسواذج البريئات ، اللاتى يقعن فى شباك ذئاب
 الانسانية ، والوحوش الآدمية الألى واللأنى يتاجرون بالأعراض ،
 ويقيمون للفسوق الأسواق ، والذين ملكت الشهوة قوسهم وأعمى
 العصيان قلوبهم ، أولئك جميعاً لا يعرفون رباً ، ولا يخافون إثمًا ،
 ولا يخشون ذنباً ، ولا ينظرون فى عاقبة ؛ ولا يردعهم دين ولا شرف ،
 فأصبحت مصر مباءة للفسوق والعصيان ، وإغصاب الرحمن ، وإذا
 شئت أن تعرف مقدار ما تدهورت إليه مصر من الوحشية ، وادتمت
 فيه من الممجية ، فهذه شواطئ النيل وشواطئ الأسكندرية
 والميادين والطرقات ، وغيرها ، تضج صارخة إلى ربها مما يقع عندها
 وفوقها صباح مساء من الفسق والتفجور ، وفى الصيف — والويل لمصر
 وأهلها من الصيف — تنفج السماء والأرض مما يقع هناك من وحوش
 الانسانية ، والذئاب الآدمية ، وأعداء المروءة والشرف والعفة ، الذين
 فقدوا الاحساس والحمة والنيرة من نساء ورجال ، وفتيان وفتيات ،

أجسام عارية ؛ وعورات بادية ، ومناظر بشعة ، واختلاط سيئ ،
 وشرف مسفوك ، وعرض مهتوك ، وفن كقطع الليل ، وويل يتبعه
 ويل ، ولعنات تنزل من السماء ، على أولئك الأشقياء ، وأنت تخرج
 من الأرض مما يحصل فوقها من هتك الشرف والعرض ، وما كان
 ذلك إلا من الاختلاط ورفع الحجاب ، والخروج الجريء على الدين
 والآداب ، هذا إلى ما أصاب مصر من الأمراض الخبيثة ، والحوادث
 الأليمة ، والاضراب عن الزواج واختلاط الأنساب ، وصنيع العزة
 الدينية ، والفيرة الإسلامية ، والنهاب بمستقبل الشبان والشابات ،
 والاتجار وواد البنات وقتل الأطفال الذين جاؤا من غير الطريق
 الشرعي ، مما ينذر بشر لا يعلم مداه إلا الله العلي الكبير (وَإِذَا أَرَدْنَا
 أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ
 فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ، لقد حاربوا الدين وتعاليمه ، وناهضوا الشرع
 ولعدوا حدوده ، يقول الله تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ
 أَنْبَارِهِمْ) ويقول الجاهلون افتحوا عيونكم ، ومتموا أبصاركم ،
 ومكنوها من جمال خلقه الله لكم ، ويقول عز وجل (قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَغْضُضْنَ مِنْ أَنْبَارِهِنَّ) ويقول الخاسرون الأردلون تعالى إلى
 النوادي والمتزهات وأغشين الملاهي والحفلات ، واشتركن مع الرافضين
 والرافضات ، واقتحن أعينكن في هذه المجتمعات ، ولو أغضب ذلك
 رب الأرض والسماوات ويقول جل شأنه : (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

ويقول الضالون المضلون اطرحن هذه الأستار القديمة العتيقة، وأظهرن زينتكن الجميلة؛ وما وهبكن الله من حسن وبهاء، وروث ورواء، ويقول العليم الخبير (وَلْيَضْحَكُنَّ يَخْمُرُهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) وهم يقولون ارمين بخمركن، واكشفن عن شعوركن وأعناقكن وصدوركن ويقول الحليم الحكيم (وَلَا يَضْحَكُنَّ يَأْزِجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ) وهم يقولون تعالين إلى الرياضة البدنية، والحياة والمدنية، وارفعن هذه القيود التي تموق الحركة والنمو؛ وجئن إلى الميدان بإديات الروس والاعناق والنحور والأرجل والسوق، وقن بالحركات الرياضية من وثب وقفز، وتثن وانفراد، وانقباض وانبساط، ومشي وركوب، بأشنع حالة وأبشع شكل، افعلن ذلك جهاراً، ولا تخشين إغماً ولا عاراً، وثاقه إن هذا هو الضلال البعيد، والفساد الكبير، واخزى الأليم. لبث ما يفعلون. لبث ما قدمت لهم أقسمهم أن سخط عليهم الله وفي المذاب هم جالون. فالؤمن والمؤمنة يعملان بأمر الله من غض البصر عن محارم الله كما قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) وقال (قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) وقال صلى الله عليه وسلم إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافة الله إيماناً يمدح حلاوته في قلبه، وقال عليه الصلاة والسلام: الأثم حواز القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مقطع، ويروى عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ هي

وميمونة رضي الله عنهما، قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ احتجبنا منه ، فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : أوعيا وإن أنما ؟ ألسنا تبصرانه ؟ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل ، وإذا وقع للنظر نجاة فله النظرة الأولى وليس له الآخرة فقد قال النبي ﷺ لعلى ، يا على : لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة ، وعلى المؤمنة ألا تظهر مجلسها غير زوجها ، ولحارمها فيها أحله الله لهم مما يبدو وقت اللهنة كالرأس والوجه والعنق والتدمين إلى موضع الخلخال ، والمحارم بينهم الله تعالى في آية لا جناح عليهن السابقة ، عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال يا أسماء : إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يصالح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه ، وعن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نسله قريش وفضلهن ، فقالت عائشة رضي الله عنها : إن النساء قريش لفضلا ، وإني والله ما رأيت أفضل من نسله إلا أنصار أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيماناً بالتنزيل ، لقد أنزلت سورة النور (وَلِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ الْخَيْرَاتِ عَلَى جُيُوبِهِمْ) اقلب وجاهن

إلهمن يتلون عليهم ما أنزل إليهم فيها ، وتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المجل فاعتجرت به ، تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصبح وراء رسول الله ﷺ الصبح معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان ، وقال سعيد بن جبيرة (وَلَيْقَرِينَ) وليشدن (بِمُرْهِنٍ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) يعنى على النحر والصدر فلا يرى منه شيء فليتنق الله المسلمون وليعملوا بما أنزل الله وليتركوا ما حرم الله ، وكل فرد فى الأمة مسئول بقدر ماله من السيطرة والتفوذ . هذا حكم الله فى السفور والحجاب ، والقاعدة العامة فى ذلك أن كل ما يؤدى إلى الفتنة يجب ستره ومحرم كشفه ومحرم النظر إليه وأن مالا يؤدى إلى الفتنة يجوز كشفه والنظر إليه ، وهذا حكم العودة إذا أمنت الفتنة .

١- عودة للمرأة مع الرجل : إذا كانت للمرأة أجنبية من الرجل حرم عليها كشف ما عدا الوجه والكفين وحرم عليه النظر إلى غير الوجه والكفين ، إلا لضرورة ملجئة ، كالأقاز من غرق أو حريق وكالطبيب الذى لا يستغنى عنه بامرأة ، فيجوز له النظر إلى ما تدعو إليه الضرورة فقط مع الحذر والاحتياط ولا يحرم عليها كشف ما تدعو إليه الضرورة حيثئذ . وإذا كان الرجل يحرم ما لها فعودتها منه مالا يبدو عند المهنة وقت قيامها بأعمالها المنزلية . وإذا كان زوجها لها فلا شيء منها بمودة بالنسبة إليه ، لكن يكره منه النظر إلى حياتها .

(٢) عودة الرجل مع المرأة وهي ما بين العرة إلى الركبة سواء أكلن أجنبيًا أم كلن محرمًا، ولا يجوز لها استدامة النظر إلى ما يؤدي إلى الفتنة، وإن كلن زوجًا لها فلا شيء منه بعودة، غير أنه يكره منها النظر إلى فرجه

(٣) عودة المرأة مع المرأة وهي ما بين السرة والركبة إن كانت أجنبية، وإن كانت محرماً لها فعورتها الفرجان فقط، فيجب سترها عنها، ومثل ذلك عودة الرجل مع الرجل، وحكم اللبس حكم النظر، بل هو أشد منه في المنع والحظر، لأن اللبس يدعو إلى الفتنة أكثر من النظر، فتي خيفت الفتنة حرمت للامسة، ومتى أمنت جازت المصافحة فقط، فقد قال النبي ﷺ لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمسه امرأة لا تحل له، والنظر إلى الصورة الشمسية أو الصور في المرأة، أو الصور المجسمة إذا أدى إلى الفتنة فهو حرام، ويحرم النظر إلى الصور المرايا مجسمة أو شمسية لأنها مدعاة للفتنة، ومعدنة للشهوة، هذا حكم الله (فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَأَنَا مَتَدِيَةٌ لِّنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأَنَا ضَالٌّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)

ولما كلن التغزل واتباع النساء يقع من المنلقين الفاسقين نوعهم الله تعالى بقوله (لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ قَوْمًا بِمِزْقِي وَجَلَالِي لَئِنْ لَمْ يَرْجِعِ (الْمُنَافِقُونَ) الْخَاسِرُونَ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَخِيبَهُمْ وَأُخْرَادَهُمُ بِالْمُؤْمِنِينَ، لَئِنْ لَمْ

يَنْهَوْنَهُمْ (وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ) فضعف إيمانهم لكثرة ذنوبهم
 وَأَكْثَاهُمْ وَضَارُوا لَا يَبَالُونَ بِالْعَاصِي ، إِنْ لَمْ يَنْتَهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ قَسَتْ
 قُلُوبُهُمْ (وَالْمُرْجِفُونَ) الَّذِينَ يَرْجِعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ بِفَسَادِهِمْ
 وَأَقْوَالِهِمْ وَاقْتِرَاءِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ (فِي الْمَدِينَةِ) النُّورَةِ
 مَدِينَةِ الرَّسُولِ الْمُبَارَكَةِ (لِنُفْرَيْنَكَ بِهِمْ) وَلِنَسْلُطَنَكَ عَلَيْهِمْ بِالْعَلْبَةِ
 وَالْقَهْرِ فَتَسْتَأْصِلَهُمْ مِنْهَا قِتْلًا وَإِخْرَاجًا ، وَلَمَّا كَانَ التَّسْلُطُ عَلَيْهِمْ يَتَطَلَّبُ
 ذِمَّةً أَيْ يَمُتُّ قِيَالًا (يَمُتُّ) إِذَا أَصْرَا عَلَى عُنَادِهِمْ وَفَعَالُهُمْ فَأَوْقَعَتْ بِهِمْ
 (لَا يَجْأَرُونَكَ) وَلَا يَقِيمُونَ مَعَكَ (فِيهَا) فِي الْمَدِينَةِ (إِلَّا قَلِيلًا)
 مِنْ الْوَقْتِ وَيَنْصُرُكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا مَدْحُورِينَ ، وَقَدْ كَانَ
 مَلَأَ خَيْرُ رِبِّ الْعَالَمِينَ ، فَانْهَمُوا قَامُوا بِالْمَدِينَةِ حَتَّى ظَاهَرُوا الْأَعْدَاءَ عَلَى
 الرَّسُولِ ، وَتَضَيَّرُوا بِالْجُودِ ، فَأَجْلَامَ مِنْهَا ، وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا ، وَأَرَادَ اللَّهُ
 الرَّسُولَ وَأَصْحَابَهُ مِنْهُمْ وَمِنْ شُرُودِهِمْ ، ثُمَّ حَذَرَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ وَمِنْ
 مَنَاسِقِهِمْ وَالْإِقْبَاءَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ (مَلْفُونِينَ) لَا تَعَاشِرُوا وَلَا تَعَامَلُوا وَلَا
 تَرْجِعُوا مَلْفُونِينَ مَطْرُودِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، لَمَّا ارْتَكَبُوا مِنَ الْإِيذَاءِ ،
 وَأَتَوْا مِنَ النِّفَاقِ (أَيْمًا تُقْفُوا) فِي أَى وَقْتٍ وَفَى أَى مَكَانٍ وَجَدُوا
 (أُجِدُوا) أَسْرُوا لِمَظَاهِرِهِمُ الْأَعْدَاءَ وَاشْتَرَا كَهْمُ فِي حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ
 وَأَصْحَابِهِ رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ (وَقَتَّلُوا تَقْتِيلًا) جَزَاءَ مَا يَفْعَلُونَ ، وَقَدْ وَقَعَ
 كُلُّ ذَلِكَ بِهِمْ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي الْغَزَوَاتِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِدَعَا

ولا جديداً بل حصل مثله في الأمم السابقة ، فكل أمة تخرجت على رسولها وخالفت أو امر دبرها سلط عليها من استأصلها (حُتَّةُ اللَّهِ) تعالى من ذلك وجعله كالعادة (في الذين) في الأمم الذين (خَلَوْا) ومضوا (من قَبْلُ) من قبل هذا العصر المبارك عصر الرسول ﷺ ، وهو أخذ الخوارج والايقاع بهم واستئصالهم (وَلَنْ نَجِدَ) أيها المؤمن أو أيها الكذِب (لِسُنَّةِ اللَّهِ) في خلقه (ثَبِيلاً) ولا نسحاً ولا تحويلاً في كانت الأسباب كانت السببات ، ومنى كل العصيان والتفاني كلن التقتيل والتشريد ، ومنى كانت الطاعة والصلحيات كانت الخيرات ودرت البركات (مَنْ) حَمَلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ) .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَمَّا السَّاعَةُ تَكُونُ قَرِيباً * إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يُجَدُّونَ وَلِنَا نَصِيرٌ * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا إِنَّهُمْ ضَعِيفِينَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنٌ كَبِيرٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا * إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا *
لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه سبحانه وتعالى لمن المنافقين في
قوله (مَلُؤْنِينَ) إلخ فبين بهذا حالهم في الدنيا، ثم بين في هذه حالهم
في الآخرة، وأنه لعنهم وأعد لهم نار السعير خالدين فيها ما لهم من ولي
ولا نصير يتمتعهم منها ولا ينقذ عنهم من عذابها، فقال جل شأنه
(يَسْأَلُكَ) أيها النبي الكريم، والرسول المقرب، أولئك (النَّاسُ)
مشرِكهم ومنافقهم، فأما المشرك فيسألك سؤال الماعند المستهزى
التهكم للمعتد بطلانه لا بعث ولا نشور ولا حشر ولا آخرة،
وإنما هي الحياة الدنيا بيجانم يموت وينتهي أثره، ولا شيء بعد ذلك
وأما المنافق فيسألك سؤال مختبر يريد إحراجك وتعجيزك، لأنه
يعرف أن التوراة لم تبين وقتها، ولم يكن عند أحد علمها، يسألك
هؤلاء الناس (عَنِ السَّاعَةِ) عن وقت قيامها، ومتى تكون، وأين
يومها، وهي القيامة، والحاقة، والقارعة، والصاخة، والطامة،

والرافعة إلخ، فاذ سألك هؤلاء المعاندون « قُلْ » لهم مجيبا على سؤالهم هذا « إِنَّمَا عَلِمَهَا » إنا علم وقها، وعلم يومها وعلم ساعتها « عِنْدَ اللَّهِ » تعالى الذى وسع علمه كل شيء، حاضر وقائب، وشاهد ومستقبل، ولا يعلمها أحد غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولو علمها أحد غير الله لكانت أحق بها وأهلها، قال الله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لَوْفَتَهَا إِلَّا هُوَ) وقال جل شأنه: « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ » وقال جل جلاله: (إِنَّا اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وقال ﷺ حين سئل عن الساعة: « لا يعلمها إلا الله. ولا يجلبها لوفتها إلا هو. ولكن سأخبركم بمشاريطها وما بين يديها من الفتن والمهرج، فقال رجل وما المهرج، قال بلسان الحبشة القتل، وأن تجف قلوب الناس، ويلقى بينهم التناكر، فلا يكاد يعرف أحد أحدا، ويرفع ذؤود الحجا، ويبقى رجرجة من الناس، لا يعرفون معروفا، ولا ينكرون منكرا قال تعالى مؤكدا أن الساعة لا يعلم وقها غير الله تعالى (وَمَا يُذَرِّكَ) وأى شيء يعلمك أمر الساعة، ووقها الميعين، إنك لا تدري فقه ولم أظلمك عليه كغيره مما اختصصتك بعلمه، (لَمَلٍّ) للتأكيد وحصول ما بعدها إن كانت من الله تعالى كما هنا وكفى قوله: (فَلَمَّا كَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ)، (لَمَلَكُمْ تَفْلَحُونَ) إلخ. فكانه قال: إن (الساعة) إن وقها وأهوالها وأمرها (تَكُونُ) تحصل وقع (قَرِيْبًا) فى زمن قريب

كما قال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ) فلى السائلين وغيرهم أن يخشوا يومها ويعملوا قبل قيامها ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . فالأولى العمل لهذا اليوم فكل آت قريب ، وكأنكم أيها السائلون بهذا اليوم وأنتم بين يدي الله مسئولون ، بحاسبكم بما كنتم تعملون ، وأما القيل والقال ، وكثرة السؤال ، والتعال بالآمال ، فلها تورثكم الحسرة والندم وسوء المال ، وقد أخفى الله عليها فلا تأتي إلا بفتة ، ليكون العمل خالصاً لله تعالى لا خوفاً من قيام الساعة ، فالخير لمن آمن بها وعمل الصالحات ، والشر لمن جحد بها واقترب السيئات ، قال ﷺ تهيج الساعة بالناس ، والرجل يسقى على ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يحفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يقيم سلمته في السوق ، قضاء الله ، لأن أنبيكم إلا بفتة ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه فلا يلوكمها ولا يسيفها ولا يلفظها ، وعلى رجلين قد نشرا بينهما ثوباً يتبايعانه فلا يطويانه ولا يتبايعانه ، ومافى قوله (وما يُدْرِيكَ) استفهامية مبتدأ ، وجملة يدريك خبر ، ولعل علقمت يدري عن العمل في الثاني والثالث ، وتكون تامة ، وقريباً ظرف ، ويصح أن تكون ناقصة وقريباً خبرها لأنه صفة المحذوف والتقدير : تكون شيئاً قريباً ، ويصح أن تكون جملة وما يدريك مستقلة ، وجملة لعل الساعة مستقلة ، وقد ورد في قرب الساعة وأشراتها .

أحاديث كثيرة صحيحة منها ما تقدم ومنها ما روى عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى . وروى عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ خطب أصحابه بعد العصر حتى كادت الشمس تغرب ولم يبق منها إلا إسف « شئ قليل » وقال : والذي نفس محمد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقي منها إلا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقي منه ، وما بقي منه إلا اليسير . وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة ، إذا رأيت الناس أمانوا الصلاة وأضاعوا الأمانة وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب واستخفوا بالدماء ، واستعملوا البناء ، وباعوا الدين بالدنيا ، وقطعت الأرحام ، ويكون الحلم ضحكاً ، والكذب صدقاً والحريز لباساً ، وظهر الجور ، وكثر الطلاق ، وموت الفجأة ، واؤتمن الخائن ؛ وخون الأمين ، وصدق الكاذب ، وكذب الصادق وكثر القذف ، وكان الطرقيظاً « صيفاً » والولد غيظاً « يغيظ أمه وأباه أو يكون تمعاً عليهما » وفاض اللثام فيضاً ، وفاض الكرام فيضاً ، وكان الأمراء والوزراء كذبة ، والامناء خونة ، والعرفاء ظلمة ، والقراء فسقة إذا لبسوا مسوك الضأن ، قلوبهم أنين من الجيف ، وأمر من الصبر ، ينشبههم الله تعالى فتنة يهاركون فيها تهارك اليهود الظلمة وظهر الصقراء « الدناير » وتطلب البيضاء « الفضة » وتكثر الخطايا ، ويقل الأمن ، وحلبت المصاحف ، وصورت المساجد ، وطولت المنابر ، وخربت القلوب ، وشربت الخمر ، وعطلت

الحدود، وولنت الأمة ربها، وترى الحفاة العراة قد صاروا ملوكا،
وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبه الرجال بالنساء، والنساء
بالرجال، وحلف بغير الله، وشهد المرء من غير أن يستشهد، وسلم
للمعرفة « ألقى السلام على من يعرفه دون من لا يعرفه » وحققه بغير
ذن الله، وطلب الدنيا بعمل الآخرة، واتخذ المغنم دولا « متداولاً
بين الأقوياء دون الضعفاء » والزكاة مغرمًا، وكان زعيم القوم أرذلهم،
وعق الرجل أباه، وجفا أمه، وأضر صديقه، وأطاع امرأته، وعلت
أصوات الفسقة، في المساجد، واتخذ القينات والمعازف، وشربت
الخمر في الطرق، واتخذ الظلم نفراً، وبيع الحكم، وكثرت الشرط
واتخذ القرآن مزامير، وجلود السباع خفافاً، ولعن آخر هذه الأمة
أولها، فليز تقبوا عند ذلك ريحاً حمراء، وخسفاً ومسحاً وقذفاً وآيات، اه
وتلك العلامات التي ذكرها هذا الحديث هي من العلامات الصغرى،
ولها علامات كبرى، منها ظهور المهدي فيملاً الأرض قسطاً وعدلاً،
كما ملئت جوراً وظلماً، وأحاديث خروج المهدي آخر الزمان، وأنه من
آل البيت النبوي، من ولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بلغت
حد التواتر، فيجب الايمان بخروجه، وقد ورد: من كذب بالمهدي فقد
كفر، رواه أبو بكر الاسكافي في فوائد الأخبار، وأبو القاسم
السهيلي في شرح السير له. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:
قال رسول الله ﷺ: المهدي منا أهل البيت، أشم الأنف، أقي،
أجلى، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، يعيش

هكذا وبسط يبارك، وأصبعين من يمينه، السبابة والابهام، وعقد ثلاثة (يعني سبع سنين)، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ينزل بأننى فى آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم حتى تضيق عليهم الأرض، فيبعث الله رجلاً من عترتى، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، لا تدخر الأرض من بنرها شيئاً إلا أخرجه، ولا السماء شيئاً من قطرها إلا صبته، يعيش فيهم سبع سنين، أو ثمان أو تسع سنين، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لو لم يبق من الدنيا إلا ليلة لطول الله تلك الليلة حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطى اسمه اسمى، واسم أبيه اسم أبى، يملؤها قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، ويقسم المال بالسوية، ويجعل الله الثنى فى قلوب هذه الأمة، فيمكث سبعمائة أو تسعمائة، ثم لا خير فى عيش الحياة بعده، وقد ورد فى ظهور المهدي، وصفته، وأحواله، واسم واسم أبيه، مالا يدع مجالاً للشك فيه، حتى أفردوه بالرسائل والمؤلفات، قال الشوكاني فى مؤلف له سماه (التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر والدجال والمسيح): والأحاديث الواردة فى المهدي التى أمكن الوقوف عليها: منها خمسون حديثاً فيها الصحيح والحسن والضعيف للنجاشي، وهى متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على مادونها، على جميع الاصطلاحات المحررة فى الأصول، وأما الآثار عن الصحابة للصرحة بالمهدي فى كغيره، أيضاً، علمنا حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد فى مثل ذلك إجماعاً

أراد أن يستوفي أخبار المهدي وأشراف الساعة فعليه بكتاب « الاشاعة
في أشراف الساعة » للبرزنجي . ومن علامات الساعة الكبرى
خروج الدجال ، فهو يخرج في زمن المهدي فيفتن الناس فتنة لم توجد
ولن توجد فتنة مثلها واسمه مسيح الضلالة ، وعيسى عليه السلام اسمه
مسيح المهدي ، وقد أفرده بالتأليف ، وقد ورد فيه أحاديث وآثار
لا تدع موضعاً للشك ولا محلاً للريب ، فمن مهران بن حصين رضى
الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما بين « يعنى ليس بين »
خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال ، وعن أبي هريرة رضى
الله عنه عن أمه : ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت
من قبل : الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ، ومن دعواته
ﷺ اللهم إني أعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وعن عبيدة رضى
الله عنه : لم يكن نبي بعد نوح إلا وقد أُنذر قومه الدجال ، إلى غير
ذلك من الأحاديث الدالة على أنه فتنة كبرى وضلال كبير نعوذ بالله
منه ، وهو لعنه الله يخرج من أرض العراق ويمر ببلاد الأرض ،
ويصده الله عن مكة والمدينة فلا يدخلها ، ثم ينزل عيسى عليه السلام
ونزوله من علامات الساعة الكبرى ، ينزل فيجتمع بالمهدي وينصره
ويقتل الدجال ، قال تعالى : (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلْأَلْيَمِينَ
بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) يعنى عيسى عليه السلام ، وقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ
لِلسَّاعَةِ) يعنى عيسى عليه السلام . وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال

قال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ليوشكن أذ ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية : الحديث رواه الشيخان ، ونزوله يكون بالشام عند دمشق ، ثم يموت المهدي . ثم يموت عيسى عليه السلام بالدينة ويدفن مع رسول الله ﷺ ، أخرج البخاري في تاريخه والطبراني وابن عساکر عنه ، قال يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله ﷺ وصاحبيه فيكون قبره رابعا ، وعن عبد الله بن عمر مرفوعا ، ينزل عيسى بن مريم فيزوج ويولد له فيمكث خمسا وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري فأقوم أنا وعيسى ابن مريم من قبر واحد بين أبي بكر وعمر اه ، ثم يفتح سد يأجوج ومأجوج ، وهو من العلامات الكبرى ، وذلك في زمن عيسى عليه السلام ، قال تعالى : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَمْلَهُ دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) وللرأى سد يأجوج ومأجوج ، ثم تخرج الدابة ، وهى من العلامات الكبرى ، قال تعالى : (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) والمعنى إذا جاءت الساعة وصدق وعد الله في كتابه . أخرج الله لهم دابة يقال لها الجساسة ، والله يعلم ما هى وما شكلها تكلمهم بطلان الأديان ماعدا دين الاسلام ، وتنبيههم بأن الناس الكافرين كانوا بآيات الله لا يوقنون ، وهى تخرج من الصفا ليلة منى فتصيب وجه المؤمن والكافر فيمهر لكل علامة يعرف بها المؤمن من الكافر ، ثم تطلع

الشمس من مغربها وذلك من العلامات الكبرى، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، وقال جمهور المفسرين فى قوله تعالى : (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) قالوا هو طلوع الشمس من مغربها ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) قال طلوع الشمس والقمر من مغربها مقترنين كالبعيرين القرينين ثم قرأ وجمع الشمس والقمر ، وحينئذ يرقع الایمان بموت المؤمنین ، ولا يبقى على الأرض إلا الكافرون وأولئك شرار الناس عليهم تقوم الساعة ، فعن أنس رضى الله عنه ، قال لا تقوم الساعة حتى لا تقال فى الأرض لا إله إلا الله ، ثم يخرج نار من عدن تدور بالأرض كلها فتحشر الناس وتسوقهم سوقا ، تمكث ثمانية أيام ، ثم تشقق السماء بانهازم وتثر الكواكب ، وينفخ فى الصور النفخة الاولى وهى نفخة الصعق فيفنى من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله تعالى إقامهم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، وبعد أربعين سنة من النفخة الأولى يبعث الله إسرائيل ويأمره فينفخ فى الصور النفخة الثانية وهى نفخة البعث فتحيى الملائكة ، وإذا الناس قيام ينظرون ، يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، وإلى حساب ربهم يحشرون ، فإذا هم بين يدى الله موقوفون ، وعلى

أعمالهم يحاسبون، فيشتد الكرب ويتمني الناس التهرب ولو إلى النار
 فيشفع لهم خير الأنبياء شفاعة العظمى، فيساق أهل النار إلى النار،
 وتتأق الملائكة أهل الجنة إلى الجنة، ثم تكون للنبي ﷺ شفاعات
 أخرى حتى لا يبق في النار من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان قال تعالى
 (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ
 شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَّظُرُونَ، وَأَشْرَقَتِ
 الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ
 وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
 وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) هذا يكون بين يدي الساعة حتى تقوم
 الساعة، وأما وقتها بالتحديد فلا يطمه إلا الله تعالى. ولما كان السائلون
 من الكافرين أهل النار ناسب أن يبين حالهم يوم القيامة قبل نيل
 شأنه: (إِنَّ اللَّهَ) الذي عنده علم الساعة وعلم كل شيء (لَعَنَ) وأبعد
 وطرد (الكَافِرِينَ) إبداداً وطرداً تاماً من رحمته، اكفرهم وسوء
 أعمالهم وقبح اعتقادهم، مع ظهور الحجة على أنهم في ضلال مبين، فلم
 يعودوا إلى الحق فاستحقوا بذلك العذاب مع اللعن كما قال (وَأَعَدَّ)
 وهياً وكتب (لَهُمْ) مع هذا الطرد في الدنيا (سَعيراً) نارا شديداً
 ضراهما، متأججاً لهيبها (خَالِدِينَ فِيهَا) في هذه النار المستمرة الدائمة
 الاشتغال خلوداً (أَيَّدًا) دائماً، وليس الخلود بمعنى الليكث الطويل،

بل هو خلود دائم لتأكيد الخلود بالتأيد في قوله (أَبَدًا) فلا يخرجون منها وهم مع هذا الخلود (لَا يَمُوتُونَ وَلِيًّا) يتولى إخراجهم منها أو تخفيف حرما عنهم (وَلَا) يَمُوتُونَ (نَصِيرًا) ينصرهم بأي نوع من أنواع النصر ، فهم سيفقدون الولي والنصير ، والشفيح والعين سيرون كل ذلك (يَوْمَ تَقُلُّبُ وُجُوهُهُمْ) قلباً كثيراً في النار يتجهون بها في كل وجهة فلا يجدون إلا ضراماً وسعيراً وتأججاً ولهيباً فعندئذ (يَقُولُونَ) نادمين على ما فعلوه في الدنيا (يَا) من معنا في هذه النار (لَيْتَنَّا) لما كنا في الدنيا (أَطَعْنَا اللَّهَ) تعالى في كل ما أمرنا به ونهاىنا عنه في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأميز (وَأَطَعْنَا) وبإلتنا أطينا (الرُّسُولَ) النبي الأُمي المرسل رحمة للعالمين وهدى وبشرى المسلمين ، وزيدت الألف في الرسول وفقاً على قراءة ، ووقفاً ووصلاً على قراءة ، وحذفت وفقاً ووصلاً على قراءة وهي القياس ، وهذه القراءات وردت في لفظ (الطُّغُونَا) ولفظ (السَّيِّلَا) في هذه السورة ، وهذا التني لا ينضمهم شيئاً ، ولا ينضمهم مما هم فيه من عذاب أليم ، (وَقَالُوا) وهم في أشد الحسرة على ما فعلهم في الدنيا تسائلهم أنفسهم ، من منعكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ، فأجابوا ضارعين إلى الله مستغِيثين به مما هم فيه (رَبَّنَا) ليس الذنب ذنبنا وحدنا (إِنَّا) لما كنا في الدنيا (أَطَعْنَا سَادَتَنَا) الذين صرفونا عن الإيمان ، وزينوا لنا طريق الشيطان ، وصدونا عن سبيل

الرحمن (وَكَبَّرْنَا) وأطعنا كبراءنا في الكفر والسير خلفهم في ضلالهم البعيد (فَأَصْلُونَا) معهم (السَّيْلَا) القوم سبيل الله المستقيم وسلكوا بنا طريق الشيطان الرجيم (رَبَّنَا) بسبب إضلالهم إيانا ، وإضرارهم بنا (آيِهِمْ) وأنزل بهم (ضَعِيفِينَ) مثلين (مِنْ الْعَذَابِ) الذي أنزلته بنا ، عذاب إضلالهم وعذاب لا ضلالهم ، فهم قد ضلوا وأضلوا (وَالْعَنَهُمْ) واطردم من رحمتك إلى عذابك (لَعْنًا كَبِيرًا) عظيما بتشديد العذاب عليهم ، وإزال أشد النكال بهم ، ثم ضرب الله مثلا للذين يخالفون رسول الله ﷺ يقوم موسى عليه السلام الذين نسبوا إلى موسى عليه السلام ما ليس فيه فأذوه بذلك ، ولكن الله برأه مما قالوا فيه ونسبوا إليه ، فكذلك أنتم يا أهل مكة وباقوم هذا النبي الكريم ، لا تؤذوا رسول الله ﷺ بنسبة ما ليس فيه إليه ، كرميه بالسحر والكهانة أو الشعر أو أنه أتى بأساطير الأولين ، فإنه يرى مما قولون ، وعليكم الوزر والاثم وله ﷺ ثواب الله تعالى والدار الآخرة ، قال جل شأنه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالله تعالى ورسوله ﷺ (لَا تَكُونُوا) في موقفكم معه ﷺ (كَالَّذِينَ) كوقف الذين (آذَوْا) بأعمالهم وألسنتهم (مُوسَى) عليه السلام ، فلا تصدوا عن سبيله ، ولا تنسبوا إليه ما هو منه برىء مما لا يليق بمقامه الكريم ، ولا ينبغي مع فضله العظيم ، نزلت هذه الآية في إيدائهم النبي ﷺ بالكلام عند تزوج السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها ، فأظهر

الله تعالى لهم أنه لم يفعل ذلك لنفسه وإنما أمر به كما قال تعالى (زَوْجَنَا كَمَا
يَكِيلًا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا
مِنْهُمْ وَطَرًا) فلا معنى للكلام والتفيل والقال الذي يؤذى رسول الله
ﷺ لأن ذلك كان بأمر ربه (فَبَرَأَهُ اللَّهُ) فبرأ الله تعالى نبيه موسى
عليه السلام (يَمَّا قَالُوا فَقَدْ قَالُوا حِينَ رَأَوْا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَبْلُغُ فِي سِتْرِ
بُحْسِهِ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى : إِنْ يَحْجِسُهُ عِيَا كَبْرُصٍ أَوْ غَيْرِهِ . أَخْرَجَ
الْأَمَامُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ وَجِلًا
خِيفًا سَتِيرًا لَأَبْرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتَحْيَاهُ مِنْهُ ، فَأَذَاهُ مِنْ آذَاهُ مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَقَالُوا مَا يَسْتُرُ هَذَا السِّتْرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ : إِمَّا بَرَصٍ
وَأَمَّا أَدْرَعٌ : وَإِنَّمَا آفَةٌ . وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يَبْرئَهُ مِمَّا قَالُوا ، وَإِنْ
حُوسِمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَا يَوْمًا وَجِدَهُ ، فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى حَجَرٍ ثُمَّ اغْتَسَلَ ،
فَلَمَّا قَرَعَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا ، وَإِنْ الْحَجَرُ عَدَا بِثَوْبِهِ ، فَأَخَذَ مُوسَى
عَلَيْهِ السَّلَامُ عَصَاهُ وَطَلَبَ الْحَجَرَ ، فَعَلَّ يَقُولُ : ثَوْبِي حَجَرٌ . ثَوْبِي
حَجَرٌ . حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَرَأَوْهُ عَرِيضًا أَحْسَنَ
مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَرَأَوْهُ مِمَّا يَقُولُونَ ، وَقَامَ الْحَجَرُ ، فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِثَهُ ،
وَطَفَّقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا بَعْضُهُ ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَسْأَلُهَا الَّذِينَ أُكْفِلُوا
لَا تَسْكُونُ) أَدْوَا مُوسَى فَبَرَأَهُ اللَّهُ تَعَالَى (يَمَّا قَالُوا) وَقِيلَ إِنْ اللَّهُ
تَعَالَى بَرَأَهُ مِنْ قَتْلِ هَارُونَ ، فَمَنْ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ عَلِيٍّ

كرم الله وجهه أنه قال في الآية: صعد موسى وهارون عليهما السلام الجبل ، فأت هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى أنت قتلت ، كن أشد حبا لنا منك وألين ، فأذوه من ذلك ، فأمر الله تعالى الملائكة عليهم السلام فحملوه فزروا به على مجالس بني إسرائيل ، وتكلمت للملائكة عليهم السلام بموته فبرأه الله تعالى ، فانطلقوا به فدفعوه ولم يعرف قبره اه وقد آذوه بأشياء أخر يرأه الله منها جميعا (وَكُنْ) موسى عليه السلام بالرغم منهم (عِنْدَ اللَّهِ) تعالى في علمه وأزله وفي الدنيا والآخرة (وَجِهَاً) ذا جاء لا عيب فيه ولا مطعن ، وقال ابن عباس : كان عظيما عند الله تعالى ، لا يسأله شيئا إلا أعطاه ، وقال الحسن كن مجاب الدعوة وقد كلفه الله جل شأنه ، وقد لقب : كلم الله ، بذلك وبغيره كن موسى عليه السلام عند الله وجهاً مقرباً مقبولا ؛ وقد أودى سيدنا محمد ﷺ بكثير وصبر حتى بلغ رسالته على أئمتها ، وأدى أمانته على وجهها ، أودى بعد البعثة وقبل الهجرة وبعد الهجرة كما هو مبين في كتب السير . ومما أودى به عليه الصلاة والسلام أنه قسم قسما يوم حنين فأثر قوما يتألفهم ويرغبهم في الاسلام ، فقال رجل : هذه قسمة والله ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، قالها في غيبته ﷺ فلما بلغت تغير وجهه وقال : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، ثم قال : برحم الله موسى ، قد أودى بأكثر من هذا فصبر ، والنهي عن إيذائه ﷺ عام في حياته وبعد وفاته ، فمن نسب إليه ﷺ شيئا وتردى في هذه الهوة فهو آثم

خاطيء ظالم لنفسه ، فليحذر الذين يجترئون على هذا المقام المحفوظ بعناية الله وعصمته ، أن ينسبوا إليه مالا يليق بالعصمة ، ولا ينبني بمقام النبوة (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا) وهذا ما أكدته الله تعالى بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) تعالى حق تقاته ، ولا تقولوا على رسوله مالا يليق بمقامه (وَقُولُوا) فيه في أمر زينب وغيرها وفي كل أحواله وفي كل أقوالكم (قَوْلًا) رشيداً (سَدِيداً) صواباً حقاً وصدقاً وعدلاً إن اتبعتم هذا (يُصْلِحْ) الله تعالى (لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ) فيجزيكم عليها بأحسن الثواب ، وبالأضعاف المضاعفة (وَيَقْفَرْ لَكُمْ) بسبب أقوالكم السديدة ، وأعمالكم الحميدة (ذُنُوبَكُمْ) التي سبقت منكم ، ومنها ما فرطتم فيه في حق وَاللَّهُ فالأولى لكم أن تأمروا بأمره ، وتستمعوا له به . فلما ذلك من ربه ، فنأطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ) تعالى فيما أمر به ونهى عنه (وَرَسُولَهُ) ويطع رسوله وَاللَّهُ فيما بلغ ودعا (فَقَدْ قَازَ) بالسعادة في الدنيا والآخرة (قَوْزًا) كبيراً (عَظِيمًا) لا يعادله أى فوز آخر دنيوى مهما يكن من ملك ومال وجاه وعز وبنين وحشية وخدمقانه ولوطال إلى زوال ، ولما أُرشد الله تعالى المؤمنين في السورة إلى مكارم الأخلاق ، وأدب نبيه وَاللَّهُ بأكل الآداب ، بين أن هذا الدين الذى به تسعدون ، وأن

هذه التكليف التي يعملها قفوزون ، هي أمانة الله تعالى أداها المرسلون عليهم الصلاة والسلام إلى أمهم ، فمن احتفظ بتلك الأمانة ؛ وعرف لها حقها ، بأدائها على وجهها كان من المغفور لهم أهل الفوز والفلاح ، ومن ظلمها حقها ؛ ولم يؤد مالها ، كان من المعدين الضالين ، فقال جل شأنه (إِنَّا عَرَضْنَا) عرض تخيير لا إكراه فيه (الْأَمَانَةَ) الصلوات وغيرها مما في فعلها ثواب ، وفي تركها عقاب ، قال ابن عباس أراد بالأمانة الطاعة والفرأض التي فرضها الله على عباده ، عرضها الله تعالى (عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) عرضها على أعيانها كما يعلم جل شأنه عرض تخيير لا إكراه فيه ولو أئزمن لملئنا (فَأَبَيْنَ) إياه إشفاق وخوف ، لا إياه مخالفة وعصيان (أَن يَحْمِلْنَهَا) ويقمن بواجبها (وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا) وخفن خوفا شديداً ألا يؤدين حقها فيقعن في مخالفة الخلاق العظيم (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) وهو آدم عليه السلام وذريته ، قال له ربه إني عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم تطعها ، فهل أنت آخذ بما فيها ، قال : وما فيها ، قال : إن أحسنت جوزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فحملها آدم فقال له ربه : أما إذا تحملت الأمانة فسأعنيك وأجعل لبصرك حجابا ، فاذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل فأرخ عليه حجابا ، وأجعل للسانك لحين وغلافا ، فاذا خشيت فأغلق عليه ، وأجعل لقرجك لباساً فلا تكشفه على ما حرمت عليك ، فلما حملها على هذا ابتلاه ربه وأخرجه من الجنة ، وكان ما كلن منه ومن

ذوقته إلى الآن وإلى يوم القيامة (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)
وأكد الله تعالى أن حمل الأمانة من أشق الأمور فقال جل شأنه :
(إِنَّهُ) إن الإنسان والمراد به غير آدم وغير الأنبياء عليهم الصلاة
والسلام (كَانَ) بطبعه (ظَلُومًا) يظلم نفسه فلا يؤدي الأمانة حقها
(جهولاً) حيث يمكنه على ما يضره ويترك ما ينفعه من التكليف التي لو
أداهما لحطى بسعادتي الدنيا والآخرة ، وكانت التكليف والديانات ،
والرسل والأمانات ، ليظهر الصادق من الكاذب ، والمخلص من المنافق
والمؤمن من الكافر ، فيثيب الله المؤمنين ، ويعذب المنافقين ،
كما قال تعالى : (لِيُعَذِّبَ) والمعنى حمل جل شأنه الأمانة للإنسان
(لِيُعَذِّبَ اللَّهُ) تعالى بسبب العصيان والمخالفة (الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ)
الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ويؤذون الله ورسوله
(وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) الذين يعبدون مع الله غيره ، حملهم الله
الأمانة على أيدي رسله عليهم الصلاة والسلام ، وأقام لهم الحجة على
الحق ، نفالقوا وعصوا ، وأشركوا فعذبهم الله جميعاً ، وأعد لهم جهنم
وسامت مصيراً ، وأما للمؤمنون فرعوا حق الأمانة وأدوها على وجهها
فتاب الله عليهم ، وغفر لهم ما فرط منهم وتابوا منه كما قال تعالى :
(وَيَتُوبُ اللَّهُ) والتعبير بالمضارع في ثوب ويعذب للدلالة على
تجدد العذاب والتوبة عقاباً للمنافقين ، ورحمة بالمؤمنين ، فهو ينشر
رحمته في الآخرة (عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) الذين أدول الأمانة

حقها (وَكَانَ اللَّهُ فِي كُلِّ الْأَقْوَاتِ وَالْأَحْوَالِ غَفُورًا) كثير الغفران
والصفح عمن تاب وأناب (رَحِيمًا) كثير الرحمة والاحسان بفتح
أبواب التوبة والعفوة لكل راجع عن ذنبه ، مقلع عن عصيانه ،
فضلاً منه ونعمة ، وفي الاختتام بأنه غفور رحيم دعوة لكل مذنب
وكل طامع في فضل ربه ، أن يلجأ إليه جل شأنه تائباً منيباً ، سامعاً
مطاعاً ، وقفنا الله في كل أمانتنا وأقوالنا وأحوالنا إلى مافيه رضاه من
العمل الحكيم ، والسير على نهج دينه القويم ، والابتداء بنبيه الكريم
(قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لَهُ هُدًىٰ وَأَمْرًا تَسْلَمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وتم تفسير
سورة الأحزاب بعون الله تعالى وتوفيقه ، فله الحمد والمنة ، وصلى الله
على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وسلام على
المرسلين والحمد لله رب العالمين

عبد الفتاح مفلح

فهرست تفسیر سورة الاحزاب

| الموضوع | الرقم | الموضوع | الرقم |
|---|-------|--|-------|
| بيان المراد من الاختناء في قوله (إلا أن تغلوا إلى أوليائكم معروفا). | ١٨ | مناسبة السورة لما قبلها | ١ |
| مناسبة آية (وإذ أخذنا) لما قبلها | ٢٠ | تسميتها وعمل نزولها | ٢ |
| تفضيله ﷺ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله (ومنك) حكمة تكرار (وأخذنا منهم ميثاقا) | ٢٠ | مادخ من آياتها | ٣ |
| السبب في إرسال الرسل | ٢١ | حكمة النداء بقوله (يا أيها النبي) | ٦ |
| سبب نزوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا لمة الله عليكم) غزوة الخندق (الاحزاب) | ٢٢ | خطابه بقوله (اتق الله) | ٧ |
| سبب الغزوة | ٢٣ | سبب نزول (يا أيها النبي اتق الله) | ٧ |
| اجتماع العرب واليهود ضد الكعبة وتحالفهم على حرب الرسول . | ٢٤ | حكمة قوله (إن الله كان عليا حكيمًا) وقوله بمسدها (إن الله كان بما تعملون خبيرًا) | ٨ |
| جمل قيادة الأحزاب لأبي سفيان أخفاق الرسول وأصحابه على حفر الخندق | ٢٤ | حكمة قوله (وتوكل على الله) | ١٠ |
| ما لقيه الرسول وأصحابه في حفر الخندق | ٢٥ | تفسير (ما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه) | ١٠ |
| سبب نزول قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك) الخ | ٢٦ | إبطال ما دأت من عادات الجاهلية | ١١ |
| | | سبب نزول (ادعهم لآبائهم) | ١٢ |
| | | تفضيل زيد الرسول على أهله | ١٤ |
| | | القضاء على مادة التثنية | ١٥ |
| | | تفضيل النبي ﷺ على النفس والمال والوالد والوالد | ١٦ |
| | | منزلة أزواجه ﷺ عند المؤمنين | ١٧ |
| | | تفسير قوله (وأزواجه أمهاتهم) | ١٧ |
| | | لسخ التارث بالموأخاة وقصره على القرابة | ١٧ |

| الموضوع | الآية | الموضوع | الآية |
|---|-------|---|-------|
| آية الرسول في البركة في قليل الطعام حتى يكفي الكثير من الرجال | ٢٦ | آية الرسول في البركة في قليل الطعام حتى يكفي الكثير من الرجال | ٢٦ |
| اللائق كن معه <small>وَلْيَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ</small> من أهبات المؤمنين في النزوة | ٢٧ | اللائق كن معه <small>وَلْيَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ</small> من أهبات المؤمنين في النزوة | ٢٧ |
| سعي حي بن أخطب حتى تقض بنو قريظة عهدهم | ٢٧ | سعي حي بن أخطب حتى تقض بنو قريظة عهدهم | ٢٧ |
| أحداق العدو بالرسول وأصحابه | ٢٨ | أحداق العدو بالرسول وأصحابه | ٢٨ |
| تضرع النبي <small>ﷺ</small> إلى الله تعالى طالباً بالنصر | ٢٨ | تضرع النبي <small>ﷺ</small> إلى الله تعالى طالباً بالنصر | ٢٨ |
| موقف مشرف لسمد بن معاذ وسد بن عباد | ٢٩ | موقف مشرف لسمد بن معاذ وسد بن عباد | ٢٩ |
| مبارزة الامام علي لمرو بن ود | ٣٠ | مبارزة الامام علي لمرو بن ود | ٣٠ |
| قتل علي لمرو بن ود وطلب المشركين جثته بمشرة الآف دينار | ٣١ | قتل علي لمرو بن ود وطلب المشركين جثته بمشرة الآف دينار | ٣١ |
| فاصلام الرسول إياها وقال (لأنا كل من الموتى) | ٣١ | فاصلام الرسول إياها وقال (لأنا كل من الموتى) | ٣١ |
| حيلة ليم بن مسعود الاشجعي رضي الله عنه في إيقاع الفرقة بين الأحزاب | ٣١ | حيلة ليم بن مسعود الاشجعي رضي الله عنه في إيقاع الفرقة بين الأحزاب | ٣١ |
| إرسال الله الرمح وللأمة لاهلاك الأحزاب | ٣٢ | إرسال الله الرمح وللأمة لاهلاك الأحزاب | ٣٢ |
| إرسال حذيفة بن اليمان حياً على الأحزاب | ٣٣ | إرسال حذيفة بن اليمان حياً على الأحزاب | ٣٣ |
| تفسير (يا أيها الذين آمنوا اذكروا) | ٣٥ | تفسير (يا أيها الذين آمنوا اذكروا) | ٣٥ |
| نعمة الله عليكم) وناسبتها لما قبلها | | نعمة الله عليكم) وناسبتها لما قبلها | |
| الدليل على أن هذه الآيات نزلت في غزوة الأحزاب | ٣٦ | الدليل على أن هذه الآيات نزلت في غزوة الأحزاب | ٣٦ |
| عدد جيش الأحزاب وجيش المؤمنين | ٣٦ | عدد جيش الأحزاب وجيش المؤمنين | ٣٦ |
| تفسير (من فوقكم ومن أسفل منكم) | ٣٨ | تفسير (من فوقكم ومن أسفل منكم) | ٣٨ |
| تفسير (وإذا زلزلت الأرض زلزلة عظيمة) | ٣٨ | تفسير (وإذا زلزلت الأرض زلزلة عظيمة) | ٣٨ |
| سبب نزول (وإذا يقول المنافقون) تخذيل المنافقين للمؤمنين | ٤١ | سبب نزول (وإذا يقول المنافقون) تخذيل المنافقين للمؤمنين | ٤١ |
| الذين استأذنوا وقالوا (إن يوتنا عورة) | ٤٢ | الذين استأذنوا وقالوا (إن يوتنا عورة) | ٤٢ |
| تفسير (ولو دحلت عليهم من أفطارها) | ٤٣ | تفسير (ولو دحلت عليهم من أفطارها) | ٤٣ |
| اعتذارات للمنافقين الباطلة | ٤٤ | اعتذارات للمنافقين الباطلة | ٤٤ |
| ما يؤخذ من غزوة الأحزاب والآيات التي نزلت فيها | ٤٦ | ما يؤخذ من غزوة الأحزاب والآيات التي نزلت فيها | ٤٦ |
| تفسير (قد يعلم الله للمؤمنين منكم) | ٤٨ | تفسير (قد يعلم الله للمؤمنين منكم) | ٤٨ |
| سبب نزول هذه الآيات والكشف عن أحوال المنافقين | ٤٩ | سبب نزول هذه الآيات والكشف عن أحوال المنافقين | ٤٩ |
| الذين نزلت فيهم آية (قد يعلم الخ) | ٥٠ | الذين نزلت فيهم آية (قد يعلم الخ) | ٥٠ |
| تفسير (أشعة عليكم) | ٥١ | تفسير (أشعة عليكم) | ٥١ |
| تفسير (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) | ٥٣ | تفسير (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) | ٥٣ |

| الترتيب | الموضوع | الترتيب | الموضوع |
|---------|---|---------|--|
| ١٠٢ | نبذة في تاريخ زيد بن أسامة | ١٢٦ | وصفه <small>عليه السلام</small> في التوراة |
| ١٠٣ | نبذة في تاريخ زينب بنت جحش | ١٢٧ | مناسبة (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) لما قبلها . |
| ١٠٥ | تفسير (وإذا تقول الذي أنتم الله عليه) الخ | ١٣٠ | مناسبة آية (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) لما قبلها |
| ١٠٧ | بعض الأسباب في زواجه <small>عليه السلام</small> من زينب رضي الله عنها . | ١٣٠ | سبب نزول (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) الخ |
| ١٠٨ | للمراد من قوله (ونخفي في قمك) | ١٣١ | تفسير آية (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك) الخ |
| ١١٠ | سبب نزول (لا تدخلوا بيوت النبي) الخ | ١٣٦ | الحكمة في تنديد غير النبي <small>عليه السلام</small> في تعدد الزوجات |
| ١١٤ | سبب نزول (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم) | ١٣٨ | مناسبة آية (زجي من تشاء) لما قبلها . |
| ١١٤ | تفسير (وخاتم النبيين) | ١٣٩ | سبب نزول (زجي من تشاء) الخ |
| ١١٦ | تفسير (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) الخ | ١٣٩ | تفسير (زجي من تشاء) الخ |
| ١١٦ | مناسبة الآية لما قبلها | ١٤٠ | عدله <small>عليه السلام</small> في القسم بين زوجاته |
| ١١٧ | أفضل الأوقات لذكر الله تعالى | ١٤٤ | سبب نزول (لا يحل لك النساء من بعد) |
| ١١٨ | قيام الليل | ١٤٧ | فضل الإسلام على النساء |
| ١١٨ | ماورد في فضل ذكر الله تعالى | ١٤٨ | ما كانت عليه المرأة قبل الإسلام |
| ١٢٠ | الذكر عبادة وليس خرفة | | وبعده |
| ١٢١ | ماورد من الفاظ التبيين | ١٥٣ | قرشية ترد على عمر فيرجع إلى الحق ويملكه (في الظهر) |
| ١٢١ | تفسير (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) | ١٥٤ | وأد البنات |
| ١٢١ | سبب نزول (هو الذي يصلي عليكم) | ١٥٥ | الحقوق التي أقردها النساء دون الرجال |
| ١٢٤ | سبب نزول قوله (وبشر المؤمنين) | | |

| الصفحة | الموضوع | الصفحة | الموضوع |
|--------|-----------------------------------|--------|--------------------------------------|
| ١٥٥ | الأسباب التي جعل الله بها القوامه | ١٩٨ | السيدة ميمونة بنت الحارث |
| | للرجال على النساء | ٢٠٠ | » صفة بنت حبي |
| ١٥٩ | مشروعية تعدد الزوجات | ٢٠٢ | أسباب تعدد زوجاته ﷺ |
| | والأسباب التي من أجلها أباح | ٢٠٦ | تفسير (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا |
| | الشرع تعدد الزوجات | | بيوت النبي) راجع ومناسبة هذه |
| ١٦١ | للضار التي تنشأ من تحريم تعدد | | الآيات لا سبقها |
| | الزوجات | ٢٠٦ | السبب في نزول هذه الآيات |
| ١٦٢ | الحكمة في تحريم تزوج المرأة | ٢٠٩ | الحوادث التي وافق فيها القرآن |
| | أكثر من واحد في نكاح واحد | | رأى عمر |
| ١٦٣ | تعدد الشروع في وجوب العدل | ٢٢١ | سبب نزول (ولا تتكثروا أزواجه |
| | من زوج أكثر من واحدة | | من بعده) |
| ١٦٤ | الذين يتزوجون بأكثر من | ٢٢٢ | وجوب الحجاب على النساء |
| | واحدة وهم لا يستطيعون | ٢٢٤ | مناعبة آيات (ولا جناح عليهن) |
| ١٦٥ | الذين يجرمون التعدد ويبيحون | | الح لما سبقها والسبب في نزولها |
| | الاختلاط | ٢٢٦ | ما هو الحجاب |
| ١٦٦ | أزواج النبي ﷺ | ٢٢٦ | تفسير (إن الله وملائكته) راجع |
| ١٦٨ | السيدة خديجة بنت خويلد | ٢٢٧ | مقدار عظمة صلاة الله وملائكته |
| ١٧٣ | » سودة بنت زمعة | ٢٢٩ | معنى الصلاة على النبي من الله |
| ١٧٥ | » عائشة الصديقة | ٢٣ | معنى الصلاة عليه من الملائكة |
| ١٨١ | » حفصة بنت عمر | ٢٣١ | فوائد صلاة المؤمنين عليه |
| ١٨٤ | » أم سلمة بنت أبي أمية | ٢٣٤ | بعض الأحاديث في كيفية الصلاة |
| ١٨٨ | » أم حبيبة بنت أبي سفيان | | على النبي ﷺ |
| ١٩١ | » زينب بنت خزيمة | ٢٣٦ | فضل الصلاة على النبي ﷺ |
| ١٩٢ | » زينب بنت جحش | ٢٤١ | سبب نزول آية (إن الذين يؤذون |
| ١٩٦ | » جويرية بنت الحارث | | الله ورسوله) راجع |

| الموضوع | الترتيب | الموضوع | الترتيب |
|---|---------|--|---------|
| مناسبة آية (يسألك الناس عن الساعة) الخ لا قبلها | ٢٦٠ | إيذاء الرسول كما يكون في حياته | ٢٤٣ |
| الساعة تأتي بقتة | ٢٦٢ | الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات | ٢٤٤ |
| أمارات اقتراب الساعة | ٢٦٣ | الواجب في الدعوة إلى الدين | ٢٤٦ |
| علامات الساعة الكبرى | ٢٦٤ | الابتعاد عن أذى المؤمنات والمؤمنين | ٢٤٧ |
| سبب نزول آية (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) | ٢٧١ | مناسبة آية (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك) الخ | ٢٤٩ |
| حديث البخاري في تفسير هذه الآية | ٢٧٢ | سبب نزول آية (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك) الخ | ٢٥٠ |
| مناسبة آية (إننا عرضنا الأمانة) الخ لا قبلها | ٢٧٤ | ما استفاد من الآية من تحريم السفور | ٢٥١ |
| تفسير المراد من الأمانة في الآية | ٢٧٥ | حكم العورة | ٢٥٦ |
| لم كانت التكليف وكانت البيانات | ٢٧٦ | | |

تمت الفهرس

وقه الحمد

• بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٥٦ الموافق ٧ يولييه سنة ١٩٣٧ •

